رحلة الدار الآخرة

﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾

ياسر بن عمر بن مسعود
(أبو عمار الحضرمي تقبله الله)

آخر ما ألفه ثم أفضى إلى ربه عز وجل



بيت المقدس

بسم الله الرحمن الرحيم

1444 هـ 2022 م

Baytalmaqdiss44@gmail.com

بيت المقدس

رحلة الدار الآخرة

﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾

ياسر بن عمر بن مسعود

(أبو عمار الحضرمي تقبله الله)

آخر ما ألفه وبعدها أفضى إلى ربه عز وجل

محرم/1440هـ.

(رجب 1443 هـ – فبراير 2022م)

بيت المقدس

فهرس

مقدمة الناشر

بين أيدينا آخر كتاب ألّفه الشيخ المجاهد، أبي عمار الحضرمي – رحمه الله- بعد مسيرة حافلة بالعطاء والمسابقة في ميادين العلم والرباط والجهاد –كما نحسبه-، وبعد أن ترك خلفه ميراثاً علمياً تستفيد منه أجيال المسلمين والمجاهدين، خطه بحبر العلم والتجربة، فكان أثر الصدق فيه واضحاً والتفاني فيه لافتًا.

نسأل الله أن يتقبل الشيخ الفاضل ويجزيه عن أمة الإسلام خير الجزاء، فهكذا تتوالى قوافل الشهداء بعد أن تركت الأثر، وتستلم الراية من بعدها أجيال أخرى مستفيدة من ميراث من سبق. فاللهم تقبهم شهداءنا وافتح على أيدي من خلفهم، ومكّن لهم بالعلم والعمل. اللهم آمين.

بيت المقدس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (49) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (55) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)﴾ [النجم: 42-62].

ثبت في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سجد في "النجم"، وسجد معه المسلمون والمشركون والإنس والجن.

عن عدي بن حاتم، قال: قال رسول الله ﷺ: ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة "، قال الأعمش: وحدثني عمرو بن مرة، عن خيثمة، مثله، وزاد فيه: «ولو بكلمة طيبة» متفق عليه واللفظ للبخاري.

***مراحل الإنسان في هذه الرحلة إلى الدار الآخرة:**

1. **مرحلة العدم.**
2. **مرحلة بطن الأم(عالم الأجنة).**
3. **عالم الدنيا.**
4. **رحلة الموت (آخر يوم في الدنيا).**
5. **عالم البرزخ (القبر).**
6. **عالم البعث والنشور.**
7. **عالم اليوم الآخر.**
8. **نهاية المطاف: " فريق في الجنة وفريق في السعير".**

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1) إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (4) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6)﴾ [الإنسان: 1-6].

وقال تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (19) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20)﴾ [الانشقاق: 19-20].

قال السعدي رحمه الله: " **(لَتَرْكَبُنَّ)** أي: أيها الناس **(طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)** أي: أطوارا متعددة وأحوالا متباينة، من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح، ثم يكون وليدًا وطفلا ثم مميزًا، ثم يجري عليه قلم التكليف، والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويجازى بأعماله، فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد، دالة على أن الله وحده هو المعبود، الموحد، المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم، ومع هذا، فكثير من الناس لا يؤمنون".

قال ابن جرير رحمه الله بعد ما حكى أقوال الناس في هذه الآية من القراء والمفسرين: "والصواب من التأويل قول من قال لَتَرْكَبَنّ أنت-يا محمَّد-حالا بعد حال وأمرًا بعد أمر من الشَّدَائد.

والمراد بذلك-وإن كان الخطاب إلى رسول الله ﷺ مُوَجَّها جَميعَ الناس، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالا".

عن حماد بن زيد قال: سمعت يونس بن عبيد رحمه الله قال يوما: "يوشك عينك أن ترى مالم تر! ويوشك أذنك أن تسمع مالم تسمع! ثم لا تخرج من طبقة إلا دخلت في ما هو أشد منها حتى يكون آخر ذلك الجواز على الصراط" حلية الأولياء.

وقال ابن القيم رحمه الله: "والمقصود أن هذا العبد لا يزال الله يُرقيه طبقاً بعد طبق ومنزلاً بعد منزل إلى أن يُوصله إليه ويُمكِّن له بين يديه أوْ يموت في الطريق فيقع أجره على الله؛ فالسعيد كل السعيد والموفَّق كُلّ الموَفَّق مَن لَمْ يَلْتَفِت عَن ربّه تبارك وتعالى يميناً ولا شمالاً ولا اتخذ سواه ربًّا ولا وكيلاً ولا حبيباً ولا مدبِّراً ولا حَكَماً ولا ناصِراً ولا رازقاً" مدارج السالكين.

وقبل الدخول في تفاصيل هذه الرحلة نقدم بهذه المقدمات:

المقدمة الأولى

نحن في رحلة....

المنتهى فيها إلى الله ﷻ.. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42)﴾ [النجم: 42].

والرجوع فيها إلى الله ﷻ.. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8)﴾ [العلق: 8].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (281)﴾ [البقرة: 281].

والمصير فيها إلى الله ﷻ.. قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28)﴾ [آل عمران: 28].

والمنقلب إلى الله ﷻ.. قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22)﴾ [العنكبوت: 21-22].

والنشور إلى الله ﷻ... قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)﴾ [الملك: 15].

والحشر فيها إلى الله ﷻ... قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24)﴾ [الملك: 24].

والمساق فيها إلى الله ﷻ... قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30)﴾ [القيامة: 29-30].

والمستقر فيها إلى الله ﷻ... قَالَ تَعَالَى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12)﴾ [القيامة: 10-12].

والمردُّ فيها إلى الله ﷻ... قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (62)﴾ [الأنعام: 62].

واللقاء فيها عند الله ﷻ... فلا تخف ولا تحزن بل استبشر.. قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223)﴾ [البقرة: 223].

عن عدي بن حاتم، قال: قال رسول الله ﷺ: "**ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة** "، قال الأعمش: وحدثني عمرو بن مرة، عن خيثمة، مثله، وزاد فيه: «**ولو بكلمة طيبة**» متفق عليه واللفظ للبخاري.

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)﴾ [الكهف: 49].

أخرج ابْن مرْدَوَيْه عَن ابْن عَبَّاس رضي الله عنهما فِي قَوْله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ [الكهف: 49] قَالَ: "الصَّغِيرَة التبسم والكبيرة الضحك".

وعن عون بن عبد الله رحمه الله في قوله عز وجل ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49] قال: "ضج والله القوم من الصغار قبل الكبار" التمهيد.

أخرج ابْن أبي حَاتِم عَن قَتَادَة رحمه الله: "يشتكي الْقَوْم كَمَا تَسْمَعُونَ الإحصاء، وَلم يشتك أحد ظلما!" اهـ.

"فبينا أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء إلى موقف العرض على الجبار، فيقومون صفا صفا محدقين بالخلائق من الجوانب، وينادون واحدا بعد واحد، فعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على

ملأ الخلائق. وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش: ﴿**وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا**﴾ [الزمر: 69] وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد، ويظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه، وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه، فيبدأ سبحانه بالأنبياء: ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**﴾ [المائدة: 109] فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء من شدة الهيبة، ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره، عن سره وعلانيته، وعن جميع جوارحه وأعضائه. فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك، وأياديه ومساويك، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك وأنت بقلب خافق وطرف خاشع وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرها، وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها، فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه. وبأي لسان تجيب، وبأي قلب تعقل ما تقول" موعظة المؤمنين ص 326.

فستسأل وتجرى عن القليل والكثير والنقير والفتيل وحبة الخردل ومثقال الذر قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77)﴾ [النساء: 77].

(والفتيل: شبه خيط في شق نواة التمرة، وقد شاع استعارته للقلة إذ هو لا ينتفع به ولا له مرأى واضح).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124)﴾ [النساء: 124].

(وَالنَّقِيرُ: شَكْلَةٌ فِي النَّوَاةِ كَالدَّائِرَةِ، يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ فِي الْقِلَّةِ).

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47)﴾ [الأنبياء: 47].

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ) أي: إِنْ كَانَ فِي غَايَةِ الْخِفَّةِ وَالْحَقَارَةِ، فَإِنَّ حَبَّةَ الْخَرْدَلِ مَثَلٌ فِي الصِّغَرِ).

عن ابن مسعود ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيّ ﷺ: «**الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثلُ ذلِكَ**» رواه البخاري.

قال ابن بطال رحمه الله: "دليل واضح أن الطاعات الموصلة إلى الجنة والمعاصي المقربة من النار قد تكون في أيسر الأشياء، ألا ترى قوله (ﷺ): "**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا؛ يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا؛ يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه**".

فينبغي للمؤمن ألا يزهد في قليل من الخير يأتيه، ولا يستقل قليلاً من الشر يجتنيه فيحسبه هينًا، وهو عند الله عظيم، فإن المؤمن لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها، ولا يعلم السيئة التي يسخط الله عليه بها، وقد قال الحسن البصرى: "من تقبلت منه حسنة واحدة دخل الجنة".

أخرج أبو موسى المديني بإسناده في (الترغيب والترهيب) وحسن إسناده ابن رجب، قال: "دخلت امرأةٌ على عائشة ﷺ قد شُلَّت يدُها فقالت: يا أم المؤمنين، بتُّ البارحة صحيحة اليد فأصبحت شلاَّء! قالت عائشة: وما ذاك؟ قالت: كان لي أبوان موسِران، كان أبي يعطي الزكاة ويقري الضيف ويعطي السائل ولا يحقر من الخير شيئاً إلاّ فعله، وكانت أمي امرأة بخيلة ممسكة، لا تصنع فيما لها خيراً، فمات أبي ثم ماتت أمي بعده بشهرين، فرأيت البارحة في منامي أبي وعليه ثوبان أصفران، بين يديه نَهرٌ جارٍ، قالت: يا أبه ما هذا؟ قال: يا بنيه، من يعمل في هذه الدنيا خيراً يره، هذا أعطانيه الله تعالى، قالت: فما فعلت أمي؟ قال: وقد ماتت أمك؟! قلت: نعم، قال: هيهات! عدلت عنّا، فاذهبي فالتمسيها ذات الشمال، فملت عن شمالي، فإذا أنا بأمي قائمة عريانة متزرة بخرقة، بيدها شُحيمة تنادي: والهفاه! واحسرتاه! واعطشاه! فإذا بلغها الجهد دلكت تلك الشُحيمة براحتها ثم لحستها،

وإذا بين يديها نهرٌ جارٍ، قلت: يا أماه مالك ناديت العطش وبين يديك نهرٌ جارٍ؟! قالت: لا أترك أن أشرب منه، قلت: أفلا أسقيك؟ قالت: وددت أنك فعلت، فغرفت لها غرفة فسقيتها، فلمَّا شربت نادى منادٍ من ذات اليمين: ألا من سقى هذه المرأة شُلَّت يمينه مرتين، فأصبحتُ شلاَّء اليمين، لا أستطيع أن أعمل بيميني، قالت لها عائشة: وعَرَفْتِ الخرقة؟ قالت: نعم يا أمَّ المؤمنين، وهي التي رأيتها عليها، ما رأيت أمي تصدَّقت بشيءٍ قط، إلا أن أبي نحر ذات يومٍ ثوراً، فجاء سائل فعمدت أمي إلى عظمٍ عليه شُحيمة فناولتها إياه، وما رأيتها تصدّقت بشيء إلا أن سائلاً جاء يسأل، فعمدت أمي إلى خرقة فناولتها إياه، فكبّرت عائشة رضي الله عنها وقالت: صدق الله وبلَّغ رسوله ﷺ **(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)**" اهـ.

إن المعروف من دلائل الشريعة: أن لله جنة تعهد غراسها وحسن مهادها، وأعد فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. والمعروف أن الله لم يجعل نيل هذه الجنة بالمجان، وأنه كذاك لم يطلب لها ثمنا تافها بل جعل الحصول عليها بأغلى ما يمكن لامرىء أن يدفعه وهو: نفسه وماله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: 111].

وفى غفران الذنوب يقول الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [آل عمران: 195].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "**من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة** "رواه الترمذي وصححه الألباني.

إن الجنة ليست سلعة رخيصة حتى تنال بالكسل والخنوع والرغد... إن الجنة ليست سلعة رخيصة تبذل للكسالى والنومى وطالبي النعيم واللذات الدنيوية...

في رحلة الحياة هذه إلى الدار الآخرة – إن كنت مؤمنا موحدا – هي رحلة في طاعة الله.. رحلة تسجل فيها مقادير الذر ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)﴾ [الزلزلة: 7-8].

رحلة فيها الكلمة ترفع صاحبها إلى أعلى الجنان أو تحطه إلى قرار الجحيم.. رحلة فيها حركة يد على رأس يتيم بعطف تكفر السيئات... وبسمة في وجه الصديق تكتب في الميزان... وجرعة ماء في فم كلب تدخل الجنة.. ورفع حجر عن طريق المسلمين تتقلب به في أنهار الجنة... وأمنية في القلب أن يصيب مسلم خيراً تحط سيئات... إنها رحلة لا تترك الشر حتى يعظم ولا تحتقر الخير مهما صغر.

" **فمن هم بحسنة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها، كتبها الله عز وجل عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة، ولا يهلك على الله إلا هالك**" كما أخبر النبي ﷺ رواه مسلم.

قال القاضي عياض رحمه الله: "معناه: من حتم هلاكه وسدت عليه أبواب الهدى مع سعة رحمة الله تعالى وكرمه وجعله السيئة حسنة إذا لم يعملها وإذا عملها واحدة والحسنة إذا لم يعملها واحدة وإذا عملها عشرا إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة – فمن حرم هذه السعة وفاته هذا الفضل وكثرت سيئاته حتى غلبت مع أنها أفراد حسناته مع أنها متضاعفة فهو الهالك المحروم، والله أعلم".

إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسر جهنم وراءه. عن العلاء بن مُحَمَّد قال: "دخلت على عطاء السلمي وقد غشي عليه فقلت لامرأته أم جعفر ما شأن عطاء؟ فقالت: سجرت جارتنا التنور فنظر إليها فخر مغشياً عليه.

قال ميمون بن مهران رحمه الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (21)﴾ [النبأ: 21] و﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)﴾ [الفجر: 14] قال: فالتمسوا لهذين الرصدين جوازا" حلية الأولياء.

وأخرج الحافظ أبو نعيم في (حلية الأولياء) قال الحسن رحمه الله: "يا ابن آدم دينك دينك فإنه لحمك ودمك، إن يسلم لك دينك يسلم لك لحمك ودمك وإن تكن الأخرى فنعوذ بالله فإنها نار لا تطفي وجرح لا يبرأ وعذاب لا ينفد أبداً، ونفس لا تموت. يا ابن آدم إنك موقوف بين يدي ربك ومرتهن بعملك، فخذ مما في يديك لما بين يديك. عند الموت يأتيك الخبر، إنك مسئول ولا تجد جواباً" اهـ.

وقال رحمه الله: " إن المؤمن عمل لله تعالى أياما يسيرة... وتزود منها فلم تكن الدنيا في نفسه بدار، ولم يرغب في نعيمها ولم يفرح برخائها ولم يتعاظم في نفسه شيء من البلاء إن نزل به مع احتسابه للأجر عند الله ولم يحتسب نوال الدنيا حتى مضى راغباً راهباً فهنيئاً هنيئاً، فأمن الله بذلك روعته وستر عورته ويسر حسابه، وكأن الأكياس من المسلمين يقولون: إنما هو الغدو والرواح وحظ من الدلجة والاستقامة... حتى أن العبد إذا رزقه الله تعالى الجنة فقد أفلح. وأن الله تعالى لا يخدع عن جنته ولا يعطي بالأماني" اهـ.

وقال رحمه الله: "أما بعد؛ فإن الدنيا دار مخيفة، إنما أهبط آدم من الجنة إليها عقوبة، واعلم أن صرعتها ليست كالصرعة، من أكرمها يهن، ولها في كل حين قتيل" اهـ.

وقال رحمه الله: "رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس، ابن آدم إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك، ابن آدم وأنت المعني وإياك يراد" اهـ.

وقال رحمه الله: " ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عن قليل قبرك، إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك".

وكَانَ الحسن رحمه الله يَقُولُ فِي مَوْعِظَتِهِ: (المبادرة المبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل. رحم الله امرءا نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه، ثم قرأ هذه الآية: (**إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا**) يعني الأنفاس، آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك " اهـ. موعظة المؤمنين.

قال مالك بن دينار رحمه الله: دخلت مع الحسن رحمه الله السوق، فمر بالعطارين، فوجد تلك الرائحة، فبكى ثم بكى حتى خفت أن يغشى عليه، ثم قال: يا مالك!! والله إلا حلول القرار من الدارين جميعاً: الجنة والنار وليس هناك منزل ثالث، من أخطأته والله الرحمة صار إلى عذاب الله، قال: ثم جعل يبكي، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتى مات. كان بعض الصالحين ينادي بليل على سور المدينة: الرحيل الرحيل. فلما توفي فقد صوته أمير المدينة، فسأل عنه فقيل: إنه قد مات فقال:

مازال يلهج بالرحيل وذِكره حتى أناخ ببابه الجمَّالُ

فأصابه متيقظًا متشمرًا ذا أُهْبةٍ لم تُلْهِهِ الآمال

وهذه الرحلة نهايتها قريبة وإن رأيناها نحن بعيدة! قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7)﴾ [المعارج: 4-7] المعارج.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: 18].

قال قتادة رحمه الله: "ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعله كغد، فغد يوم القيامة".

وقاله الضحاك وابن زيد وقالا: "الأمس الدنيا، وغداً الآخرة".

إن المقيم في بيته منعّم، وإن المقيم في الثغور والسجون مبتلى، لكنها أيام وسيموت الجميع، والأمس قد ذهب، فمن أقام ليله وصام نهاره فقد ذهب عنه، ومن أقامه في الثغور

فقد ذهب عنه، ومن نامه في أحضان نعيمه فقد ذهب عنه، ولكن القضية في غد... هذه الدنيا كلها (أمس) وأما (غد) فهو بعد الموت، والعاقل لا يعدّ النعيم ما كان في (أمسه) بل النعيم الحقيقي ما كان في (غده)، ألا ترى أن المرء يتعب في الأرض اليوم ليأكل منها غداً، ويرحل اليوم ليرتاح غداً.

إنها أيام (أمس) الذاهبة وغداً يقيل المتعبون ويحطون رحالهم في جوار الرحمن في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

المقدمة الثانية

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (16) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (17)﴾ [الحديد: 16-17].

إن القرآن (كلام الله) واعظ وأعظم واعظ.. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92)﴾ [النمل: 91-92].

ولابد أن يلحظ المسلم أن القرآن أراد الله جل وعلا به في المقام الأول: وعظ القلوب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57)﴾ [يونس: 57].

وقال الله جل وعلا عن ثلة من عباده الصالحين: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 83].

فمعرفة القرآن الحق: أن الإنسان يفيض دمعه، ويوجل قلبه، ويقشعر بدنه إذا سمع آيات الرب تبارك وتعالى، فالإنسان يصيبه الهول، ويصيبه الخوف، فإذا خاف وفزع عمل لما يدفع ذلك الفزع والخوف عن نفسه، **وهذا لا يكون إلا بالإيمان بالله واليوم الآخر، والتقرب إلى الرب تبارك وتعالى بما يحبه ويرضاه حتى يأمن الإنسان من أهوال يوم الوعيد...**

فالمؤمن إذا تذكر الموت وسكرته، وتذكر القبر ووحشته، وتذكر النفخ في الصور وفزعته، وتذكر الصراط وزلته، خاف وارتعب وعمل صالحاً، فإذا خاف في الدنيا فلا يجمع الله على

عبد خوفين فيؤمنه الرب تبارك وتعالى، والله لا يعطي عبداً أمنين، فمن أمن الرب تبارك وتعالى في الدنيا أخافه الله جل وعلا يوم القيامة.

إن كل تقصير يقع فيه الانسان، سواء كان تقصيرا علميا بالتأويل والتحريف للشريعة، أو كان تقصيراً سلوكياً بالرضوخ لدواعي الشهوة، فإنه فرع عن قسوة القلب... وقسوة القلب ناشئة عن البعد عن الوحي، ألا ترى الله تعالى يقول ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: 16].

فإذا قسا القلب تجرأ الانسان على الميل بالشريعة مع هواه.. وإذا قسا القلب تهاون الإنسان في الطاعات واستثقلها.. واذا قسا القلب عظمت الدنيا في عين المرء فأقبل عليها وأهمل حمل رسالة الإسلام للناس.. وإذا قسا القلب ضعفت الغيرة والحمية لدين الله.. والعلاج لما يحيك في هذه الصدور هو مداواتها بتدبر القرآن.. بالله عليك تأمل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57)﴾ [يونس: 57].

ولكن ما الذي في الصدور؟! في الصدور شهوات تتشوف.. وفي الصدور شبهات تنبح.. وفي الصدور حجبٌ غليظة.. وفي الصدور طبقات مطمورة من الرين ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)﴾ [المطففين: 14].

وهذه الدوامات التي في الصدور دواؤها كما قال الله ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: 57].. فإذا شفيت الصدور وجدت خفة نفس في الطاعات.. وإذا شفيت الصدور انقادت للنصوص بكل سلاسة ونفرت من التأويل والتحريف.. وإذا شفيت الصدور تعلقت بالآخرة واستهانت بحطام الدنيا.. وإذا شفيت الصدور امتلأت بحمل هم إظهار الهدى ودين الحق على الدين كله.. وأعجب من ذلك أنه إذا شفيت الصدور استقزمت الأهداف الصغيرة.. تلك الاهداف التي تستعظمها النفوس الوضيعة..

الولـع بالشـهرة.. وحـب الظهـور.. وشـغف الرياسـة والجـاه في عيـون النـاس.. وشـهوة غلبـة الأقران.. هل تظن يا أخي أن تحريف معاني الشريعة لا صلة له بقسوة القلب؟!

أفـلا تقـرأ معـي يا أخـي قولـه تعـالى ﴿وَجَعَلْنَـا قُلُـوبَهُمْ قَاسِـيَةً يُحَرِّفُـونَ الْكَلِـمَ عَـنْ مَوَاضِـعِهِ﴾ [المائدة: 13]؟!

قـال تعـالى: ﴿إِنَّ الَّـذِينَ يَضِـلُّونَ عَـنْ سَـبِيلِ اللَّهِ لَهُـمْ عَـذَابٌ شَـدِيدٌ بِمَـا نَسُـوا يَـوْمَ الْحِسَـابِ (26)﴾ [ص: 26]. "والنسـيان: مسـتعار للإعـراض الشـديد لأنـه يشـبه نسـيان المعـرض عنـه كمـا في قولـه تعـالى: ﴿نَسُـوا اللَّهَ فَنَسِـيَهُمْ﴾ [التوبـة: 67] [التوبـة: 67]، وهـو مراتـب أشـدها إنكـار البعـث والجـزاء، قـال تعـالى: ﴿فَـذُوقُوا بِمَـا نَسِـيتُمْ لِقَـاءَ يَـوْمِكُمْ هَـذَا إِنَّا نَسِـينَاكُمْ﴾ [السـجدة: 14] [السـجدة: 14]. ودونـه مراتـب كثـيرة تكـون علـى وفـق مراتـب العـذاب لأنـه إذا كـان السـبب ذا مراتـب كانـت المسـببات تبعـا لـذلك.... وفي جعـل الضـلال عـن سـبيل الله ونسـيان يـوم الحسـاب سـببين لاسـتحقاق العـذاب الشـديد تنبيـه علـى تلازمهمـا" التحرير والتنوير.

وَقَـالَ السُّـدِّيُّ رحمـه الله: "(**لَهُـمْ عَـذَابٌ شَـدِيدٌ**) بمـا تركـوا أن يعملـوا ليـوم الحسـاب" تفسـير ابـن كثير.

ذكـر ابـن الجـوزي رحمـه الله في (صـفة الصـفوة) عـن مُحَمَّد بـن المنكـدر رحمـه الله قـال: "كانـت لي سـارية في مسـجد رسـول الله ﷺ أجلـس أصـلي إليهـا بالليـل، فقحـط أهـل المدينـة سـنة فخرجـوا يستسـقون فلـم يسـقوا، فلمـا كـان مـن الليـل صـليت عشـاء الآخـرة في مسـجد رسـول الله ﷺ ثم جئـت فتسـاندت إلى سـاريتي، فجـاء رجـل أسـود تعلـوه صـفرة متـزر بكسـاء وعلـى رقبتـه كسـاء أصـغر منـه. ودعـا فقـال: أي رب خـرج أهـل حـرم نبيـك يستسـقون فلـم تسـقهم فـأنا أقسـم عليـك لمـا سـقيتهم! قـال ابـن المنكـدر فقلـت: مجنـون! قـال: فمـا وضـع يـده حـتى سمعـت الرعـد ثم جـاءت السـماء بشـيء مـن المطـر أهمـني الرجـوع إلى أهلـي، فلمـا سمـع المطـر حمـد الله بمحامـد لم أسمـع بمثلهـا قـط، قـال ثم قـال: ومـن أنا؟ ومـا أنا؟ حيـث اسـتجبت إلي؟

ولكن عذت بحمدك وعذت بطولك... ثم قام فتوشح بكسائه الذي كان متزرا به وألقى الكساء الآخر الذي كان على ظهره في رجليه ثم قام فلم يزل قائما يصلي حتى إذا أحس الصبح سجد وأوتر وصلى ركعتي الصبح ثم أقيمت صلاة الصبح فدخل في الصلاة مع الناس ودخلت معه فلما سلم الإمام قام فخرج وخرجت خلفه حتى انتهى إلى باب المسجد فخرج يرفع ثوبه ويخوض الماء فخرجت خلفه رافعا ثوبي أخوض الماء فلم أدر أين ذهب؟ فلما كانت الليلة الثانية صليت العشاء في مسجد رسول الله ﷺ ثم جئت إلى ساريتي فتوسدت إليها وجاء فقام فتوشح بكسائه وألقى الكساء الآخر الذي كان على ظهره في رجليه وقام يصلي فلم يزل قائما حتى إذا خشي الصبح سجد ثم أوتر ثم صلى ركعتي الفجر وأقيمت الصلاة فدخل مع الناس في الصلاة ودخلت معه فلما سلم الإمام خرج من المسجد وخرجت خلفه فجعل يمشي واتبعته حتى دخل دارا قد عرفتها من دور المدينة ورجعت إلى المسجد.

فلما طلعت الشمس وصليت خرجت حتى أتيت الدار فإذا أنا به قاعد يخرز وإذا هو إسكاف! فلما رآني عرفني وقال: أبا عبد الله مرحبا ألك حاجة؟ تريد أن أعمل لك خفا؟ فجلست فقلت: ألست صاحبي بارحة الأولى؟ فاسود وجهه وصاح بي وقال: ابن المنكدر ما أنت وذاك؟ قال وغضب قال: ففرقت والله منه، وقلت: أخرج من عنده الآن.

فلما كان في الليلة الثالثة صليت العشاء الآخرة في مسجد رسول الله ﷺ ثم أتيت ساريتي فتساندت إليها فلم يجيء قال قلت: إنا لله! ما صنعت؟!

فلما أصبحت جلست في المسجد حتى طلعت الشمس ثم خرجت حتى أتيت الدار التي كان فيها فإذا باب البيت مفتوح وإذا ليس في البيت شيء فقال لي أهل الدار: يا أبا عبد الله ما كان بينك وبين هذا أمس؟ قلت: ما له؟ قالوا لما خرجت من عنده أمس بسط كساءه في وسط البيت ثم لم يدع في بيته جلدا ولا قالبا إلا وضعه في كسائه ثم حمله ثم

خرج فلم ندر أين ذهب؟ قال مُحَمّد بن المنكدر: فما تركت بالمدينة دارا أعلمها إلا طلبته فيها فلم أجده رحمه الله".

المقدمة الثالثة

إنه ما تكاسلَ المتكاسلون في عمل الصالحات ولا تجرأ المتجرؤن على المعاصي إلا بسببِ الغفلةِ عن الله والدار الآخرة والانشغالِ عنها.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185)﴾ [آل عمران: 185].

" إنه لا بدَّ من استقرار هذه الحقيقة في النفس: حقيقةُ أنَّ الحياةَ في هذه الأرض موقوتةٌ، محدودةٌ بأجل؛ ثم تأتي نهايتُها حتماً.. يموتُ الصالحون ويموتُ الطالحون. يموت المجاهدون ويموت القاعدون.. يموت المستعلون بالعقيدة... ويموت المستذَلون للعبيد. يموت الشجعانُ الذين يأبون الضيم... ويموتُ الجبناء الحريصون على الحياة بأيِّ ثمن.. يموت ذوو الاهتمامات الكبيرةِ والأهدافِ العالية، ويموتُ التافهون الذين يعيشون فقط للمتاعِ الرخيص.... الكل يموت... (**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**)... كلُّ نفس تذوقُ هذه الجرعة، وتفارقُ هذه الحياة... لا فارقَ بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعةِ من هذه الكأسِ الدائرة على الجميع. إنما الفارق في شيء آخر؛ الفارق في قيمة أخرى.

الفارق في المصير الأخير: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185].

هذه هي القيمة التي يكون فيها الافتراقُ وهذا هو المصير الذي يفترق فيه فلانٌ عن فلان.

القيمةُ الباقيةُ التي تستحقُّ السعي والكدَّ والمصيرُ المخوِّف الذي يستحقُّ أن يحسب له ألفَ حساب" الظلال.

إن الشقاء كل الشقاء والخسارة كل الخسارة حين يكون المستقر في النار، فهي الشر المطلق، والعذاب الأبدي المقيم، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)﴾ [البقرة: 167].

والقرآن وهو يهدد الكافرين بها مع عدم إيمانهم بها، أو بعدم إيمانهم بموجباتها مما يفعلون من الشرك والكفر والضلال، فإنه يخوف المؤمنين بها حتى لا يسلكوا طريقها، ولذلك يستهزئ بها الذين لا يؤمنون بها، والمؤمنون مشفقون منها، ومع عظم عذابها فإن الله سبحانه وتعالى يعجب لجهالة الكافرين واستهزائهم بها كما قال تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175)﴾ [البقرة: 175].

وعلى المؤمن أن يستحضر الخوف منها في كل عمل وحال لأن اليقين عليها من أقوى الدوافع للطاعات وترك المعاصي، وخوف المؤمن منها يشغله عن كل خوف، ويلهيه عن كل نعيم، فأي نعيم هذا الذي يعيشه إن كان نهاية هذا النعيم هو الخلود في جهنم؟! وأهون أهلها فيها رجل يوضع تحت أخمص قدميه جمرتين يغلي منهما دماغه - نسأل الله العفو والعافية - ولذلك هي بئس مثوى الظالمين. اللهم إنا نسألك الجنة ونعوذ بك من النار.

إنَّ الموقنَ بلقاء الله (عز وجل) يوم الفزِع الأكبر، لا تلقاهُ إلا حريصاً على أعماله، خائفاً من كل ما يحبطها أو ينقصها من أنواعِ الشركِ الأكبر أو الشركِ الأصغر أو الكبائر، يقول تعالى في وصف عباده الصالحين: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37)﴾ [النور: 37].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61)﴾ [المؤمنون: 60-61].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (9)﴾ [الزمر: 9].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103)﴾ [هود: 103].

فكلَّما كان العبدُ موقناً بلقاء ربه كان منه الحرصُ الشديد على ألا تضيعَ منه أعمالُه الصالحةُ في موقف القيامة، يومَ أن يكون في أشدِّ الأوقات حاجةُ إليها؛ ولذلك فهو يجاهدُ نفسه بحمايةِ أعماله في الدنيا بالإخلاص فيها لله (تعالى) لعلَّ الله (عز وجل) أن ينفعه بها، كما أن اليقينَ بالرجوعِ إلى الله (عز وجل) يجعلُ العبد في أعماله كلِّها متبعاً للرسول ﷺ غيرَ مبتدع ولا مبدلٍ؛ لأن الله (عز وجل) لا يقبلُ من العملِ إلا ما كان خالصاً صواباً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110)﴾ [الكهف: 110].

الذي يعيشُ بتفكيره في الآخرة وأنبائِها العظيمة لا تهمُّه الدنيا الضيقةُ المحدودة؛ ذلك للرجاء فيما عند الله (عز وجل) من الأجرِ والثواب، وأنه مهما جاء من شدائدَ الدنيا فهي منقطعةٌ ولها أجلٌ، فهو ينتظرُ الفرجَ ويرجو الثواب الذي لا ينقطعُ يوم الرجوعِ إلى الله (عز وجل)، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104)﴾ [النساء: 104].

ومن أيقن أنه محاسب ومسئول عن كل شيء هانت الدنيا عليه وزهد بما فيها وفعل ما ينفعه عند الله تعالى ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)﴾ [الكهف: 49].

إن من لم يؤمن بِاللَّهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ لا يرتدعُ عن قبيحٍ ولا منكرٍ.. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (74)﴾ [المؤمنون: 74].

وعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: "إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول

شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدا" رواه البخاري.

قال ابن حجر رحمه الله: "أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب التنزيل وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة وللكافر والعاصي بالنار فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام ولهذا قالت ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف " اهـ.

* قال تعالى: ﴿أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38)﴾ [التوبة: 38].

هذه قاعدة قرآنية، وهي قاعدة أصولية فقهية، وهي مع ذلك بناء نفسي في ترجيح المصالح الغيبية على المصالح الدنيوية، فهي آية يحتج بها على ما أجمع عليه أهل الدين والعلم والفتوى أن مصالح الآخرة مقدمة على مصالح الدنيا، فقد يحصل التضارب والتعارض بينهما فحينئذ المقدم هي مصالح الآخرة وجوباً لا مثنوية فيه، ومن أجل ذلك فرض الله الجهاد مع ما فيه من إزهاق النفوس، وذهاب الأموال وفراق الأهل والأوطان، وهذا من خصائص هذا الدين، وهي من خصائص أهله، والتفكر في هذا جلياً يلغي الكثير مما يقوله الزنادقة عن الإسلام، فيزعمون أن الأديان جاءت لخدمة الإنسان، أي شهواته، لا على معنى تحقيق مصالحه التي يقرها الشرع وخاصة مصلحة دخوله في رضوان الله تعالى وتحصيل جنتها والنجاة من عذابه وعدم دخوله النار، وهذا هي أعظم مصالح الإنسان وأجلها، بل هي مقصد وجوده في هذا الدنيا لا ما يزعم من عمارتها على معنى تزيينها وزخرفتها والتنافس في تحصيل ملذاتها. وفي هذه الآية بيان أن شأن الجهاد هو شأن أخروي في أصوله وقواعده، وأما ما يحصل بعد ذلك فهو فضل زائد كما قال تعالى في سورة الفتح: ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5)﴾ [الفتح: 5] فسمى ذلك فوزاً عظيماً.

إن مشكلة عدم الرغبة في الآخرة أكثر مما تتجلى في الأمة حين تدعى إلى الجهاد في سبيل الله تعالى فلا تقوم ولا تنفر، قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38)﴾ [التوبة: 38] هذا القليل جاء وصفه في حديث رسول الله ﷺ من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه الذي رواه مسلم أنه قال: "**ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع**".

فهذه هي الحقائق القرآنية التي يجب أن تسري في نفوس أهل هذا الدين، وتستقر فيها، لا مجرد كلمات وأفكار عقلية، بل تصبح هي ميزانهم في اختياراتهم وحياتهم، وعلى أساسها يقوّمون الربح والخسارة، ومن خلال مصلحة الآخرة يكون ميزان التحسين والتقبيح، والحل والحرمة، هذه الحقيقة القرآنية ليست وعظية يقبل عليها أهل الإحسان دون غيرهم من عموم المسلمين كما يظن البعض، بل إنها حقيقة يجب أن يكون لها وجود في عموم الفقه من عبادات ومعاملات وأخلاق، فذكرى الدار الآخرة هي التي تجعل المرء يترك تجارته وماله ليسعى إلى ذكر الله تعالى إن سمع النداء، وذكرى الدار الآخرة هي التي تمنع الفقيه من اقتراح الحيل التي تلتف على الحكم الشرعي فتجعل الحرام حلالاً، ولو تأمل المرء دين الله كله لوجده مبنياً على هذا الأمر، أي تحصيل منفعة الدار الآخرة.

قبل الحديث عن مسائل التوحيد والولاء والبراء والجهاد يجب الإيمان أولا بـ(بِاللَّهِ وبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) فهو الذي يجعلنا نردُّ كلَّ ما تنازعنا فيه إلى الله ورسوله ﷺ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59)﴾ [النساء: 59].

فمنْ لم يردَّ المتنازعَ فيه إلى الله تعالى (أي كتابه) وإلى رسوله ﷺ (أي سنته) فليس مؤمنا بالله واليوم الآخر وإن ادعى ما ادَّعى!! إن (الإيمانُ بِاللَّهِ وبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) هو الذي يثبت المؤمنين في القتال، فلا يفرون ولا يستأذنون، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ أَنْ يُجَاهِـدُوا بِأَمْـوَالِهِمْ وَأَنْفُسِـهِمْ وَاللَّهُ عَلِـيمٌ بِالْمُتَّقِـينَ (44) إِنَّمَـا يَسْـتَأْذِنُكَ الَّـذِينَ لَا يُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ وَارْتَابَـتْ قُلُـوبُهُمْ فَهُـمْ فِي رَيْـبِهِمْ يَتَـرَدَّدُونَ (45)﴾ [التوبـة: 44-45].

فالـذينَ يؤمنـونَ بالله ويعتقـدونَ بيـوم الجـزاء لا ينتظـرونَ أن يـؤذنَ لهـم في أداء فريضـةِ الجهـادِ؛ ولا يتلكئـون في تلبيـةِ داعـي النفـرةِ في سـبيل الله بالأمـوالِ والأرواحِ؛ بـل يسـارعونَ إليهـا خفافـاً وثقالاً كما أمرهُم الله، طاعةً لأمره، ويقيناً بلقائهِ، وثقة بجزائهِ، وابتغاءً لرضاه.

وإنهـم ليتطوعـونَ تطوُّعـاً فـلا يحتـاجون إلى مـن يسـتحثُّهم، فضـلاً عـن الإذن لهـم، إنمـا يسـتأذنُ أولئـكَ الـذين خلـتْ قلـوبُهم مـن اليقـينِ فهـم يتلكئـونَ ويتلمَّسـون المعـاذير، لعـلَّ عائقـاً مـن العوائـقِ يحـولُ بيـنهم وبـين النهـوضِ بتكـاليفِ العقيـدةِ الـتي يتظـاهرونَ بهـا، وهـم يرتابـونَ فيهـا ويـتردَّدون. إنَّ الطريـقَ إلى الله واضـحةٌ مسـتقيمةٌ، فمـا يـترددُ ويتلكـأُ إلا الـذي لا يعـرف الطريـقَ، أو الـذي يعرفُهـا ويتنكبُّهُـا اتقـاءً لمتاعـبِ الطريـق! إن (الإيمـانُ بِاللَّهِ وبِالْيَـوْمِ الْآخِـرِ) هـو الـذي يجعـلُ المـرءَ لا يُـوَادُّ مَـنْ حَـادَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ قـال تعـالى: ﴿لَا تَجِـدُ قَوْمًـا يُؤْمِنُـونَ بِاللَّهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ يُـوَادُّونَ مَـنْ حَـادَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كَـانُوا آبَاءَهُـمْ أَوْ أَبْنَـاءَهُمْ أَوْ إِخْـوَانَهُمْ أَوْ عَشِـيرَتَهُمْ أُولَئِـكَ كَتَـبَ فِي قُلُـوبِهِمُ الْإِيمَـانَ وَأَيَّـدَهُمْ بِـرُوحٍ مِنْـهُ وَيُـدْخِلُهُمْ جَنَّـاتٍ تَجْـرِي مِـنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا رَضِـيَ اللَّهُ عَـنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ أُولَئِـكَ حِـزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِـزْبَ اللَّهِ هُـمُ الْمُفْلِحُـونَ (22)﴾ [المجادلة: 22].

المقدمة الرابعة

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (5) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6)﴾ [العنكبوت: 5-6].

قال ابن القيم رحمه الله: "وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: 5].

لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقائه، وأنّ قلوبهم لا تهدأ دون لقائه، ضرب لهم أجلًا وموعدًا للّقاء تسكن نفوسهم به.

وأطيب العيش وألذّه على الإطلاق عيش المحبّين المشتاقين المستأنسين، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة، ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها وهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97].

ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح؛ بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافًا مضاعفةً. وقد ضمن الله سبحانه لكلّ من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة، فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده. وأيّ حياة أطيب من حياة مَن اجتمعت همومه كلّها، وصارت همًّا واحدًا في مرضاة الله، ولَمَّ شعثَ قلبه بالإقبال على الله، واجتمعت إراداته وأفكاره التي كانت منقسمةً -بكل وادٍ منها شعبة- على الله. فصار ذكرُ محبوبه الأعلى، وحبّه، والشوق إلى لقائه، والأنس بقربه هو المستولي عليه. وعليه تدور همومه وإراداته وقصوده، بل خطرات قلبه. فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله. وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر. وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن. وبه يحيا، وبه يموت، وبه يبعث" اهـ.

عن علي ﷺ: أمر النبي ﷺ عبد الله بن مسعود ﷺ أن يصعد شجرة فيأتيه منها بشيء، فنظر أصحابه إلى ساق عبد الله فضحكوا من حموشة ساقيه! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما تضحكون؟ رجل عبد الله أثقل في الميزان من أحد" رواه البخاري في الادب المفرد.

(حُمُوشَةِ سَاقَيْهِ): أي دقتها.

قال الإمام الذهبي رحمه الله: "قال عبد الله بن مسعود ﷺ: لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقبي اثنان ولحثيتم التراب على رأسي! ولوددت أن الله غفر لي ذنبا من ذنوبي، وأني دعيت عبد الله بن روثة!".

وعن خالد بن معدان رحمه الله قال: "لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى الناس في جنب الله أمثال الأباعر، ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أحقر حاقر " سير أعلام النبلاء.

قال ابن القيم رحمه الله: "ولما كان الألم لا محيص منه البتة، عزى الله – سبحانه – من اختار الألم اليسير المنقطع على الألم العظيم المستمر، بقوله: ﴿**مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [العنكبوت: 5] فضرب لمدة هذا الألم أجلا، لا بد أن يأتي، وهو يوم لقائه، فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله ولله، وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه ووليه على تحمل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيبه الشوق إلى لقائه عن شهود الألم والإحساس به، ولهذا سأل النبي ﷺ ربه الشوق إلى لقائه، فقال في الدعاء الذي رواه أحمد وابن حبان: «**اللهم إني أسألك بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى**

وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين» " زاد المعاد.

وقال رحمه الله: "فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه وأجل لقاء المبتلى سبحانه وإثباته، هان عليه ما هو فيه وخف عليه حمله، ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس وللشيطان ولبني جنسه وكان العامل إذا علم أن ثمرة علمه وتعبه يعود عليه وحده لا يشركه فيه غيره كان أتم اجتهادا وأوفر سعيا فقال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6)﴾ [العنكبوت: 6] وأيضا فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال يعود على الله سبحانه فإنه غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه عليهم، بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم ونهاهم عما يعود مضرته وعتبه عليهم في معاشهم ومعادهم فكانت ثمرة هذا الابتلاء والامتحان مختصة بهم" شفاء العليل.

عن عبادة بن الصامت ﷺ أن نبي الله ﷺ قال: "**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه** " متفق عليه.

وأخرجاه من حديث عائشة ﷺ وزادت " فقلت يا نبي الله أكراهية الموت فكلنا نكره الموت؟ قال: "**ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه**".

ولمسلم من قوله عائشة " ولكن إذا شخص البصر وحشرج الصدر واقشعر الجلد وتشنجت الأصابع، فعند ذلك من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه".

" والذي يحبب إلى العبد لقاء مولاه حسن ظنه فيه وأنه يخرجه إلى دار خير من داره وأهل خير من أهله وحسن الظن يجلبه حسن العمل ومعرفة كرم الله وعفوه وغفرانه، ومحبة الله لقاء العبد إفاضة الخيرات عليه وأنواع الهبات (ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) فمنعه من

عطاياه وهباته والعبد لا يكره لقاء مولاه إلا لما قدم له من الإساءة إليه، فإن قلت: المؤمن يكره الموت! قلت: الموت غير لقاء الله فهو يكره ما فيه من المشقة كراهة طبيعية جبلت عليها الطبائع البشرية لا أنه كاره لقاء ربه" التنوير شرح الجامع الصغير.

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: "ليس وجهه عندي كراهة الموت وشدته، لأن هذا لا يكاد يخلو منه أحد، ولكن المكروه من ذلك إيثار الدنيا والركون إليها، وكراهته أن يصير إلى الله والدار الآخرة قال: ومما يبين أن الله تعالى قد عاب قوما في كتابه بحب الحياة الدنيا، فَقَالَ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا**﴾ [يونس: 7].

وَقَالَ: ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [البقرة: 96].

وَقَالَ: ﴿**وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ [الجمعة: 7].

قال: فهذا يدل على أن الكراهية للقاء الله تعالى ليست بالكراهية للموت، وإنما هو الكراهية للنقلة من الدنيا إلى الآخرة" طرح التثريب.

جاء في (روضة المحبين) للإمام ابن القيم رحمه الله أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: "قل لشُبَّان بني إسرائيل: لِمَ تشغلون نفوسكم بغيري؟! ماهذا الجفاء؟!.. ولو يعلم المدبِرون عنِّي كيف انتظاري لهم ورفقي بهم ومحبتي لترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليَّ وانقطعت أوصالهم من محبتي!.. هذه إرادتي للمدبرين عني فكيف إرادتي للمقبلين عليَّ؟!!".

حكى ابن قدامة رحمه الله في كتابه (التوابين): "عن يُوسُفَ بْنَ الْحُسَيْنِ قال: كنت مع ذي النون المصري على شاطىء غدير فنظرت إلى عقرب أعظم ما يكون على شط الغدير واقفة فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير فركبتها العقرب فجعلت الضفدع تسبح حتى عبرت. فقال ذو النون: إن لهذه العقرب لشأنا فامض بنا فجعلنا نقفوا أثرها فإذا رجل نائم سكران

وإذا حية قد جاءت فصعدت من ناحية سرته إلى صدره وهي تطلب أذنه فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها فانقلبت وانفسخت.

ورجعت العقرب إلى الغدير فجاءت الضفدع فركبتها فعبرت! فحرك ذو النون الرجل النائم ففتح عينيه فقال: يا فتى! انظر مما نجاك الله: هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي أرادتك.

ثم أنشأ ذو النون يقول:

يا غافلا والجليل يحرسه	من كل سوء يدب في الظلم
كيف تنام العيون عن ملك	تأتيه منه فوائد النعم

فنهض الشاب وقال: إلهي! هذا فعلك بمن عصاك فكيف رفقك بمن يطيعك؟ ثم ولى فقلت: إلى أين؟ قال: إلى البادية والله لا عدت إلى المدن أبدا!" اهـ.

قال الإمام الذهبي رحمه الله: "عن خالد بن معدان رحمه الله قال: (لو كان الموت علما يستبق إليه ما سبقني إليه أحد إلا أن يسبقني رجل بفضل قوة!" قال: فما زال الثوري رحمه الله يحب خالد بن معدان مذ بلغه هذا عنه.

وعن عبدة بنت خالد قالت: "قلما كان خالد يأوي إلى فراشه إلا وهو يذكر شوقه إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار ثم يسميهم ويقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل رب قبضي إليك! حتى يغلبه النوم، وهو في بعض ذلك".

وقال الفضيل رحمه الله: "من خاف الله لم يضره أحد، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد".

وقيل للفضيل بن عياض رحمه الله: " يا أبا علي ما الخلاص مما نحن فيه؟ قال: أخبرني من أطاع الله هل تضره معصية أحد؟ قال: لا، قال: فمن يعصي الله هل تنفعه طاعة أحد؟ قال: لا، قال: هو الخلاص إن أردت الخلاص" سير أعلام النبلاء.

أورد ابن رجب رحمه الله تعالى في كتابه (التخويف من النار) عن حفص بن عمر قال: بكى الحسن رحمه الله فقيل: ما يبكيك؟ قال: "أخاف أن يطرحني غدا في النار ولا يبالي".

وأخرج الإمام أحمد في (الزهد): " عن جندب قال لأصحابه: اتلوا القرآن على ما كان بكم من جهد وفاقة فإن عرض يعني: بلاء فابذل مالك دون دينك فإن تخوفت فابذل دمك دون دينك فإن المحروب من حرب دينه وإن المسلوب من سلب دينه، فإنه لا فقر بعد الجنة ولا غنى بعد النار، النار لا يستغني فقيرها ولا يفك أسيرها " اهـ.

قال في (صفة الصفوة): "عن عبد الرحمن بن مهدي يقول: ما عاشرت في الناس رجلاً أرق من سفيان الثوري، وكنت أرمقه الليلة بعد الليلة فما كان ينام إلا أول الليل ثم ينتفض فزعاً مرعوباً ينادي: النار النار! شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات، ثم يتوضأ ويقول على إثر وضوئه: اللهم إنك عالم بحاجتي غير معلم، وما أطلب إلا فكاك رقبتي من النار، إلهي: إن الجزع قد أرقني وذلك من نعمتك السابغة عليّ" اهـ.

قال ابن سيرين رحمه الله: "كان أبو هريرة رضي الله يأتينا بعد صلاة العصر فيقول: عرجت ملائكة، وهبطت ملائكة، وعرض آل فرعون على النار، فلا يسمعه أحد إلا يتعوذ بالله من النار" أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور لابن رجب.

يقول ابن الجوزي رحمه الله: "يا طالب الجنة! بذنب واحد أخرج أبوك منها، أتطمع في دخولها بذنوب لم تتب عنها!".

المقدمة الخامسة

إن الله عز وجل لم يخلق البشر في هذا الكون عبثًا، إنما خلقهم لغاية وهدف أوضحه في كتابه العزيز فقال جل وعلا: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)﴾ [الذاريات: 55].

فإن قيل: بماذا يذكّر؟ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)﴾ [الذاريات: 56].

فإن قيل: هل هذا المعبود يستطيع أن يرزقنا ويدافع عنا ويحمينا؟ **(مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ).**

وخلق الله تبارك وتعالى هذا الكون العظيم وسخره للإنسان ليتفرغ لهذا المقصد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29].

أي أنه جميعه لكم معشر الناس، فليس لكم بعضه دون بعضه، بل هو لكم كله، لأجلكم، تنعمون به، وتعبدون الله تعالى على آلائه، فهو يؤدي إلى أن تكون هذه الملكية التي منحها الله تعالى لكم لتشكروها، ولتعبدوه بهذا الشكر، لا ليقضي فيه شهواته أو ينعم بلذاته فحسب، ولكن ليعبد الله عز وجل ويقيم شرع الله في الأرض.

فالبداية هي أن هذا الكون بكل ما فيه قد وجد أولا قبل أن يخلق الانسان، وتلك قضية لا يستطيع أحد أن يجادل فيها، فلا أحد يستطيع أن يقول ان خلق السموات والأرض تم بعد خلق الانسان، الله سبحانه وتعالى بكمال صفاته وقدراته قد خلق هذا الكون وأوجده ونظمه غير مستعين بأحد من خلقه، ولا محتاج لأحد من عباده، وإننا جميعا أي البشر قد جئنا الى كون معد لنا اعدادا كاملا.

تأمل هذا الدعاء الرقيق للمؤمنين في الأسحار: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)﴾ [آل عمران: 191].

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه رقد عند رسول الله ﷺ، فاستيقظ فتسوك وتوضأ وهو يقول: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: 190]، فَقَرَأَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ..." متفق عليه.

فالرب سبحانه وبحمده حكيم عليم وما خلق الكون إلا لحكمة... فالعالم كله خلق من أجل الإنسان. قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13)﴾ [الرحمن: 5-13].

فينتقل السؤال إلى الإنسان.. ما الغاية من وجوده؟

غايته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)﴾ [الذاريات: 56].. وماذا لو لم يقم بهذه الوظيفة أو أساء القيام بها...؟ (**فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**)!!

فمن لم يعرف مقصد حياته ويعمل لهذا المقصد فقد اتهم الله في حكمته وخلقه-سبحانه وتعالى-يقول تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ**﴾ [المؤمنون: 115-116].

يقول الطبري رحمه الله: "يقول تعالى ذكره: أفحسبتم أيها الأشقياء أنا إنما خلقناكم إذ خلقناكم، لعبا وباطلا؟ وأنكم إلى ربكم بعد مماتكم لا تصيرون أحياء، فتجزون بما كنتم في الدنيا تعملون؟" اهـ.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في توضيح معنى العبادة وتعريفها بأنها: "اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة" وهي مُنقسمة على القلب واللسان والجوارح، فمثلا الخوف والرجاء والمحبة والتوكل والرغبة والرهبة: عبادة قلبية.

والتسبيح والتهليل والتكبير وقراءة القرآن والحمد والشكر باللسان والقلب: عبادة لسانية قلبية.

والصلاة والزكاة والحج والقتال والذبح: عبادة بدنية قلبية... والعبادة التي كلف بها الإنسان، تشمل الصلاة والنسك - أي الشعائر التعبدية - وتشمل معها كل الحياة كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: 162-163].

فقوله تعالى: (**مَحْيَايَ**) هي العبادة وذلك بالعمل في ما يرضي الله في شتى مجالات الحياة: ففي ذكر الله ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 191].

أي في جميع أحوالهم..

وقد كان الصحابة والسلف الصالح ﷺ الذين فهموا الدين على حقيقته يسألون أنفسهم: هل هم في الموضع الذي يرضى الله عنه أم فيما يسخط الله؟ فإن كانوا في موضع الرضى حمدوا الله، وإن كانوا على غير ذلك استغفروا الله وتابوا إليه كما حكى الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136)﴾ [آل عمران: 135-136].

كانوا يسألون أنفسهم: ماذا يريد الله منا في هذه اللحظة؟ أي: ما التكليف المفروض علينا في هذه اللحظة؟ فإذا كان التكليف: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: 74].

كانت عبادة الله مؤديا إلى القيام بالجهاد في سبيل الله.... وإذا كان التكليف: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19].

كانت عبادة الله مؤديا إلى القيام بهذا الواجب الذي أمر به الله تجاه الزوجات... وإذا كان التكليف: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: 6].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "أدبوهم وعلموهم".

كانت عبادة الله مؤديا إلى القيام بتربية الأهل والأولاد على النهج الرباني الذي يضبط سلوكهم بالضوابط الربانية، ويوجه مشاعرهم وأفكارهم وأعمالهم إلى ما يرضى الله...

وإذا كان التكليف: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (15)﴾ [الملك: 15].

كان مقتضى عبادة الله هو المشي في مناكب الأرض وابتغاء رزق الله في حدود الحلال الذي أحله الله، لأنه إليه النشور، فيحاسب الناس على ما اجترحوا في الحياة الدنيا، وهكذا...

يقول ابن القيم رحمه الله: "فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذى يعد سلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم، قد وفر عليه زمانه مبتغياً به وجه الله فلا يزال كذلك عاكفاً على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله ويفتح له فيها الفتح الخاص أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: 100].

وقد حكى عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو حريص طالب للقرآن أَنه رؤى بعد موته وأخبره أنه في تكميل مطلوبه وأنه يتعلم في البرزخ، فإِن العبد يموت على ما عاش عليه. ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر وقد جعله زاده لمعاده ورأْس ماله لمآله، فمتى فتر عنه أَو قصر رأَى أَنه قد غبن وخسر، ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة، فمتى قصر في ورده منها أَو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أَو مستعد لها أَظلم عليه وقته وضاق صدره.

ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي، كقضاءِ الحاجات وتفريج الكربات وإِغاثة اللهفات وأنواع الصدقات، قد فتح له في هذا وسلك منه طريقاً إلى ربه. ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن وهى الغالب على أَوقاته وهى أعظم أوراده.

ومن الناس من يكون طريقه الصوم، فهو متى أفطر تغير عليه قلبه وساءَت حاله. ومنهم يكون طريقه الأَمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد فتح الله له فيه ونفذ منه إلى ربه، ومنهم من يكون طريقه الذى نفذ فيه الحج والاعتمار. ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر وحفظ الأَوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم من جامع المنفذ السالك إلى الله في كل واد الواصل إليه من كل طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه يؤمها أَين كانت ويسير معها حيث سارت قد ضرب من كل فريق بسهم، **فأَين كانت العبودية وجدته هناك**: إن كان علم وجدته مع أَهله، أَو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أَو صلاة وجدته في القانتين، أَو ذكر وجدته في الذاكرين، أَو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أَو ومراقبة ومحبه وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أَنَّى استقلت ركائبها، ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، **لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربى حيث كانت وأين كانت**..." طريق الهجرتين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162)﴾ [الأنعام: 162] فالموت في حد ذاته لا يمكن أن يكون عبادة بطبيعة الحال لأنه لا خيار للإنسان فيه، ولكن المقصود في قوله تعالى: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: 162-163] هو أن يموت الإنسان غير مشرك بالله، وذلك هو الحد الأدنى الذي يكون به الإنسان – في موته – عابداً لله. أما الحد الأعلى فهو أن يكون موته استشهاداً في سبيل الله.. وتلك قمة العبادة!

وعلى هذا فـ(العبادة) بمفهومها الواسع تشمل كل مناحي الحياة والدين، فهي تشمل الأمور التالية:

1- الفرائض وشعائر الإسلام الظاهرة كالصلاة والزكاة والجهاد في سبيل الله وقتال المارقين والمنافقين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها وما زاد على ذلك من النوافل والتطوع ووجوه القربات.

2- وتشمل أيضاً الأخلاق الفاضلة كصلة الأرحام والوفاء بالعهود والصدق والإحسان لليتيم وغير ذلك.

3- وتشمل الأعمال القلبية التي هي من أصول الإيمان كحب الله وخشيته والتوكل عليه. فإذا كان الشخص ينقاد ويخضع لله على جهة الحب والخوف استقلالا ويطيع أمره ويعقد الولاء والبراء له، فيوالي ويعادي عليه ويُقاتل ويُسالم فيه وعليه! فهذا الشخص عابد لله.

4- وتشمل العبادة كل عمل نافع يقصد به فاعله ابتغاء رضا الله والحصول على الأجر، وإن كان أصله مباحا، كالأكل والشرب وتمتع الزوج مع زوجته وكإطعام البهائم والإحسان إلى المملوك. وبهذا يظهر خطأ من قصر العبادة على بعض جوانبها وأهمل الأخرى، كمن يعتقد بأن من يأتي بالأعمال الظاهرة فهو مؤمن ولو علق قلبه بغير الله حباً ورجاء كرئاسة أو جاه أو مال ونحو ذلك.

فكل عبودية لغير الله كبرت أو صغرت هي في نهايتها عبادة للشيطان..﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)﴾ [يس: 60-61].

يشمل ذلك العرب الذين قال الله فيهم.. ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117)﴾ [النساء: 117].

ويشمل كذلك كل عبادة لغير الله على مدار التاريخ... فلقد تغيرت ولا شك بعض مظاهر العبادة... فلم يعد هناك تلك (الإناث) التي كان العرب في شركهم يعبدونها، لكن عبادة الشيطان ذاتها لم تتغير، وحلت محل (الإناث) القديمة أوثان أخرى: الدولة والوطن والزعيم والمذهب والحزب والقومية والعلمانية والديمقراطية والحرية الشخصية والفن والجنس... الخ.

عشرات من (الإناث) الجديدة غير تلك الإناث الساذجة البسيطة التي كان يعبدها العرب في الجاهلية الأولين تضفى عليها القداسات الزائفة وتعبد من دون الله...

فإن قيل: كيف تعبد من دون الله؟ الجواب: إذا كانت الدولة والزعيم والمذهب والحزب والقومية والعلمانية والديمقراطية والحرية الشخصية والفن والجنس والمال... الخ. إذا كان الشخص ينقاد ويخضع لها على جهة الحب والخوف استقلالا ويطيع أمرها في مخالفة الله ويعقد الولاء والبراء لها، فيوالي ويعادي عليها ويُقاتل ويُسالم فيها وعليها! فهذا الشخص عابد لها.

قال تعالى: **﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (45) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (46) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾** [المؤمنون: 45-47].

قال الإمام الطبري رحمه الله في (التفسير19/18): ""لنا عابدون": يعنون أنهم لهم مطيعون متذللون يأتمرون لأمرهم ويدينون لهم، والعرب تسمي كل من دان الملك عابداً له" اهـ.

فمثلا متى يكون الإنسان عابدا للمال؟

الجواب: هو ما ورد في قوله ﷺ: "**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط**" رواه البخاري.

ذلك لأن نيته ونهمته دون سواه، فهو عامل له، ساعٍ من أجله، يحب له ويبغض له وفيه! فإن حصلها فهي غايته لا يطلب سواها، وإن فاتته حزن وسخط، فهذا هو الدليل على معبود الإنسان في عمله، وهو المعنى الحقيقي للخضوع القلبي والطاعة الباطنة، فإن من خضع لشيء: فإنه يحبه حتى صار مطلوبه ونهمته، يرى كل شيء فيه، يسير وجهته ويطلب رضاه ويتبع أثره.

قال ابن رجب رحمه الله: "عَن النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: "**تعس عبد الدِّينَار تعس عبد الدِّرْهَم تعس عبد القطيفة تعس عبد الخميصة تعس وانتكس وَإِذا شيك فَلَا انتقش" فَدلَّ هَذَا على أَن كل من أحب شَيْئا وأطاعه وَكَانَ غَايَة قَصده ومطلوبه ووالي لأَجله وعادى لأَجله فَهُوَ عَبده وَكَانَ ذَلِك الشَّيْء معبوده وإلهه**".

حقيقة (العبودية) التي يحبها الله ﷻ:

أصل العبادة: التذلل والخضوع، تقول طريق معبّد أي مذلل، فالعبودية إذن: صفة ينبغي أن يعيش المرء حقيقتها، وأن تُظهرها صورة تعامله مع ربه من ذل وانكسار وخضوع وافتقار، وطاعة وهيبة وإجلال، وتعلق تام به، وفوق هذا كله: حبٌ عظيمٌ له -ﷻ- فالعبد الذي يحبه مولاه هو من يفعل ما أمره به، راضياً به، فرحاً بأدائه، مستبشراً بطاعة ربه، كما قال سبحانه عن الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90)﴾ [الأنبياء: 90].

ليس كحال المنافقين: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54)﴾ [التوبة: 54].

إن العبودية لله شرف للعبد، والإنسان يتمنى أن يصل إلى أن يكون خادما للملك فإن تأفف فأقل جزاءه الطرد! قال الله عز وجل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (17)﴾ [الحجرات: 17].

فيجب ملاحظة المنة لله، والفضل في الهداية، والقيام بواجب شكرها، والاعتراف بها، كما قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم للأنصار يوم حنين: «**يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضلّالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرّقين فألّفكم الله بي. وكنتم عالة فأغناكم الله بي**»؟ كلما قال شيئا، قالوا: الله ورسوله أمنّ.

فإما أن تكون عبدا لله أو عبدا للشيطان لا يبالي الله بك بأي أودية الدنيا هلكت.. قال شيخ الإسلام رحمه الله: "إن الإنسان على مفترق طريقين لا ثالث لهما، فإما أن يختار العبودية لله، وإما أن يرفض هذه العبودية فيقع لا محالة في عبودية لغير الله" اهـ. مقدمة (رسالة العبودية).

والعبد الصادق يفرح بقربه من الملك أعظم من فرحه للأجرة على خدمته، فعن عائشة رضي الله عنها "أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: "**أفلا أحب أن ان أكون عبدا شكورا**" فما كثر لحمه صلى جالسا" رواه البخاري.

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (113) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (114)﴾ [الأعراف: 113-114].

إن الله جل وعلا غني عن عباده، وليس بحاجة إلى عبادتهم وطاعاتهم، وإنما يرجع فائدة ذلك لمصلحتهم في الدنيا والآخرة.

قال ابن القيم رحمه الله: "وكان العامل إذا علم أن ثمرة علمه وتعبه يعود عليه وحده لا يشركه فيه غيره كأن أتم اجتهادا وأوفر سعيا فقال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6)﴾ [العنكبوت: 6].

وأيضا فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال يعود على الله سبحانه فإنه غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه عليهم، بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم ونهاهم عما يعود مضرته وعتيه عليهم في معاشهم ومعادهم فكانت ثمرة هذا الابتلاء والامتحان مختصة بهم" شفاء العليل.

قال الله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (46)﴾ [فصلت: 46].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (6)﴾ [العنكبوت: 6].

وقال تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: 15].

وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (12)﴾ [لقمان: 12].

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: 7].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (40)﴾ [النمل: 40].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (8)﴾ [إبراهيم: 8].

عن أبي ذر، عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع، إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار، إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي، فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا، فليحمد الله ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه**» رواه مسلم.

وتثبيت الله للعبد بعد موته –وذلك عندما يسأله الملكان في قبره ويختبرون عبوديته لله بتوجيه أسئلة ثلاثة– فتكون الأجوبة على قدر عبودية المرء لله في دار الدنيا.

ولا شك أن من الجفاء مع الله تبارك وتعالى إشغال النفْس بغيره من حُبٍّ له وشوقٍ إليه، وقد عاتب الله تعالى مَنْ هَذِه حَالُه حيث جاء في الأثر الذي أورده ابن القيم في كتابه (روضة المحبين): "أنه تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: "قل لشُبَّان بني إسرائيل: لِمَ تشغلون نفوسكم بغيري؟! ما هذا الجَفَاء؟!.. ولو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم

ورفقي بهم ومحبتي لترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليَّ وانقطعت أوصالهم من محبتي!.. هذه إرادتي للمدبرين عني فكيف إرادتي للمقبلين عليَّ!" فتأمل!.

قال سبحانه موصيا موسى وهارون عليهما السلام لما أرسلهما لفرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44)﴾ [طه: 44].

قال يزيد الرقاشي رحمه الله: "سبحانك ما أعظمك وأحلمك! يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟!".

وقال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله: "هذه رحمتك بمن قال: أنا ربكم الأعلى! فكيف رحمتك بمن قال: سبحان ربي الأعلى؟!".

وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: "هذا رفقك بمن يدعي الربوبية! فكيف رفقك بمن يقر بالعبودية؟!".

جاء في الأثر: "أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود أنذر عبادي الصديقين فلا يعجبن بأنفسهم ولا يتكلن على أعمالهم، فإنه ليس أحد من عبادي أنصبه للحساب وأقيم عليه عدلي إلا عذبته من غير أن أظلمه، وبشر الخطائين أنه لا يتعاظمني ذنب أن أغفره وأتجاوز عنه" حلية الأولياء لأبي نعيم.

فإن أعمال العباد لا توازي القليل من نعم الله عليهم، فتبقى نعمه الكثيرة لا مقابل لها من شكرهم وأعمالهم.

فإذا عذبهم الله عزَّ وجلَّ على ترك شكره، وترك أداء حقه الذي يجب عليهم، لم يكن ظالماً لهم، فإن المقدور للعبد من الطاعات لا يأتي به كله، بل لابد من فتور وإعراض، وغفلة وتوان، وتقصير وتفريط.

وكذلك قيام المرء بالعبودية لا يوفيها حقها الواجب لها من كمال المراقبة والإجلال والتعظيم لله، وبذل مقدوره كله في تحسين العمل، وتكميله ظاهراً وباطناً، فالتقصير لازم في حال الترك، وفي حال الفعل، وهذا هو السر في كون أعمال الطاعات تختم بالاستغفار.

ولو أتى العبد بكل ما يقدر عليه من الطاعات ظاهراً وباطناً، فالذي ينبغي لربه فوق ذلك، وأضعاف أضعافه، فإن عجز عنه لم يستحق ما يترتب عليه من الجزاء، فإذا حرم جزاء ما لم يأت به مما يجب لربه لم يكن الرب ظالماً له.

فإذا عطاه ربه الثواب، كان مجرد صدقة منه وفضل ورحمة، لا عوضاً عن عمله، والعبد مملوك لا يستحق شيئاً على سيده، فإن أعطاه شيئاً فهو إحسان منه وفضل.

عن أبي هريرة ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لن يدخل أحدا عمله الجنة**». قَالُوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قَالَ: "**لا، ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة، فسددوا وقاربوا** "متفق عليه.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه النَّفِيس (مدارج السالكين): "والذي يُخَلِّصُه من طلب العِوَض على العمل عِلْمُه بأنه عبدٌ مَحْض، والعبد لا يستحق على خدمته لسيِّدِهِ عِوَضاً ولا أُجْرة، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته، فَمَا يناله مِن سيِّدِهِ من الأجر والثواب تفضُّل منه وإحسان إليه وإنعام عليه لا معاوَضة، إذِ الأُجْرَة إنما يستحقها الْحُرُّ أو عبدُ الغير، فأمَّا عبد ربِّهِ فَلاَ" اهـ.

ويخطىء كثير من الناس، عندما يستعملون الرجاء في غير موضعه، إذ يرجون وهم مقيمون على الذنوب، ويقولون: إن الله واسع المغفرة وهو الغفور الرحيم! وليس هذا رجاء، وإنما هو الغرة بالله، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (6)﴾ [الانفطار: 6].

قال ابن كثير رحمه الله: " هذا تهديد لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب حيث قال الكريم حتى يقول قائلهم غره كرمه، بل المعنى في هذه الآية: ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم أي العظيم حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان أن عمر سمع رجلا يقرأ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم فقال عمر: الجهل.

إنما أتى باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور" اهـ باختصار.

ففرق بين الغرة والرجاء.

وقد ضرب المحاسني رحمه الله مثلا لهؤلاء المخطئين في استعمال الرجاء فقال: "مثلهم كمثل سيد قال لعبده: إن فعلت ما أمرتك به أعطيتك ألف درهم وبيتا تسكنه، وإن لم تفعل حبستك وضربتك ألف سوط، فلم يفعل العبد ما أمر به، وقال: إن سيدي يحبني وسيعطيني ما وعدني، وذهب إليه بهذا الأمل الكاذب، فضربه، وحبسه، ولم يعطه شيئا".

قال ابن القيم رحمه الله في (طريق الهجرتين): "فاعلم أَن حاجة العبد إِلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه ولا في التوكل عليه ولا في العمل له ولا في الحلف به ولا في النذر له ولا في الخضوع له ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أَعظم من حاجة الجسد إِلى روحه والعين إِلى نورها. بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإِن حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها إِلا بإلهها الذي لا إِله إِلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إِلا بذكره وهي كادحة إِليه كدحاً فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إِلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإِكرامه لها، ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك. بل ينتقل من نوع إِلى نوع ومن شخص إِلى شخص ويتنعم بهذا في وقت ثم يتعذب به ولا بد في وقت آخر، وكثيراً ما يكون ذلك الذى يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك، وإِنما يحصل له

بملابسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأَظفار التي تحكه، فهي تدمى الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره، وهو يؤثر ذلك لما له في حكها من اللذة، وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله هو عذاب عليه ومضرة وأَلم في الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجرب، والعاقل يوازن بين الأَمرين ويؤثر أَرجحهما وأَنفعهما، والله الموفق المعين، وله الحُجَّة البالغة كما له النعمة السابغة. والمقصود أَن إله العبد الذى لا بد له منه في كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين فهو الإله الحق الذى كل ما سواه باطل، والذى أَينما كان فهو معه، وضرورته إليه وحاجته إِليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة بل هى فوق كل ضرورة وأَعظم من كل حاجة، ولهذا قال إمام الحنفاء: ﴿**لآ أُحِبّ الآفِلِينَ**﴾ [الأنعام: 76] والله أعلم" اهـ.

وقال ابن تيمية رحمه الله: "وليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة لا إله إلا الله وهي ملة إبراهيم الخليل – عليه السلام – وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين، وكان النبي ﷺ يقول لأصحابه: "قولوا: أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا مُحَمَّد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين"" اهـ. مجموع الفتاوى 32/28.

وقال ابن القيم رحمه الله: "فإذا كان في القلب وجدان حلاوة الإيمان وذوق طعمه أغناه ذلك عن محبة الأنداد وتأليهها. وإذا خلا القلب من ذلك احتاج إلى أن يستبدل به ما يهواه، ويتخذه إلهه، وهذا من تبديل الدين، وتغيير فطرة الله التي فطر عليها عباده.

قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً، فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا. لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ**﴾.

أي نفس خلق الله لا تبديل له، فلا يخلق الخلق إلا على الفطرة، كما أن خلقه للأعضاء على السلامة من الشق والقطع.

ولا تبديل لنفس هذا الخلق. ولكن يقع التغيير في المخلوق بعد خلقه، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها " رواه البخاري.

فالقلوب مفطورة على حب إلهها وفاطرها وتأليهه. فصرف ذلك التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة.

ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها وردها إلى حالتها التي خلقت عليها فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة، ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها" اهـ. إغاثة اللهفان.

وقال رحمه الله: "وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية، وعرفت الله وعرفت النفس، تبين لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله، ويثيبك عليه أيضاً بكرمه وجوده وتفضله" مدارج السالكين.

وقال رحمه الله: " طوبى لمن أنصف ربه فأقر له بالجهل في علمه والآفات في عمله والعيوب في نفسه والتفريط في حقه والظلم في معاملته فإن آخذه بذنوبه رأى عدله وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله وإن عمل حسنة رآها من منته وصدقته عليه فإن قبلها فمنة وصدقة ثانية وإن ردها فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به وإن عمل سيئة رآها من تخليه عنه وخذلانه له وإمساك عصمته عنه وذلك من عدله فيه فيرى في ذلك فقره إلى ربه وظلمه في نفسه فإن غفرها له فبمحض إحسانه وجوده وكرمه ونكتة المسألة وسرها أنه لا يرى ربه الا محسنا ولا يرى نفسه إلا مسيئا أو مفرطا أو مقصرا فيرى كل ما يسره من فضل ربه عليه وإحسانه إليه وكل ما يسوءه من ذنوبه وعدل الله فيه" اهـ. الفوائد.

فإنّ من أحبّ شيئًا غير الله عُذّب به، ولابدّ:

فمـــا في الأرض أشـــقى مـــن محـــبّ ... وإن وَجَـــد الهـــوى حلـــوَ المـــذاقِ
تـــــراه باكيًـــــا في كـــــل حـــــين ... مخافـــــةَ فُرْقـــــةٍ أو لاشـــــتياقِ
فيبكـــــي إن نأوا شـــــوقًا إلـــــيهم ... ويبكـــي إن دنَـــوا حـــذرَ الفـــراقِ
فتســـخَن عينُـــه عنـــد الفـــراق ... وتســـخَن عينُـــه عنـــد التلاقـــي

قال ابن القيم رحمه الله: "هذا الصديق يمسك بلسانه ويقول: هذا أوردني الموارد!، وعمر يناشد حذيفة: هل أنا منهم؟! والمخلِّط على بساط الأمن!

تقف في صلاتك بجسدك وقد وجّهت وجهك إلى القبلة ووجهت قلبك إلى قِطْرٍ آخر! ويْحك ما تصلح هذه الصلاة مهر الجنة فكيف تصلح ثمناً للمحبة؟! إما أن تصلي صلاةً تليق بمعبودك وإما أن تتخذ معبوداً يليق بصلاتك..

استغث بـمقلب القلوب يُعينك، فإن تأخرت الإجابة فابْعث رائد الانكسار خلفها تجده عند المنكسرة قلوبهم!

اللطف مع الضعف أكثر، فتضاعف ما أمكنك. ويحك لا تحقر نفْسَك فالتائبُ حبيبٌ والمنكسر صحيحٌ، إقرارك بالإفلاس عين الغنى، تنكيس رأسك بالندم هو الرفعة، اعترافك بالخطأ نفس الإصابة.

عُرضت سلعةُ العبوديةِ في سوقِ البيع فَبَذَلت الملائكةُ نَقْد: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: 30] فقال آدم: ما عندي إلا فلوس الإفلاس نقشها: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23].

ذَنْب يذل بِهِ أحب إِلَيْهِ من طَاعَة يدل بهَا عَلَيْهِ!

لو أبصرت طلائعَ الصِّدِّيقين في أوائل الركب أو سمعت استغاثة المحبين في وسط الركب أو شاهدت ساقة المستغفرين في آخر الركب لعلمت أنك قد انقطعت تحت شجرة أم غيلان، واحَسْرتا لمنقطع دون الركب يعد المنازل..

أعُـــدُّ الليـــالِي لَيْلَـــةً بَعْـــدَ لَيْلَـــةٍ   وَقَـــدْ يَجْمَـــعُ اللهُ الشَّتِيتِيـــْنِ بَعْـــدَمَا
وَقَـــدْ عِشْـــتُ دَهْـــراً لا أَعَـــدُّ اللَّياليـــا   يَظُنَّـــانِ كُـــلَّ الظَّـــنِّ أن لاَ تلاَقيـــا

لا تنس العناية بالسحرة... جاءوا يحاربونه ويحاربون رسله، وخُلَعُ الصُّلح قد فُصِّلت وتيجان الرضى قد وُضعِت!

لَمَّا غَلَبَت عليهم المحبةُ صُلبوا في جذوع النخل، واعجباً لِعَزَماتٍ ما ثناها ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ [الأعراف: 124] سَجَدوا له سجدةً واحدةً فمَا رفعوا رؤوسهم حتى رأوا منازلهم من الجنة! فغلبهم الوجْدُ وتمكن منهم الشوق فقالوا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72)﴾ [طه: 72].

إذا رأيت محباً ولم تَدْرِ لمن حُبه، ضع يدك على نبْضه وسَمِّ له من تُطبِّه به فإن النبض ينزعج عند ذكره.. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76)﴾ [المؤمنون: 76].

العبد أضعف من أن يتجلد على ربه والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد عليه بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه ويحب من يشكو ما به إليه.

قيل لبعضهم: كيف تشتكي إليه ما ليس يخفى عليه؟ فقال: ربي يحب ذل العبد إليه، لَيْسَ للعابد مستراح إِلَّا تَحت شَجَرَة طُوبَى، وَلَا للمحب قَرَار إِلَّا يَوْم الْمَزِيد، اشْتغل بِهِ فِي الْحَيَاة يكفك مَا بعد الْمَوْت.

تالله مَا عدا عَلَيْك الْعَدو إِلَّا بعد أَن تولى عَنْك الْوَلِيّ، فَلَا تظن أَن الشَّيْطَان غلب وَلَكِن الْحَافِظ أعرض.

لَيْسَ العجيب من قَوْله يحبونه، إِنَّمَا الْعجب من قَوْله: (**يُحِبهُمْ**)! لَيْسَ الْعجب من فَقير مِسْكين يحب محسنا إِلَيْهِ، إِنَّمَا الْعجب من محسن يحب فَقِيرا مِسْكينا!

يَا مغرورا بالأماني! لعن إِبْلِيس وأهبط من منزل الْعِزّ بترك سَجْدَة وَاحِدَة أَمر بهَا، وَأخرج آدم من الْجنَّة بلقمة تناولهَا، وحجب الْقَاتِل عَنْهَا بعد أَن رَآهَا عيَانًا بملء كف من دم، وَأمر بقتل الزَّانِي أشنع القتلات بإيلاج قدر الْأُنْمُلَة فِيمَا لَا يحل، وَأمر بإيساع الظّهْر سياطا بِكَلِمَة قذف أَو بقطرة سكر، وَأَبَان عضوا من أعضائك بِثَلَاثَة دَرَاهِم، فَلَا تأمنه أَن يحبسك فِي النَّار بِمَعْصِيَة وَاحِدَة من مَعَاصيه (**وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا**)" اهـ.

قال ابن رجب رحمه الله: "قَول لَا إِلَه إِلَّا الله تَقْتَضِي: أَن لَا يحب سواهُ فإن الإله هُوَ الَّذِي يطاع فَلَا يَعْصى محبَّة وخوفا ورجاء وَمن تَمام محبته محبَّة مَا يُحِبهُ وَكَرَاهَة مَا يكرههُ فَمن أحب شَيْئا مِمَّا يكرههُ الله أَو كره شَيْئا مِمَّا يُحِبهُ الله لم يكمل توحيده وَصدقه فِي قَول لَا إِلَه إِلَّا الله، وَكَانَ فِيهِ من الشّرك الْخَفي بِحَسب مَا كرهه مِمَّا يُحِبهُ الله وَمَا أحبه مِمَّا يكرههُ الله قَالَ الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28)﴾ [مُحَمَّد: 28].

وَقَالَ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم: " ثَلَاث من كن فِيهِ وجد بِهن حلاوة الْإِيمَان أَن يكون الله وَرَسُوله أحب اليه مِمَّا سواهُمَا وَأَن يحب الرجل لَا يُحِبهُ إِلَّا لله وَأَن يكره أَن يرجع إِلَى الْكفْر بعد أَن أنقده مِنْهُ كَمَا يكره أَن يلقى فِي النَّار".

هَذِه حَال السَّحَرَة لما سكنت الْمحبَّة قُلُوبهم سمحوا ببذل النُّفُوس وَقَالُوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: 72].

يَا هَذَا اعبد الله لمراده مِنْك لَا لمرادك مِنْهُ فَمن عَبده لمراده مِنْهُ فَهُوَ مِمَّن يعبد الله على حرف إن أَصَابَهُ خير اطْمَأَن بِهِ وَإِن أَصَابَته فتْنَة انْقَلب على وَجهه خسر الدُّنْيَا وَالْآخِرَة.. فإن من امْتَلَأَ قلبه من محبَّة الله لم يكن فِيهِ شَيْء أفرغ من إرادات النَّفس والهوى وَإِلَى ذَلِك أَشَارَ الْقَائِل بقوله:

أروح قد ختمت على فُؤَادِي	بحبك أَن يحل بِهِ سواكا
فَلَو أَنِّي اسْتَطَعْت غضضت طرفِي	فَلم أنظر بِهِ حَتَّى أراكا
أحبك لَا ببعضي بل بكلي	وَإِن لم يبْق حبك لي حراكا
وَفِي الأحباب مَخْصُوص بوجد	وَآخر يَدعِي مَعَه اشتراكا
إِذا اشتبكت دموع فِي خدود	تبين من بكا مِمَّن تباكى
فَأَما من بَكَى فيذوب وجدا	وينطق بالهوى من قد تشاكا

فَمَتى كَانَ الْقلب فِيهِ غير الله فَالله أغْنى الْأَغْنِيَاء عَن الشّرك وَهُوَ لَا يرضى بمزاحمة أصنام الْهوى!

لَا ينجو غدا إِلَّا من لَقِي الله بقلب سليم لَيْسَ فِيهِ سواهُ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)﴾ [الشعراء: 88-89] الْقلب السَّلِيم: هُوَ الطَّاهِر من أدناس المخالفات، فَأَما المتلطخ بِشَيْء من المكروهات فَلَا يصلح لمجاورة حَضْرَة القدوس إِلَّا بعد أَن يطهر فِي كير الْعَذَاب فَإِذا زَالَ عَنهُ الْخبث صلح حِينَئِذٍ للمجاورة...

إن الله طيب لَا يقبل إِلَّا طيبا فَأَما الْقُلُوب الطّيبَة فتصلح للمجاورة من أول الْأَمر ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (24)﴾ [الرعد: 24] ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73)﴾ [الزمر: 73] ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [النحل: 32].

مـن لم يحـرق الْيَـوْم قلبـه بِنَـار الأسـف علـى مَـا سـلف أَو بِنَـار الشـوق إِلَى لِقَـاء الحبيـب فَنَـار جَهَنَّم لَهُ أَشد حرا

مَا يحْتَاج إِلَى التَّطْهِير بِنَار جَهَنَّم إِلَّا من لم يكمل تَحْقِيق التَّوْحِيد وَالْقِيَام بحقوقه

إن الله عـز وَجـل لَـهُ عنايـة بِمـن يُحِبـهُ فَكلمـا زلـق ذَلِـك العَبْـد فِي هـوة الْهـوى أَخـذ بِيَـدِهِ إِلَى نجـوة النجَـاة ييسـر لَـهُ التَّوْبَـة وينبهـه علـى قـبح الزلـة فَيفـزع إِلَى الاعتـذار ويبتليـه بمصـائب مكفـرة لمـا جنى.

وَفِي بعـض الْآثَار يَقُـول الله تعـالى: "أهـل ذكـرى أهـل مجالسـتي وَأهـل طَـاعَتي أهـل كَـرَامَتِي وَأهـل معصـيتي لَا أويســهم مــن رَحْمَــتي إِن تَابُــوا فَــأَنا حبيــبهم وَإِن لم يتوبــوا فَــأَنا طبيــبهم أبتلــيهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب".

يَا قـوم قُلُـوبكُمْ علـى أصـل الطَّهَـارَة وَإِنَّمَـا أَصَـابَهَا رشـاش مـن نَجَاسَـة الـذُّنُوب فرشـوا عَلَيْهَـا قَلِـيلا من دموع الْعُيُون وَقد طهرت!" اهـ.

المقدمة السادسة

عن خالد بن معدان قال: "ما من آدمي إلا وله أربع أعين، عينان في رأسه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيرا فتح عينية اللتين في قلبه فأبصر بهما ما وعد بالغيب" سير أعلام النبلاء.

إن عمل العبد وعبوديته على حسب شاهده فسنذكر هنا شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة:

قال ابن القيم رحمه الله: "فالعمل: إنّما هو على الشّواهد، وعلى حسب شاهد العبد يكون عمله.

ونحن نشير بعون الله وتوفيقه إلى الشّواهد، إشارة يعلم بها حقيقة الأمر.

فأوّل شواهد السّائر إلى الله والدّار الآخرة: أن يقوم به شاهد من الدّنيا وحقارتها، وقلّة وفائها، وكثرة جفائها، وخسّة شركائها، وسرعة انقضائها، ويرى أهلها وعشّاقها صرعى حولها، قد بدعت بهم، وعذّبتهم بأنواع العذاب، وأذاقتهم أمرّ الشّراب، أضحكتهم قليلا، وأبكتهم طويلا، سقتهم كؤوس سمّها، بعد كؤوس خمرها، فسكروا بحبّها، وماتوا بهجرها.

الثاني: "فإذا قام بالعبد هذا الشّاهد منها: ترحّل قلبه عنها، وسافر في طلب الدّار الآخرة وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وأنّها هي الحيوان حقّا، فأهلها لا يرتحلون منها، ولا يظعنون عنها، بل هي دار القرار، ومحطّ الرّجال، ومنتهى السّير، وأنّ الدّنيا بالنّسبة إليها كما قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم «ما الدّنيا في الآخرة إلّا كما يجعل أحدكم إصبعه في اليمّ، فلينظر بم ترجع؟» وقال بعض التّابعين: ما الدّنيا في الآخرة إلّا أقلّ من ذرّة واحدة في جبال الدّنيا".

الثالث: "ثمّ يقوم بقلبه شاهد من النّار، وتوقّدها واضطرامها، وبعد قعرها، وشدّة حرّها، وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سود الوجوه، زرق العيون، والسّلاسل والأغلال في أعناقهم، فلمّا انتهوا إليها فتحت في وجوههم أبوابها، فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطّعت قلوبهم حسرة وأسفا ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53)﴾ [الكهف: 53].

فأراهم شاهد الإيمان، وهم إليها يدفعون، وأتى النّداء من قبل ربّ العالمين: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (24)﴾ [الصافات: 24].

ثمّ قيل لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)﴾ [الطور: 14-16].

فيراهم شاهد الإيمان، وهم في الحميم على وجوههم يسحبون، وفي النّار كالحطب يسجرون ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: 41].

فبئس اللّحاف وبئس الفراش، وإن استغاثوا من شدّة العطش ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: 29].

فإذا شربوه قطّع أمعاءهم في أجوافهم، وصهر ما في بطونهم، شرابهم الحميم، وطعامهم الزّقّوم ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (37)﴾ [فاطر: 36-37].

فإذا قام بقلب العبد هذا الشّاهد: انخلع من الذّنوب والمعاصي، واتّباع الشّهوات، ولبس ثياب الخوف والحذر، وأخصب قلبه من مطر أجفانه، وهان عليه كلّ مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه.

وعلى حسب قوّة هذا الشّاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات، فيذيب هذا الشّاهد من قلبه الفضلات، والموادّ المهلكة، وينضجها ثمّ يخرجها، فيجد القلب لذّة العافية وسرورها.

الرابع: "فيقوم به بعد ذلك: شاهد من الجنّة، وما أعدّ الله لأهلها فيها، ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فضلا عمّا وصفه الله لعباده على لسان رسوله من النّعيم المفصّل، الكفيل بأعلى أنواع اللّذّة، من المطاعم والمشارب، والملابس والصّور، والبهجة والسّرور، فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النّعيم المقيم الدّائم بحذافيره فيها، تربتها المسك، وحصباؤها الدّرّ، وبناؤها لبن الذّهب والفضّة، وقصب اللّؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل، وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذّ من الزّنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهنّ في هذه الدّنيا لغلب على ضوء الشّمس، ولباسهم الحرير من السّندس والإستبرق، وخدمهم ولدان كاللّؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، وغذاؤهم لحم طير ممّا يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وخضرتهم فاكهة ممّا يتخيّرون، وشاهدهم حور عين كأمثال اللّؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متّكئون، وفي تلك الرّياض يحبرون، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، وهم فيها خالدون".

الشاهد الخامس: "فإذا انضمّ إلى هذا الشّاهد: شاهد يوم المزيد، والنّظر إلى وجه الرّبّ جلّ جلاله، وسماع كلامه منه بلا واسطة، كما قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم «**بينما أهل الجنّة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرّبّ تعالى قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنّة، سلام عليكم** ثمّ قرأ قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (58)﴾ [يس: 58] **ثمّ يتوارى عنهم، وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم**»".

فإذا انضمّ هذا الشّاهد إلى الشّواهد الّتي قبله: فهناك يسير القلب إلى ربّه أسرع من سير الرّياح في مهابّها، فلا يلتفت في طريقه يمينا ولا شمالا.

الشاهد السادس: "هذا وفوق ذلك: شاهد آخر تضمحلّ فيه هذه الشّواهد، ويغيب به العبد عنها كلّها، وهو شاهد جلال الرّبّ تعالى، وجماله وكماله، وعزّه وسلطانه، وقيّوميّته وعلوّه فوق عرشه، وتكلّمه بكتبه وكلمات تكوينه، وخطابه لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهده شاهد بقلبه قيّوما قاهرا فوق عباده، مستويا على عرشه، منفردا بتدبير مملكته، آمرا ناهيا، مرسلا رسله، ومنزلا كتبه، يرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعزّ ويذلّ، ويحبّ ويبغض، ويرحم إذا استرحم، ويغفر إذا استغفر، ويعطي إذا سئل، ويجيب إذا دعي، ويقيل إذا استقيل، أكبر من كلّ شيء، وأعظم من كلّ شيء، وأعزّ من كلّ شيء، وأقدر من كلّ شيء، وأعلم من كلّ شيء، وأحكم من كلّ شيء، فلو كانت قوى الخلائق كلّهم على واحد منهم، ثمّ كانوا كلّهم على تلك القوّة، ثمّ نسبت تلك القوى إلى قوّة البعوضة بالنّسبة إلى قوّة الأسد، ولو قدّر جمال الخلق كلّهم على واحد منهم، ثمّ كانوا كلّهم بذلك الجمال، ثمّ نسب إلى جمال الرّبّ تعالى لكان دون سراج ضعيف بالنّسبة إلى عين الشّمس، ولو كان علم الأوّلين والآخرين على رجل منهم، ثمّ كان كلّ الخلق على تلك الصّفة، ثمّ نسب إلى علم الرّبّ تعالى لكان ذلك بالنّسبة إلى علم الرّبّ كنقرة عصفور في بحر، وهكذا سائر صفاته، كسمعه وبصره، وسائر نعوت كماله، فإنّه يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللّغات، على تفنّن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرّم بإلحاح الملحّين، سواء عنده من أسرّ القول ومن جهر به، فالسّرّ عنده علانية، والغيب عنده شهادة، يرى دبيب النّملة السّوداء على الصّخرة الصّمّاء في اللّيلة الظّلماء، ويرى نياط عروقها ومجاري القوت في أعضائها، يضع السّماوات على إصبع من أصابع يده، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والشّجر على إصبع، والماء على إصبع، ويقبض سماواته بإحدى يديه، والأرضين باليد الأخرى، فالسّماوات السّبع في كفّه كخردلة في كفّ العبد، ولو أنّ الخلق كلّهم من أوّلهم إلى آخرهم قاموا صفّا واحدا ما أحاطوا بالله عزّ وجلّ، لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشّاهد: اضمحلّت فيه الشّواهد المتقدّمة من غير أن تعدم، بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشّاهد، وتندرج فيه الشّواهد كلّها، ومن هذا شاهده فله سلوك وسير خاصّ، ليس لغيره ممّن هو عن هذا في غفلة، أو معرفة مجملة.

فصاحب هذا الشّاهد سائر إلى الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه وفطره وصيامه، له شأن وللنّاس شأن، هو في واد والنّاس في واد.

خليليّ لا والله ما أنا منكما إذا علم من آل ليلى بدا ليا

والمقصود: أنّ العيان والكشف والمشاهدة في هذه الدّار إنّما تقع على الشّواهد والأمثلة العلميّة، وهو المثل الأعلى الّذي ذكره سبحانه في ثلاثة مواضع من كتابه في سورة النّحل وسورة الرّوم وسورة الشّورى، وهو ما يقوم بقلوب عابديه ومحبّيه، والمنيبين إليه من هذا الشّاهد، وهو الباعث لهم على العبادة والمحبّة، والخشية والإنابة، وتفاوتهم فيه لا ينحصر طرفاه، فكلّ منهم له مقام معلوم لا يتعدّاه، وأعظم النّاس حظّا في ذلك معترف بأنّه لا يحصي ثناء عليه سبحانه، وأنّه فوق ما يثني عليه المثنون، وفوق ما يحمده الحامدون، كما قيل:

وما بلغ المهدون نحوك مدحة وإن أطنبوا إنّ الّذي فيك أعظم
لك الحمد كلّ الحمد لا مبدأ له ولا منتهى والله بالحمد أعلم

وطهارة القلب، ونزاهته من الأوصاف المذمومة، والإرادات السّفليّة، وخلوّه وتفريغه من التّعلّق بغير الله سبحانه، هو كرسيّ هذا الشّاهد، الّذي يجلس عليه، ومقعده الّذي يتمكّن فيه، فحرام على قلب متلوّث بالخبائث والأخلاق الرّديئة والصّفات الذّميمة، متعلّق بالمرادات السّافلة أن يقوم به هذا الشّاهد، وأن يكون من أهله.

نزّه فؤادك عن سوانا وائتنا فجنابنا حلّ لكلّ منزّه
والصّبر طلّسم لكنز لقائنا من حلّ ذا الطّلّسم فاز بكنزه

إذا طلعت شمس التّوحيد، وباشرت جوانبها الأرواح، ونورها البصائر، تجلّت بها ظلمات النّفس والطّبع، وتحرّكت بها الأرواح في طلب من ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (11)﴾ [الشورى: 11]، فسافر القلب في بيداء الأمر، ونزل منازل العبوديّة، منزلا منزلا، فهو ينتقل من عبادة إلى عبادة، مقيم على معبود واحد، فلا تزال شواهد الصّفات قائمة بقلبه، توقظه إذا رقد، وتذكّره إذا غفل، وتحدو به إذا سار، وتقيمه إذا قعد، إن قام بقلبه شاهد من الرّبوبيّة والقيّوميّة رأى أنّ الأمر كلّه لله، ليس لأحد معه من الأمر شيء ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)﴾ [فاطر: 2-3] ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107)﴾ [يونس: 107] ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ (38)﴾ [الزمر: 38] ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89)﴾ [المؤمنون: 84-89]" اهـ.

المقدمة السابعة

اعلم بأن كل عالم من هذه العوالم يختلف فيها الإنسان قدرة وهيئة وتذكرا...

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)﴾ [ق: 22].

ففي عالم العدم: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (172) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (173)﴾ [الأعراف: 172-173].

وقال النبي ﷺ: "**يقول الله لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: يا ابن آدم كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع، فيقال له: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: كذبت، قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً ولا أدخلك النار فأبيت إلا الشرك، فيؤمر به إلى النار**" رواه البخاري ومسلم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في (فتح الباري): "فيه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: 172]".

قال الشوكاني رحمه الله: "والمعنى: أنّ الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه ذرّيّته وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم الذّرّ، وهذا هو الحقّ الّذي لا ينبغي العدول عنه ولا المصير إلى غيره لثبوته مرفوعا إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم وموقوفا على غيره من الصّحابة، ولا ملجئ للمصير إلى المجاز، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقلٍ" اهـ.

وقال ابن الجوزي رحمه الله في (زاد المسير): "قال المفسرون: وهذه الآية تذكير من الله تعالى بما أخذ على جميع المكلَّفين من الميثاق، واحتجاج عليهم لئلا يقول الكفار: إنا كنّا عن هذا الميثاق غافلين لم نذكره، ونسيانهم لا يُسقط الاحتجاج بعد أن أخبر الله تعالى بذلك على لسان النبيّ صلّى الله عليه وسلم الصادق. وإذا ثبت هذا بقول الصادق، قام في النفوس مقام الذِّكر، فالاحتجاج به قائم" اهـ.

وقد نقل ابن القيم رحمه الله في كتابه (الروح) عن ابن الأنباري أنه قال: "مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وصلب أولاده وهم في صور الذر فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبل عقلا حين خوطب، وكما فعل ذلك للبعير لما سجد، والنخلة حتى سمعت وانقادت حين دعيت".

كما نقل أيضا عن إسحاق بن راهويه: "وأجمع أهل العلم أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، وأنه استنطقهم وأشهدهم" اهـ.

فمادام الله تعالى قال بهذا العهد وقال به رسوله ﷺ فقد وقع حتما وأصبح لزاما العمل به وقامت به الحجة على البشر، أما عن عدم التذكر فإن ذلك راجع إلى وقوع الحدث في عالم آخر يختلف في تكوينه وهيئته ونشأته عن عالم الدنيا الماثلة، وهو المعبر عنه بـ(عالم الذر)، وهو من حيث هذه الكينونة والهيئة كعالم البرزخ الذي هو بعد الموت والذي يفصل بين الحياة الدنيا وبين الآخرة، أو كعالم يوم القيامة.

قال العلامة ملا على القاري رحمه الله في (مرقاة المفاتيح): "قال بعض المحققين: إن بني آدم من ظهره، فكل ما أخرج من ظهورهم فيما لا يزال إلى يوم القيامة هم الذين أخرجهم الله تعالى في الأزل من صلب آدم، وأخذ منهم الميثاق الأزلي ليعرف منه أن النسل المخرج فيما لا يزال من أصلاب بنيه هو المخرج في الأزل من صلبه، وأخذ منهم الميثاق الأول،

وهو المقالي الأزلي، كما أخذ منهم فيما لا يزال بالتدريج حين أخرجوا الميثاق الثاني، وهو الحالي الإنزالي.

والحاصل أن الله تعالى لما كان له ميثاقان مع بني آدم أحدهما تهتدي إليه العقول من نصب الأدلة الحاملة على الاعتراف الحالي، وثانيهما المقالي الذي لا يهتدي إليه العقل، بل يتوقف على توقيف واقف على أحوال العباد من الأزل إلى الأبد، كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أراد عليه الصلاة والسلام أن يعلم الأمة ويخبرهم أن وراء الميثاق الذي يهتدون إليه بعقولهم ميثاقا آخر أزليا فقال (ما) قال من مسح ظهر آدم في الأزل وإخراج ذريته وأخذه الميثاق عليهم وبهذا يزول كثيرٍ من الإشكالات، فتأمل فيها حق التأمل" اهـ.

ففي هذه العوالم تختلف هيئات الإنسان عنها بالنسبة إلى عالم الدنيا، ففي عالم الدنيا تكون قدراته محدودة بحدود احتياجه منها. فسمعه محدود وبصره محدود وقدرته على الكلام محدودة وقدرته على الحركة محدودة... وهكذا في كل تكوينه، ومن هذا القدرات الذاكرة، حيث تقف قدراته من حيث التذكر عند حد معين لا يمكنه تعديه، بينما في العوالم التي ذكرتها (الذر والقبر والبرزخ ويوم القيامة) تختلف مكونات الإنسان وهيئاته حسب مكونات هذه العوالم بحيث يتكيف معها ويتحملها..

وفي عالم الآخرة: عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: " **يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا، من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط** " رواه مسلم.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: 143].

عن أبي موسى، قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: " **إن الله عز وجل لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور** - وفي رواية أبي بكر: النار - **لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه** "رواه مسلم.

عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " **إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل** " رواه مسلم.

قَالَ أَبُو حَاتِمٍ ابن حبان رحمه الله: "وغيرُ مُستحيلٍ أن الله جل وعلا يُمكنُ المؤمنين المختارين من عباده من النظر إلى رُؤيته ــ جعلنا اللهُ منهُم بفضله ــ حتى يكُون فرقًا بين الكُفار والمؤمنين، والكتابُ ينطقُ بمثل السنن التي ذكرناها سواءً قولهُ جل وعلا: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15)﴾ [المطففين: 15].

فلمّا أثبت الحجاب عنه للكفّار دلّ ذلك على أنّ غير الكفّار لا يحجبون عنه فأمّا في هذه الدّنيا فإنّ الله جلّ وعلا خلق الخلق فيها للفناء فمستحيل أن يرى بالعين الفانية الشّيء الباقي فإذا أنشأ الله الخلق وبعثهم من قبورهم للبقاء في إحدى الدّارين غير مستحيل حينئذٍ أن يرى بالعين الّتي خلقت للبقاء في الدّار الباقية الشّيء الباقي لا ينكر هذا الأمر إلا من جهل صناعة العلم وقنع بالرأي المنكوس والقياس المنحوس" اهـ.

ويبدأ هذا الاختلاف من لحظة الموت وبدء الانتقال إلى العالم الآخر. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)﴾ [ق: 22]. أي ساعة الموت.

قال الطبري رحمه الله: "فانكشف الغطاء عن البر والفاجر فرأى كل ما يصير إليه" اهـ.

لذا فإن أهوال يوم البعث والنشور من الهول بمكان بحيث لا يستطيع المرء على هيئته الدنيوية التي هو عليها الآن تحمله لمجرد السماع عنه أو تخيله، فكيف سيتحمل جسده الضعيف هذا هذه الأهوال، إلا إذا كان هذا الجسد سيختلف في تكوينه عما هو عليه الآن بحيث يقوى على التحمل.

لذا قال ﷺ: " **ضرس الكافر أو - ناب الكافر - مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث** " أي في النار.

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة قال ﷺ: " **ثم ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع** "رواه مسلم.

وقال ﷺ عن المؤمن في الجنة: " **إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يتفلون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة وأزواجهم الحور العين أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء** " متفق عليه.

ومن هذا الباب: قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: 51-52].

كان أبو محكم الجسري رحمه الله يجتمع إليه إخوانه، وكان حكيماً، فإذا تلى الآية السابقة بكى، ثم قال: "إن القيامة ذهبت فظاعتها بأوهام العقول، أما والله لئن كان القوم في رقدة

مثل ظاهر قولهم، لما دعوا بالويل عند أول وهلة من بعثهم، ولم يوقفوا بعد موقف عرض ولا مسألة إلا وقد عاينوا خطراً عظيماً، وحقت عليهم القيامة بالجلائل من أمرها، ولكن كانوا في طول الإقامة في البرزخ يألمون ويعذبون في قبورهم، وما دعوا بالويل عند انقطاع ذلك عنهم، إلا وقد نقلوا إلى طامة هي أعظم منه، ولولا أن الأمر على ذلك ما استصغر القوم ما كانوا منه، فسموه رقاداً، وإن في القرآن لدليلاً على ذلك: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34)﴾ [النازعات: 34]. ثم يبكي حتى يبل لحيته" رواه ابن أبي الدنيا.

وأخرج الحافظ أبو نعيمٍ في (حلية الأولياء) عن سفيان الثوري رحمه الله قال: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا" اهـ.

وقال يونس بن عبد الأعلى رحمه الله: "ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه" اهـ.

قال النووي رحمه الله: "اعلم أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة... فإن قيل فنحن نشاهد الميت على حاله في قبره فكيف يسأل ويقعد ويضرب بمطارق من حديد ولا يظهر له أثر فالجواب أن ذلك غير ممتنع بل له نظير في العادة وهو النائم فانه يجد لذة وآلاما لا نحس نحن شيئا منها وكذا يجد اليقظان لذة وآلما لما يسمعه أو يفكر فيه ولا يشاهد ذلك جليسه منه وكذا كان جبرائيل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم فيخبره بالوحى الكريم ولا يدركه الحاضرون وكل هذا ظاهر جلي " اهـ.

ويقول ابن تيمية رحمه الله: "وإذا عرف أن النائم يكون نائماً وتقعد روحه وتقوم وتمشي، وتذهب وتتكلم وتفعل أفعالاً وأموراً بباطن بدنه مع روحه، ويحصل لبدنه وروحه بها نعيم وعذاب، مع أن جسده مضطجع، وعينيه مغمضة، وفمه مطبق، وأعضاؤه ساكنة، وقد يتحرك لقوة الحركة الداخلة، وقد يقوم ويمشي ويتكلم ويصيح، لقوة الأمر في باطنه، كان هذا مما يعتبر به أمر الميت في قبره، فإن روحه تقعد، وتجلس، وتسأل، وتنعم، وتعذب،

وتصيح وذلك متصل ببدنه، مع كونه مضطجعاً في قبره، وقد يقوى ذلك حتى يظهر ذلك في بدنه" اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله في كتابه (الروح): " فرؤية عذاب القبر ونعيمه كرؤية الملائكة والجن تقع أحياناً لمن شاء الله أن يريه ذلك، والله سبحانه وتعالى يُحدث في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك. فهذا جبريل كان ينزل على النبي ﷺ ويتمثل له رجلاً فيكلمه بكلام يسمعه، ومَنْ إلى جانب النبي ﷺ لا يراه ولا يسمعه، وكذلك غيره من الأنبياء. وأحياناً يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس ولا يسمعه غيره من الحاضرين. وهؤلاء الجن يتحدثون ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعهم، وقد كانت الملائكة تضرب الكفار بالسِّياط وتضرب رقابهم وتصيح بهم، والمسلمون معهم لا يرونهم ولا يسمعون كلامهم، والله سبحانه قد حجب بني آدم عن كثير مما يُحدثه في الأرض وهو بينهم، وقد كان جبريل يُقرئ النبي ﷺ ويُدارسه القرآن والحاضرون لا يسمعونه. وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويُقِرّ بقدرته أن يُحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه حكمة منه ورحمة بهم لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها، والعبد أضعف بصراً وسمعاً من أن يَثْبت لمشاهدة عذاب القبر، وكثيراً ممن أشهده الله ذلك صَعِقَ وغُشي عليه ولم ينتفع بالعيش زمناً... وسر المسألة: أن هذه السعة والضيق والإضاءة والخضرة والنار ليس من جنس المعهود في هذا العالَم، فلو كان الميت بين الناس موضوعاً لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألانه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك ويجيبهما من غير أن يسمعوا كلامه ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه. وهذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه فيُعذب في النوم ويُضرب ويألَمَ وليس عند المستيقظ خبر من ذلك البتة. وقد سرى أثر الضرب والألم إلى جسده" انتهى.

ومثالا لما ذكره ابن القيم رحمه الله: ثوبان مولى رسول الله ﷺ حدثه قال: كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا مُحَمَّد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول يا رسول الله، فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: «**إن اسمي مُحَمَّد الذي سماني به أهلي**»،

فقال اليهودي: جئت أسألك، فقال له رسول الله ﷺ: «**أينفعك شيء إن حدثتك؟**» قال: أسمع بأذني، فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: «**سل**» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هم في الظلمة دون الجسر**» قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «**فقراء المهاجرين**» قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «**زيادة كبد النون**»، قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «**ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها**» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «**من عين فيها تسمى سلسبيلا**» قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «**ينفعك إن حدثتك؟**» قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: «**ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة، أذكرا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل، آنثا بإذن الله**». قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي، ثم انصرف فذهب. فقال رسول الله ﷺ: «**لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه، حتى أتاني الله به**» رواه مسلم.

الخلاصة: أن الإنسان إذا كان يجهل كنه وحقيقة الروح التي بين جنبيه؟! فكيف يتصور أنه لابد أن يفهم وجهة كل نص من النصوص التي تتحدث عن الأمور الغيبية؟! وكم من الأحاديث التي تتحدث عن أمور غيبية لو حكّمنا فيها عقولنا القاصرة لعجزنا عن إدراكها، ولكن معاذ الله أن نجعل عقولنا حاكمة على خبر الله ورسوله، بل نقول في باب الأخبار: آمنا وصدقنا.

وفي باب الأحكام: سمعنا وأطعنا، وثمة قاعدة تذكر في هذا الباب -أعني باب الإشكالات التي ترد في النصوص مع الحس -وهي قاعدة تريح قلب المؤمن إذا أخذ بها، وهي: أنه إذا لم تزل عنك الشبهة -مع صحة النص الشرعي- فعليك بالتسليم والتصديق ولو لم تفهم، فإن هذه هي حقيقة العبودية، وقل -كما قال خيار هذه الأمة-: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ

إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285)﴾ [البقرة: 285] [البقرة: 285].

بل هذه طريقة الراسخين في العلم الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8)﴾ [آل عمران: 7-8].

ولقد ضرب الصحابة ﷺ أروع الأمثلة في الانقياد والتسليم، وإن كان الأمر في أول وهلة لم يفهموا الغرض منه، وإليك مثالاً واحداً يجلي هذه المعاني، لما حدّث النبي ﷺ بحديث الدجال، قال الصحابة -ﷺ-: وما لبثه في الأرض؟ قال ﷺ: "**أربعون يوماً: يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم**" قلنا: يا رسول الله: فذلك اليوم الذي كسنةٍ أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: "**لا، اقدروا له قدره**" رواه مسلم.

فانظر إلى عمق علم الصحابة -ﷺ-، كيف لم يقولوا: كيف يكون اليوم كسنة، أو كشهر، أو كجمعة؟ لأنهم يعلمون أن من جعل اليوم (24ساعة) قادر على جعله أسبوعاً (168ساعة) وقادر على جعله شهراً (720 ساعة) وهكذا، بل سألوا عما يخصهم، وهو أمر دينهم، سألوا عن صلاتهم! فرضي الله عنهم وأرضاهم، ما أعمق علمهم، وأقوى تصديقهم! نسأل الله تعالى أن يرزقنا السير على طريقتهم في العلم والعمل، وأن يجمعنا بهم في الجنة بحبنا إياهم، والله تعالى أعلم.

المقدمة الثامنة

أهمية معرفة دلائل النبوة: إن أعظم ما يجب على الإنسان أن يعلمه في هذه الحياة: معرفة ربه الذي أوجده من عدم، وأسبغ عليه النعم، قال ابن عيينة رحمه الله: "ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرّفهم لا إله إلا الله، فإن لا إله إلا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا" حلية الأولياء.

وإن أعظم غاية خلق الله الخلق لأجلها هي عبادته وحده سبحانه، فكيف يعرف الإنسان ربه حق معرفته وما يجب له من الحقوق والواجبات؟ وكيف يعبد ربه؟ هل يعرف ذلك عن طريق العقول؟ لا، لأن العقول لا يمكن أن تستقل بمعرفة مراد الله منها، إذ العقل البشري أضعف من أن يدرك مراد بشر مثله قبل أن يخبره بمراده، فكيف بمعرفة مراد الله؟! ذلك أننا بالعقل ندرك أن هناك خالقا مبدعا قادرا، ولكننا بالعقل لا نستطيع أن ندرك ماذا يريد الخالق منا، وكيف نعبده، وكيف نشكره، وماذا أعد لنا من جزاء، يثيب به من أطاعه، ويعاقب به من عصاه؟؟ فهذا كله فوق قدرة العقل..

ولذلك كان لا بد أن يرسل الله الرسل ليبلغونا عن الله، لماذا خلق الله هذا الكون؟ ولماذا خلقنا؟ وما هو منهج الحياة الذي رسمه لنا لنتبعه؟ وماذا أعد لنا من ثواب وعقاب؟ فتلك مهمة فوق قدرات عقولنا، وتلك مهمة لو استخدمنا فيها العقل لما وصلنا الى شيء.

وجاء الرسل ومعهم البينات من الله بصدق رسالاتهم ومعهم المنهج، وقاموا بإبلاغ الناس، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165].

لذلك فإن هذه المهمة مقصورة على الرسل والأنبياء الذين يصطفيهم الله لإبلاغ الرسالة، وعلى من بعدهم من أئمة الهدى ورثة الأنبياء الذين يحملون منهاجهم ويقتفون آثارهم، ويبلغون عنهم رسالتهم. لذلك فإن الرسل عليهم الصلاة والسلام قاموا بأعظم دور في حياة

البشرية، حيث كانوا هم الصلة بين البشر وبين ربهم تبارك وتعالى، ومن رحمة الله تبارك وتعالى أنه ما ترك قومًا إلا وأرسل لهم رسولا يبشرهم وينذرهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

فما من طائفة من لدن آدم عليه السلام إلا وجاءه رسول أو نبي يأمره بعبادة الله ويحذرها مما يغضب الرب تبارك وتعالى. فللنبوة أهمية كبيرة في حياة البشر، فالنبوة واسطة بين الخالق والمخلوق في تبليغ شرعه وسفارة بين الملك وعبيده، ودعوة من الرحمن الرحيم تبارك وتعالى لخلقه ليُخرجهم من الظلمات إلى النور، وينقلهم من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. فهي نعمة مهداة من الله - تبارك وتعالى - إلى عبيده، وفضل إلهيّ يتفضّل بها عليهم.....

ولكن السؤال الطبيعي الذي سيسأله الناس لهؤلاء الذين يزعمون أنهم أنبياء ورسل من عند الله ﷻ: ماهي (البينات ودلائل النبوة) التي أيدك الله بها -التي لا يستطيع فعلها إلا الله- التي تثبت أنك مرسل من عند الله ﷻ؟! لا بدَّ أنْ يطالبَه الناسُ ببرهانٍ على أنه رسولُ الله، وعلى أنّ الكتابَ الذي جاء به هو مِن عندِ الله، وهنا تأتي (البينات) لتكونَ برهاناً على صدقِ إرسالِ النبيّ، ومصداقيةِ منهجِه، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (25)﴾ [الحديد: 25].

وقد دعانا القرآن الكريم للتأمل في (دلائل النبوة) في غير آية: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (46)﴾ [سبأ: 46].

وقد وبخ الله عز وجل المشركين لأنهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ وهم يعرفون أخلاقه وصدقه، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (68) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (69) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70)﴾ [المؤمنون: 68-70].

يقول البغوي رحمه الله في تفسيره: "(**أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ**) محمدا ﷺ، (**فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**) قال ابن عباس: أليس قد عرفوا مُحَمَّدا ﷺ صغيرا وكبيرا، وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاءه بالعهود، وهذا على سبيل التوبيخ لهم على الإعراض عنه بعدما عرفوه بالصدق والأمانة" اهـ.

وقد كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا جمع الله له من أوصاف المدح والثناء ما تفرق في غيره، صانه الله سبحانه وحفظه من أدنى وصف يعاب صاحبه، فلم يستطع أعدائه الذين يتربصون به ويقفون في طريق دعوته مؤذين له محذرين منه تحصيل شيء يعيبونه به وأنى لهم ذلك؟! وقد شهدوا بصدقه وأمانته وهما الغاية من الأخلاق، وها هي الزوجة الفاضلة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها تستدل على نبوة رسول الله ﷺ بأخلاقه وشيمه؛ ففي حديث بدء الوحى الذي رواه الإمام البخاري: قالت خديجة رضى الله عنها لرسول الله ﷺ لما جاء إليها فؤاده يرجف بعد لقاءه الأول مع جبريل عليه السلام يقول: " زملوني زملوني" وأخبر خديجة بالخبر، فقالت له خديجة رضي الله عنها: "كلا والله ما يخزيك الله أبدًا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق" اهـ.

قال القاسمي رحمه الله في (موعظة المؤمنين): "اعلم أن من شاهد أحواله ﷺ وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق وهدايته إلى ضبطهم وتألفه أصناف الخلق وقوده إياهم إلى طاعته مع ما يروى عن عجائب أجوبته في مضايق الأسئلة وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق ومحاسن إشارته في تفصيل ظاهر الشرع الذي يعجز العقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق له ريبٌ ولا شك في أن ذلك استمدادٌ من تأييد سماوي وقوة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصور لمفتر ولا ملبس، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعةً بصدقه، حتى إن العربي القح كان يراه فيقول: «والله ما هذا وجه كذاب» فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله، فكيف من شاهد أخلاقه ومارس أحواله في جميع مصادره وموارده؟ وإنما أوردنا بعض أخلاقه لتعرف محاسن الأخلاق، وليتنبه لصدقه ﷺ وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله، إذ آتاه الله

جميع ذلك وهو أمي لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط في طلب علم، بل نشأ بين أظهر الجهال من الأعراب يتيمًا ضعيفًا مستضعفًا، فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب ومعرفة مصالح الفقه مثلًا دون غيره من العلوم فضلًا عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحي؟! ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك؟ فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكفى. وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما لا يستريب فيه محصلٌ... فأعظم بغباوة من ينظر في أحواله ثم في أقواله ثم في أفعاله ثم في أخلاقه ثم في معجزاته ثم في استمرار شرعه إلى الآن ثم في انتشاره في أقطار العالم ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه. ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه. فما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه في كل ورد وصدر. فنسأل الله تعالى أن يوفقنا للاقتداء به في الأخلاق والأفعال والأحوال بمنه وسعة جوده آمين" اهـ.

والله جل وعلا أجل وأعظم وأعلم وأحكم من أن يأتي رجل يكذب على الله ويتقول على الله ويقول أنا رسوله وهو ليس برسوله، ويقول أنا نبيه وهو ليس بنبيه، ويقول: هذا كلامه وهو ليس بكلامه، ويدعوهم إلى شيء فيقول: إن الله دعاهم إليه وهو غير صحيح، ثم بعد ذلك يؤيده الله بمعجزات ظاهرة وبراهين قاهرة، وينشأ نشأة حميدة، ويمن عليه بعطايا، فهذا محال يتنافى مع الحكمة، فتأييد الله له بالمعجزات الظاهرة والبراهين وإكرامه من دلائل أنه رسول الله؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46)﴾ [الحاقة: 40-46].

وهذا فيه التهديد الجازم والأخذ القاصم لكل من يتلاعب في هذا الأمر أو يبدل، كائنا من كان، ولو كان هو مُحَمَّدا الرسول ﷺ.. فهو الأمر الذي لا تسامح فيه ولا هوادة ولا لين..

قال السعدي رحمه الله: "فلو آمنوا وتذكروا، لعلموا ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك، أن ينظروا في حال مُحَمَّد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه، لرأوا أمرا مثل الشمس يدلهم على أنه رسول الله حقا، وأن ما جاء به تنزيل رب العالمين، لا يليق أن يكون قول البشر بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته لعباده، وعلوه فوق عباده، وأيضا، فإن هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته فإنه لو تقول عليه وافترى "بَعْضَ الأَقَاوِيلِ" الكاذبة "لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ" وهو عرق متصل بالقلب إذا انقطع مات منه الإنسان، فلو قدر أن الرسول -حاشا وكلا- تقول على الله لعاجله بالعقوبة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر، لأنه حكيم، على كل شيء قدير، فحكمته تقتضي أن لا يمهل الكاذب عليه، الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم، وأنه هو وأتباعه لهم النجاة، ومن خالفه فله الهلاك. فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره على أعدائه، ومكنه من نواصيهم، فهو أكبر شهادة منه على رسالته".

والآن نبدأ بـ(دلائل النبوة):

(1) هرب أهل الكتاب (اليهود والنصارى) من تحدي رسول الله ﷺ لما تحداهم بأمر الله له:

ففي وفد نصارى نجران، أخرج ابن المنذر عن الشعبي رحمه الله قال: "قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا: حدثنا عن عيسى بن مريم، قال ﷺ: "رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم" قالوا: ينبغي لعيسى أن يكون فوق هذا! فأنزل الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60)﴾ [آل عمران: 59-60].

المعنى: إن شأن عيسى وحاله الغريبة عِنْدَ اللَّهِ أي في تقديره وحكمه كَمَثَلِ آدَمَ أي كصفته وحاله العجيبة في أن كليهما قد خلقه الله- تعالى- من غير أب، ويزيد آدم على عيسى أنه خلق بدون أم- أيضا-.

فالآية الكريمة ترد ردا منطقيا حكيما يهدم زعم كل من قال بألوهية المسيح أو اعتبره ابن الله.

وكأن الآية الكريمة تقول لمن ادعى ألوهية عيسى لأنه خلق من غير أب: أنه إذا كان وجود عيسى بدون أب يسوغ لكم أن تجعلوه إلها أو ابن إله فأولى بذلك ثم أولى آدم لأنه خلق من غير أب ولا أم. ومادام لم يدع أحد من الناس ألوهية آدم لهذا السبب فبطل حينئذ القول بألوهية عيسى لانهيار الأساس الذي قام عليه وهو خلقه من غير أب.

ولأنه إذا كان الله- تعالى- قادرا على أن يخلق إنسانا بدون أب ولا أم. فأولى ثم أولى أن يكون قادرا على خلق إنسان من غير أب فقط.

فماذا كان جوابهم؟ قالوا: ما ينبغي لعيسى أن يكون مثل آدم!

فأنزل الله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61)﴾ [آل عمران: 61] والمعنى: فإن جادلك أهل الكتاب في شأن عيسى من بعد أن أخبرك ربك بما هو الحق من أمره فقل لهم تَعَالَوْا أى أقبلوا أيها المجادلون إلى أمر يعرف فيه الحق من الباطل، وهو أن ندعو نحن وأنتم الأبناء والنساء ثم نجتمع جميعا في مكان واحد، ثم نتضرع إلى الله ونبتهل إليه بأن يجعل لعنته على الكاذبين في دعواهم المنحرفين عن الحق في اعتقادهم.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد لقنت النبي صلّى الله عليه وسلّم الجواب الحاسم الذي يخرس ألسنة المجادلين في عيسى، ويتحداهم- إن كانوا صادقين- أن يقبلوا هذه المباهلة، ولكنهم نكصوا على أعقابهم فثبت كذبهم وضلالهم.

وهذه الآية الكريمة تسمى بآية المباهلة، قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره: قدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكبًا، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم وهم: العاقب واسمه عبد المسيح، والسيد وهو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل، وأويس بن الحارث، وزيدٌ، وقيسٌ، ويزيد ونبيهٌ، وخويلدٌ، وعمرٌو، وخالدٌ، وعبد الله، ويحنس، وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثةٍ منهم وهم العاقب، وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، والسيد وكان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدارسهم.. فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه دعاهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، ثم انصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمدًا لنبي مرسلٌ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لا عن قومٌ نبيا قط، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه الاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا أن لا نلاعنك وأن نتركك على دينك ونرجع على ديننا ولكن ابعث معنا رجلًا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا، فإنكم عندنا رضا. قال مُحَمَّد بن جعفرٍ: فقال رسول الله ﷺ «ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين» فكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذٍ، رجاء أن أكون صاحبها، فرحت إلى الظهر مهجرًا، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر، سلم ثم نظر عن يمينه وشماله، فجعلت أتطاول له

ليراني فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه، فقال «اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه». قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة ﷺ".

أما مع اليهود، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95)﴾ [البقرة: 94-95].

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (6) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (7)﴾ [الجمعة: 6-7].

قال ابن كثير رحمه الله: "عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: يقول الله لنبيّه صلّى الله عليه وسلّم: "قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" أي: ادعوا بالموت على أيّ الفريقين أكذب. فأبوا ذلك على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم "وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ" أي: بعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنّوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهوديٌّ إلّا مات".

ثم علق ابن كثير رحمه الله على قول ابن عباس رضي الله عنهما: "قيل لهم كلامٌ نصف: إن كنتم تعتقدون أنّكم أولياء الله من دون النّاس، وأنّكم أبناء الله وأحبّاؤه، وأنّكم من أهل الجنّة ومن عداكم من أهل النّار، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أنّ المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة. فلمّا تيقّنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحقّ من صفة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ونعته، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحقّقونه. فعلم كلّ أحدٍ باطلهم، وخزيهم، وضلالهم وعنادهم عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. وسمّيت هذه المباهلة تمنّيًا؛ لأنّ كلّ محقٍّ يودّ لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيّما إذا كان في ذلك حجّةً له فيها بيان

حقّه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت؛ لأنّ الحياة عندهم عزيزةٌ عظيمةٌ لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت" أي: إن كنتم تزعمون أنّكم على هدًى، وأنّ محمّدًا وأصحابه على ضلالةٍ، فادعوا بالموت على الضّالّ من الفئتين "إن كنتم صادقين" فيما تزعمونه. قال الله تعالى: "ولا يتمنّونه أبدًا بما قدّمت أيديهم" أي: بما يعلمون لهم من الكفر والظّلم والفجور.. عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: قال أبو جهل قبحه الله: إن رأيت محمّدا يصلّي عند الكعبة لآتينّه حتّى أطأ على رقبته، قال: فقال «لو فعل لأخذته الملائكة عيانًا، ولو أنّ اليهود تمنّوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النّار، ولو خرج الّذين يباهلون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا» رواه التّرمذيّ وقال: حسنٌ صحيحٌ".

(2) من الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة على رسالة النبي الكريم ﷺ انشقاق القمر:

روى الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ شقّتين فقال النّبيّ ﷺ: " اشهدوا".

وعن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه أنّه حدّثهم أنّ أهل مكّة سألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن يريهم آيةً فأراهم انشقاق القمر.

وروى الترمذي في سننه عن جبير بن مطعمٍ قال: انشقّ القمر على عهد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم حتّى صار فرقتين على هذا الجبل وعلى هذا الجبل فقالوا سحرنا محمّدٌ فقال بعضهم لئن كان سحرنا فما يستطيع أن يسحر النّاس كلّهم.

وقد ذكر الله عز وجل انشقاق القمر في كتابه الكريم، فقال: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3)﴾ [القمر: 1-3].

فهـذا آيـة بينـة أراد بعـض المشـركين التشـكيك فيهـا بـزعم أن رسـول الله ﷺ سـحرهم، فـرد عليهم البعض بسؤال المسافرين إذا كانوا رأوا هذه الحادثة أم لا؟

روى أبـو نعـيم الأصـبهاني في (دلائـل النبـوة): "انشـق القمـر علـى عهـد رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم، فقالـت كفـار قـريش: هـذا سـحر سـحركم ابـن أبي كبشـة، فـانظروا إلى السـفار، فـإن أخـبروكم أنهـم رأوا مثـل مـا رأيـتم فقـد صـدق، قـال: فمـا قـدم علـيهم أحـد إلا أخـبرهم بذلك" اهـ.

يقـول ابـن كثـير رحمـه الله: "شـوهد انشـقاقه في كثـير مـن بقـاع الأرض، ويقـال: إنّـه أرخ ذلـك في بعض بلاد الهند، وبني بناء في تلك الليلة، وأرخ بليلة انشقاق القمر" اهـ. البداية والنهاية.

(3) حنـين الجـذع لرسـول الله ﷺ، فـإن كـان عيسـي عليـه السـلام قـد أعطـاه الله إحيـاء المـوتى والـذين هـم في الأصـل بشـر، فهـو هـا جـذع مـن نخـل قـد يـبُس يبكـي ويسـمع صـوت بكـاءه حنينًا وشوقًا لرسول الله ﷺ ثم يهدأ ويسكن لما يسكنه رسول الله ﷺ.

روى البخـاري عـن جـابر بـن عبـد الله رضـي الله عنهمـا قـال: إنّ النّـبيّ صـلّى الله عليـه وسـلّم كـان يقـوم يـوم الجمعـة إلى شـجرةٍ أو نخلـةٍ فقالـت امـرأةٌ مـن الأنصـار أو رجـلٌ: يا رسـول الله ألا نجعـل لـك منـبرًا؟ قـال: " إن شـئتم " فجعلـوا لـه منـبرًا فلمّـا كـان يـوم الجمعـة دفـع إلى المنـبر فصـاحت النّخلـة صـياح الصّـبيّ ثمّ نـزل النّـبيّ صـلّى الله عليـه وسـلّم فضـمّه إليـه تـئنّ أنـين الصّـبيّ الّذي يسكّن قال كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذّكر عندها".

وأورد الإمـام أحمـد القصـة بأبسـط مـن ذلـك عـن جـابر بـن عبـد الله رضـي الله عنهمـا قـال: كـان رسـول الله صـلّى الله عليـه وسـلّم يخطـب إلى جـذع نخلـةٍ قـال فقالـت امـرأةٌ مـن الأنصـار كـان لهـا غـلامٌ نجّـارٌ يا رسـول الله: إنّ لي غلامًـا نجّـارًا أفـآمره أن يتّخـذ لـك منـبرًا تخطـب عليـه؟ قـال بلـى قـال فاتّخـذ لـه منـبرًا قـال فلمّـا كـان يـوم الجمعـة خطـب علـى المنـبر قـال فـأنّ الجـذع الّـذي كـان يقـوم عليـه كمـا يـئنّ الصّـبيّ فقـال النّـبيّ صـلّى الله عليـه وسـلّم: "إنّ هـذا بكـى لمـا فقـد مـن الذّكر".

وفي رواية عند البيهقي في (دلائل النبوة): فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لما زال كذا إلى يوم القيامة حزنا على رسول الله ﷺ"، ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن.

وفي حنين الجذع مصداق لقول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82)﴾ [الإسراء: 82].

فهذا الجذع دبت فيه الحياة ودب فيه الإدراك من يوم أن استند عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخطب في الناس ويتلو آيات الله، فلما سمع الجذع هذا الذكر المبارك كانت الحياة وكان الشفاء، ولما تظهر آثاره إلا يوم أن فارقه رسول الله ﷺ فحن حنين الصبي المشتاق إلى ما يحبيه.

(4) نبع الماء من بين أصابعه ﷺ، روى البخاري في صحيحه عن أنسٍ رضي الله عنه قال: "أتي النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بإناءٍ وهو بالزّوراء فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضّأ القوم قال قتادة قلت؟ لأنسٍ كم كنتم قال: ثلاث مائةٍ أو زهاء ثلاث مائةٍ".

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في (فتح الباري): "قال عياض رحمه الله: هذه القصة رواها الثقات من العدد الكثير عن الجم الغفير عن الكافة متصلة بالصحابة وكان ذلك في مواطن اجتماع الكثير منهم في المحافل ومجمع العساكر، ولم يرد عن أحد منهم إنكار على راوي ذلك، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته.

قال القرطبي رحمه الله: "ولم يسمع بمثل هذه المعجزة عن غير نبينا ﷺ حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه"، وقد نقل ابن عبد البر رحمه الله عن المزني رحمه الله أنه قال: "نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر حيث ضربه موسى بالعصا فتفجرت منه المياه، لأن خروج الماء من الحجارة معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم" وظاهر كلامه أن الماء نبع من نفس اللحم الكائن في الأصابع،

ويؤيده قوله في حديث جابر "فرأيت الماء يخرج من بين أصابعه" وأوضح منه ما وقع في حديث ابن عباس عند الطبراني: " فجاءوا بشن فوضع رسول الله ﷺ يده عليه ثم فرق أصابعه فنبع الماء من أصابع رسول الله ﷺ مثل عصا موسى" اهـ.

وعند البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: عطش النّاس يوم الحديبية والنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بين يديه ركوةٌ فتوضّأ فجهش النّاس نحوه فقال ما لكم؟ قالوا ليس عندنا ماءٌ نتوضّأ ولا نشرب إلّا ما بين يديك فوضع يده في الرّكوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون فشربنا وتوضّأنا قلت كم كنتم قال لو كنّا مائة ألفٍ لكفانا كنّا خمس عشرة مائةً" وعند البخاري: عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: "كنّا نعدّ الآيات بركةً وأنتم تعدّونها تخويفًا كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في سفرٍ فقلّ الماء فقال اطلبوا فضلةً من ماءٍ فجاءوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليلٌ فأدخل يده في الإناء ثمّ قال حيّ على الطّهور المبارك والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولقد كنّا نسمع تسبيح الطّعام وهو يؤكل".

(5) وهذا بئر الحديبية جف ماؤها فبصق فيه رسول الله ﷺ ففاض بالماء.

روى البخاري في صحيحه عن البراء رضي الله عنه قال: "كنّا يوم الحديبية أربع عشرة مائةً والحديبية بئرٌ فنزحناها حتّى لم نترك فيها قطرةً، فجلس النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على شفير البئر فدعا بماءٍ فمضمض ومجّ في البئر فمكثنا غير بعيدٍ ثمّ استقينا حتّى روينا وروت أو صدرت ركائبنا" اهـ.

ففيضان الماء من بئر جافة لا ماء بها حتى سقى منها أهل معسكر بكامله لم يكن إلا آية نبويّة صادقة تنطق قائلة: أن صدقوا محمدًا فيما جاءكم به ودعاكم إليه فإنه رسول الله إليكم حقًا وصدقًا.

ومن اللطائف ما رواه السهيلي رحمه الله في (الروض الأنف) عن مسيلمة الكذاب، قال: "تفل (أي مسيلمة) في بئر قومٍ سألوه ذلك تبرّكًا فملح ماؤها! ومسح رأس صبيّ فقرع قرعًا

فاحشًا! ودعا لرجلٍ في ابنين له بالبركة فرجع إلى منزله فوجد أحدهما قد سقط في البئر والآخر قد أكله الذّئب! ومسح على عيني رجلٍ استشفى بمسحه فابيضّت عيناه!" اهـ.

(6) ومن أعظم بركات النبي العدنان ﷺ تكثير الطعام القليل حتى أصبح يكفي ويشبع العدد الكثير، وهي معجزة ظاهرة وآية باهرة.

روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: "إنّا يوم الخندق نحفر فعرضت كديةٌ شديدةٌ فجاءوا النّبيّ ﷺ فقالوا هذه كديةٌ عرضت في الخندق فقال: " أنا نازلٌ "ثمّ قام وبطنه معصوبٌ بحجرٍ ولبثنا ثلاثة أيّامٍ لا نذوق ذواقًا، فأخذ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم المعول فضرب فعاد كثيبًا أهيل أو أهيم فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي رأيت بالنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم شيئًا ما كان في ذلك صبرٌ، فعندك شيءٌ؟ قالت عندي شعيرٌ وعناقٌ، فذبحت العناق وطحنت الشّعير حتّى جعلنا اللّحم في البرمة ثمّ جئت النّبيّ ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت أن تنضج فقلت: طعيّمٌ لي فقم أنت يا رسول الله ورجلٌ أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له قال"كثيرٌ طيّبٌ "قال: قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التّنّور حتّى آتي فقال: " قوموا" فقام المهاجرون والأنصار فلمّا دخل على امرأته قال ويحك جاء النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بالمهاجرين والأنصار ومن معهم قالت هل سألك؟ قلت نعم فقال: " ادخلوا ولا تضاغطوا "فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللّحم ويخمّر البرمة والتّنّور إذا أخذ منه ويقرّب إلى أصحابه ثمّ ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتّى شبعوا وبقي بقيّةٌ قال: كلي هذا وأهدي فإنّ النّاس أصابتهم مجاعةٌ".

فهذه قصة من دلائل نبوة النبي ﷺ، فإن إطعام ألف رجل حتى يشبعوا بعد أن أنهكهم الجوع، ومكثوا أياماً دون طعام، وهم محاصرون في الخندق في برد شديد، ويعملون في حفر الخندق ونقل التراب وتكسير الصخور، إطعام هؤلاء جميعاً من عنز صغير، مع صاع واحد من شعير –وهذا طعام لا يكفي في العادة إلا نحو خمسة رجال–ثم إن هؤلاء الألف الذين

أكلوا حتى شبعوا قد تركوا برمة اللحم كما هي، والعجين كما هو، لم ينقص منه شيء، فأي دليل على إثبات النبوة، وحدوث المعجزة أعظم من هذا؟ فهذا دليل حسي مرئي اطلع عليه هذا العدد العظيم من الناس، ولم يشاهدوا الآية فقط، بل أكلوا وشبعوا، فاشترك في إدراك هذه المعجزة كل الحواس، النظر، والسمع، واللمس، والذوق، والشم، وأدركوا كل ذلك بعقولهم وقلوبهم، وظهرت آثار بركة هذا في أعمالهم وأخلاقهم.

(7) وهذه معجزة باهرة حيث بقي أبو هريرة رضى الله عنه يأكل من الجراب زُهاء خمس وعشرين سنة، كل ذلك ببركة النبي ﷺ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: "أتيت النبي ﷺ يوما بتمرات فقلت: ادع الله لي فيهن بالبركة، قال فصفهن بين يديه قال ثم دعا فقال لي: " اجعلهن في مزود وأدخل يدك ولا تنثره" قال فحملت منه كذا وكذا وسقا في سبيل الله ونأكل ونطعم وكان لا يفارق حقوي، فلما قتل عثمان رضي الله عنه انقطع عن حقوي فسقط" رواه أحمد وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

أيضاً مثل هذا الخبر في قصة أم مالك، فعن جابرٍ رضى الله عنه: "أنّ أمّ مالكٍ كانت تهدي للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم في عكّةٍ لها سمنًا، فيأتيها بنوها فيسألون الأدم، وليس عندهم شيءٌ، فتعمد إلى الّذي كانت تهدي فيه للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فتجد فيه سمنًا، فما زال يقيم لها أدم بيتها حتّى عصرته، فأتت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فقال: "عصرتيها؟"، قالت: "نعم"، قال: "لو تركتيها ما زال قائمًا"" رواه مسلم.

قال النووي رحمه الله في (شرح صحيح مسلم): "قوله ﷺ: "لو تركتيها ما زال قائماً" أي موجوداً حاضراً"، ثم بيّنَ رحمه الله سبب فناء سمنِ العُكّة والشعير حين عُصِرت أو كِيل، فقال: "الحكمة في ذلك أن عصرَها وَكَيْلَه مضادةٌ للتسليم والتوكل على رزق الله تعالى، ويتضمن التدبيرَ، والأخذَ بالحول والقوة، وتكلُّفَ الإحاطةِ بأسرار حِكم الله تعالى وفضله، فعوقب فاعِلُه بزواله" اهـ.

أي كأنه خرج من التسليم لقدرة الله وعظيمِ فِعله، إلى الطمع في معرفة سبب مادي له، فانقطع لذلك.

(8) ومن الأخبار العجيبة في طاعة الجبال والأشجار لرسول الله ﷺ: روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالكٍ رضي اللهُ عنهُ قال: "إنّ النّبيّ صلّى اللهُ عليه وسلّم صعد أُحُدًا وأبُو بكرٍ وعُمرُ وعُثمانُ فرجف بهم فقال: " اثبُت أُحُدُ فإنّما عليك نبيٌّ وصدّيقٌ وشهيدان"" وفي الحديث دلالة أخرى على نبوة رسول الله ﷺ فهذا الجبل يسكن ويثبت لما أمره رسول الله ﷺ بذلك، وفي هذا إشارة لطاعة الجبال والجمادات لخير البرية مُحَّد ﷺ.

وما رواه الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: "سرنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حتّى نزلنا واديًا أفيح فذهب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقضي حاجته فاتّبعته بإداوةٍ من ماءٍ فنظر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلم ير شيئًا يستتر به فإذا شجرتان بشاطئ الوادي فانطلق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى إحداهما فأخذ بغصنٍ من أغصانها فقال: " انقادي عليّ بإذن الله" فانقادت معه كالبعير المخشوش الّذي يصانع قائده حتّى أتى الشّجرة الأخرى فأخذ بغصنٍ من أغصانها فقال: "انقادي عليّ بإذن الله" فانقادت معه كذلك حتّى إذا كان بالمنصف ممّا بينهما لأم بينهما يعني جمعهما فقال التئما عليّ بإذن الله فالتأمتا. قال جابرٌ فخرجت أحضر مخافة أن يحسّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقربي فيبتعد فجلست أحدّث نفسي، فحانت منّي لفتةٌ فإذا أنا برسول الله صلّى الله عليه وسلّم مقبلًا وإذا الشّجرتان قد افترقتا فقامت كلّ واحدةٍ منهما على ساقٍ".

قوله: (فخرجت أحضر) هو بضمّ الهمزة وإسكان الحاء وكسر الضّاد المعجمة، أي أعدو وأسعى سعيًا شديدًا.

و(الأفيح): الواسع. قوله: (فانقادت كالبعير المخشوش): وهو الّذي جعل في أنفه الخشاش ليذل به عند الرّكوب.

و(المنصف): النّصف.

(9) ومن أظهر الأدلة على صدقه ﷺ أن الله عز وجل أنطق ذراع الشاة لما وضعت اليهودية فيه السم فحذره الذراع؛ روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحهما عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: "إنّ امرأةً يهوديّةً أتت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بشاةٍ مسمومةٍ فأكل منها فجيء بها إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فسألها عن ذلك فقالت أردت لأقتلك قال ما كان الله ليسلّطك على ذاك قال أو قال عليّ قال قالوا ألا نقتلها قال لا قال فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله صلّى الله عليه وسلّم".

(اللّهوات): جمع لهاة بفتح اللّام، وهي اللّحمة الحمراء المعلّقة في أصل الحنك قاله الأصمعيّ. وقوله: (ما زلت أعرفها) أي العلامة، كأنّه بقي للسّمّ علامة وأثر من سواد أو غيره.

وقد ذكر البيهقي القصة بأبسط من ذلك في (دلائل النبوة) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: "أن يهودية من أهل خيبر سمت شاة مصلية ثم أهدتها لرسول الله ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ الذراع فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول الله ﷺ: " ارفعوا أيديكم " وأرسل رسول الله ﷺ إلى اليهودية فدعاها، فقال لها: " أسممت هذه الشاة؟ " قالت اليهودية: من أخبرك؟ قال: " أخبرتني هذه في يدي للذراع " قالت: نعم، قال: " فما أردت إلى ذلك؟ " قالت: قلت إن كان نبيا فلن يضره، وإن لم يكن نبيا استرحنا منه فعفا عنها رسول الله ﷺ ولم يعاقبها، وتوفي بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة، واحتجم رسول الله ﷺ على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة".

قال الإمام النووي في (شرح صحيح مسلم): "فيه بيان عصمته ﷺ من الناس كلهم كما قال الله: "والله يعصمك من الناس" وهي معجزة لرسول الله ﷺ في سلامته من السم المهلك لغيره، وفي إعلام الله تعالى له بأنها مسمومة، وكلام عضو منه له" اهـ.

(10) ومن أظهر الأدلة وأوضح البراهين على نبوة النبي الكريم ﷺ إجابة الله عز وجل دعائه حين يدعوه ويرفع إليه يديه. وتكرار إجابة الدعاء واستمراره دليل على صدقه ﷺ، فالله عز وجل لا يؤيد كاذباً ولا دعياً يدعي عليه الكذب، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ومعلوم أن من عوّده الله إجابة دعائه، لا يكون إلا مع صلاحه ودينه، ومن ادّعى النبوة، لا يكون إلا من أبرّ الناس إن كان صادقاً، أو من أفجرهم إن كان كاذباً، وإذا عوّده الله إجابة دعائه، لم يكن فاجراً، بل برّاً، وإذا لم يكن مع دعوى النبوة إلا برّاً، تعيّن أن يكون نبياً صادقاً، فإن هذا يمتنع أن يتعمّد الكذب، ويمتنع أن يكون ضالاً يظن أنه نبي" اهـ.

وقد تعددت الوقائع التي شهدت إجابة الله عز وجل لدعاء نبيه مُحَّد ﷺ، وكل واحدة من هذه الوقائع تكفى دليلاً شاهدًا على صدقه ﷺ.

ومن ذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالكٍ قال: "أصابت النّاس سنةٌ على عهد النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فبينا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يخطب في يوم جمعةٍ، قام أعرابيٌّ فقال: يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا. يقول أنس: فرفع يديه وما نرى في السّماء قزعةً، فوالّذي نفسي بيده ما وضعها حتّى ثار السّحاب أمثال الجبال، ثمّ لم ينزل عن منبره حتّى رأيت المطر يتحادر على لحيته صلّى الله عليه وسلّم فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد وبعد الغد والّذي يليه حتّى الجمعة الأخرى. وفي الجمعة الأخرى قام ذلك الأعرابيّ أو قال: غيره، فقال: يا رسول الله تهدّم البناء وغرق المال فادع الله لنا، فرفع يديه فقال: (اللّهمّ حوالينا ولا علينا). يقول أنس: فما يشير بيده إلى ناحيةٍ من السّحاب إلّا انفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادي قناة شهرًا ولم يجئ أحدٌ من ناحيةٍ إلّا حدّث بالجود".

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله: "وفيه عَلَمٌ من أعلام النبوة في إجابة الله دعاء نبيه عليه الصلاة والسلام عقِبه أو معَه، ابتداء في الاستسقاء، وانتهاء في الاستصحاء، وامتثال السحاب أمره بمجرد الإشارة" اهـ.

وقال النووي رحمه الله: "ومراده بهذا؛ الإخبار عن معجزة رسول الله ﷺ، وعظيم كرامته على ربه سبحانه وتعالى، بإنزال المطر سبعة أيام متوالية متصلاً بسؤاله من غير تقديم سحاب ولا قزَع، ولا سببٍ آخر، لا ظاهرٍ ولا باطن" اهـ.

ولقد أجاب الله عز وجل دعوة نبيه ﷺ في عدد من أتباعه وأصحابه، ومن ذلك دعائه ﷺ لأنس بن مالك رضى الله عنه، روى الإمام البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: دخل النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم على أمّ سليمٍ فأتته بتمرٍ وسمنٍ، قال: "أعيدوا سمنكم في سقائه وتمركم في وعائه فإنّي صائمٌ"، ثمّ قام إلى ناحيةٍ من البيت فصلّى غير المكتوبة، فدعا لأمّ سليمٍ وأهل بيتها فقالت أمّ سليمٍ: يا رسول الله إنّ لي خويصّةً، قال: ما هي؟ قالت: خادمك أنسٌ، فما ترك خير آخرةٍ ولا دنيا إلّا دعا لي به، قال: " اللّهمّ ارزقه مالًا وولدًا وبارك له فيه"؛ فإنّي لمن أكثر الأنصار مالًا؛ وحدّثتني ابنتي أمينة أنّه دفن لصلبي مقدم حجّاجٍ البصرة بضعٌ وعشرون ومائةٌ".

وروى البخاري في صحيحه عن عروة البارقي رضى الله عنه أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم أعطاه دينارًا يشتري له به شاةً، فاشترى له به شاتين، فباع إحداهما بدينارٍ وجاءه بدينارٍ وشاةٍ فدعا له بالبركة في بيعه وكان لو اشترى التّراب لربح فيه".

وفي رواية عند الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله ﷺ قال: "اللّهمّ بارك له في صفقة يمينه"، يقول عروة: فلقد رأيتني أقف بكناسة الكوفة فأربح أربعين ألفًا قبل أن أصل إلى أهلي".

يقول ابن حجر رحمه الله: "المقصود منه الذي يدخل في علامات النبوة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لعروة فاستجيب له، حتى كان لو اشترى التراب لربح فيه".

(11) ومن آيات النبوة الباهرة والمعجزات الظاهرة، إخبار النبي ﷺ بأمور غيبية وأحداث مستقبلية وقعت كما أخبر ﷺ، فالغيب سر الله، فهو وحده تبارك وتعالى الذي يعلم السر وأخفى، والنبي ﷺ كسائر البشر لا يعلم الغيب: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188].

فإذا ما أخبر النبي عن شيء من الغيوب؛ فإنما يخبر بشيء من علم الله الذي خصه به وأطلعه عليه، ليكون برهان نبوته ودليل رسالته.

- من الغيوب التي تنبأ بها ﷺ ووقعت حال حياته خبر الريح التي تنبأ بها هو منطلق وأصحابُه إلى تبوك، يقول أبو حميد الساعدي رضى الله عنه: "فلمّا أتينا تبوك، قال (رسول الله ﷺ): (أما إنّها ستهبّ اللّيلة ريحٌ شديدةٌ فلا يقومنّ أحدٌ ومن كان معه بعيرٌ فليعقله)، فعقلناها، وهبّت ريحٌ شديدةٌ فقام رجلٌ فألقته بجبل طيّءٍ)رواه البخاري ومسلم. يقول النووي رحمه الله: (هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظاهرة؛ من إخبارِهِ عليه الصلاة والسلام بالمغيَّب، وخوفِ الضرر من القيام وقت الريح، وفيه ما كان عليه ﷺ من الشفقة على أمته، والرحمةِ لهم، والاعتناءِ بمصالحهم، وتحذيرِهم مما يضرُّهم في دين أو دنيا)اهـ.

- ومن الغيوب كذلك إخباره ﷺ بموت عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما شهيدين، روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: "إنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم صعد أحدًا وأبو بكرٍ وعمر وعثمان فرجف بهم فقال: " اثبت أحد فإنّما عليك نبيٌّ وصدّيقٌ وشهيدان""، فكان كما أخبر ﷺ، فمات أبو بكر رضى الله عنه بمرضٍ أصابه، وقُتل عمر في المحراب شهيدًا، وقُتل عثمان في داره شهيدًا، فرضي الله عنهم أجمعين.

-ومن ذلك إخباره ﷺ بفتوح أمته للبلدان المتفرقة، وانتشار الإسلام حتى يرفرف على جهات الأرض المختلفة، فقال رسول الله ﷺ مخبرًا عن ملك أمته وسلطانها: "إن الله زوى

لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض" رواه مسلم.

(زوى): بمعنى قبض وجمع حتى أمكنني الإشراف على ما زوي لي منها.

يقول النووي رحمه الله: "هذا الحديث فيه معجزات ظاهرة، وقد وقعت كلها بحمد الله كما أخبر به ﷺ قال العلماء: المراد بالكنزين الذهب والفضة، والمراد كنزي كسرى وقيصر ملكي العراق والشام، وفيه إشارة إلى أن ملك هذه الأمة يكون معظم امتداده في جهتي المشرق والمغرب، وهكذا وقع، وأما في جهتي الجنوب والشمال فقليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب، وصلوات الله وسلامه على رسوله الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى" اهـ.

ولقد فصل ﷺ أخبار تلك الفتوحات في العديد من الأحاديث، منها إخباره ﷺ بفتح مصر روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إنكم ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرًا فإن لهم ذمةً ورحمًا فإذا رأيتم رجلين يقتتلان في موضع لبنة فاخرج منها".

ولقد تحقق ذلك زمن الخلفاء الراشدين، وكان أبو ذر رضى الله عنه ممن فتح مصر وسكنها، يقول: فرأيت عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة وأخاه ربيعة يختصمان في موضع لبنة، فخرجت منها".

يقول النووي رحمه الله: "قال العلماء: (القيراط): جزءٌ من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به، وأما (الذمة): فهي الحرمة والحق وهي هنا بمعنى الذمام، وأما (الرحم): فلكون هاجر أم إسماعيل منهم وأما (الصهر): فلكون مارية أم إبراهيم منهم، وفيه معجزاتٌ ظاهرةٌ لرسول الله ﷺ منها إخباره بأن الأمة تكون لهم قوةٌ وشوكةٌ بعده بحيث يقهرون العجم والجبابرة ومنها أنهم يفتحون مصر ومنها تنازع

الرجلين في موضع اللبنة ووقع كل ذلك ولله الحمد ومعنى يقتتلان يختصمان كما صرح به في الرواية الثانية" اهـ.

– ولقد كان ﷺ يبلغ أصحابه بهذه الغيوب رغم ما كان عليه المسلمون من ضعف، يروى لنا عدى بن حاتم رضى الله عنه إحدى هذه الأخبار، فيقول عدى بن حاتم ﷺ: بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل، فقال: «يا عدى هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها وقد أنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك حياةٌ لترين الظعينة ترتحل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحدًا إلا الله» – قلت فيما بينى وبين نفسى فأين دعار طيئ الذين قد سعروا البلاد؟ «ولئن طالت بك حياةٌ لتفتحن كنوز كسرى» قلت كسرى بن هرمز قال: « كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياةٌ، لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله منه، فلا يجد أحدًا يقبله منه، وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه، وليس بينه وبينه ترجمانٌ يترجم له. فيقولن ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك فيقول بلى. فيقول ألم أعطك مالاً وأفضل عليك فيقول بلى. فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم» قال عدى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: «اتقوا النار ولو بشقة تمرة، فمن لم يجد شقة تمرة فبكلمة طيبة». قال عدى فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياةٌ لترون ما قال النبى أبو القاسم صلى الله عليه وسلم «يخرج ملء كفه» رواه البخاري.

"فأين دعار طيئ؟": أي كيف تمر المرأة على قطاع الطريق من طيئ غير خائفة وهم يقطعون الطريق على من مر عليهم بغير جوار (الذين قد سعروا البلاد) أي ملؤها شرا وفسادًا.

المقدمة التاسعة

نختم بالبينة الخالدة: (القرآن الكريم):

إن الله سبحانه وتعالى تحدى كل قوم فيما برعوا فيه وعدوه موضع فخرهم، فتحدى قوم فرعون بآيات تفوق السحر الذى كانوا بارعين فيه، وكانوا يستخدمونه لفتنة الناس عن ربهم وتأليه الفرعون بدلا من الله، وتحدى قوم عيسى عليه السلام بآيات تفوق براعتهم في الطب الذى كانوا يمارسونه ويعتزون بإتقانه؛ فأعطاه القدرة على نفخ الحياة في الطين وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص؛ ليستيقنوا أنه من عند الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49)﴾ [آل عمران: 49].

(الأكمه): الذي يولد أعمى.

وتستمرّ هذه البينات الحسّيّة محتفظةً بقوّة إقناعها في الزمن المحدّد لرسالة كلّ رسولٍ، حتى إذا تطاول الزمن وتقادم وتكدّر نبع الرسالة الصافي، اختفت قوّة الإقناع الحسّية، وبعث الله رسولاً آخر بالدّين الذي يرضاه ببيّنةٍ جديدةٍ مشاهدةٍ، ولما ختم الله النبوة بمحمّدٍ صلى الله عليه وسلم ضمن له حفظ دينه، وأيّده ببيّنةٍ كبرى، تبقى بين أيدي الناس إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19].

فذكر القرآن على أنه أعظم معجزاته. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: "ما من الأنبياء نبيٌّ إلاّ أُعطي من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشرُ، وإنّما كان الّذي أوتيتُهُ وحياً أوحاهُ اللهُ إليّ، فأرجُو أن أكُون أكثرهُم تابعاً يوم القيامة" متفق عليه.

قال ابنُ حجرٍ رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث: "... وقيل: المرادُ أنّ معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها، ومعجزةُ القرآن مستمرةٌ إلى يوم القيامة، وخرقُه للعادة في أسلوبه، وبلاغته، وأخباره بالمغيّبات، فلا يمرُّ عصرٌ من الأعصار إلاّ ويظهرُ فيه شيءٌ ممّا أخبر به أنه سيكونُ يدلُّ على صحة دعواه".

إن العرب لم يكن لهم هم ولا بضاعة إلا بضاعة الكلام والشعر والخطابة والبلاغة والفصاحة، نصبت على ذلك أسواقهم وقامت على ذلك أنديتهم وعلى هذا قامت حياتهم... فجاء نبينا ﷺ بالقرآن من عند ربه وهو يقول: إن هذا القرآن من الله، وهذا الكلام كلام الله، فكذّبوه قائلين: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (25)﴾ [الأنعام: 25].

فلما كذبوه أخبره الله جل وعلا بأنه إن كان هذا القرآن من عندي -كما تقولون- فأنا بشر مثلكم وعربي مثلكم، وأنتم أهل فصاحة وأهل بلاغة فأتوا بمثله إن كنتم صادقين، كل ذلك ليلهب مشاعرهم ويوقظ الهمم فيهم حتى يتحدوا القرآن، وقد سفه ﷺ أحلامهم وسب أصنامهم... ومع ذلك أثبتوا عجزهم وأنهم غير قادرين على أن يأتوا بمثله بل ولا عشر سور بل ولا سورة واحدة... قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88)﴾ [الإسراء: 88].

وقال الله جل وعلا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (34)﴾ [الطور: 33-34].

وكان يدعوهم ﷺ صباحاً ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بعشر سور أو بسورة واحدة! فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقريعاً لعجزهم عنها تكشف من نقصهم ما كان مستوراً وظهر منهم ما كان خفياً، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا! قال: فهاتوها مفتريات! قال الله جل وعلا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: 13].

"ومعنى مفترياتٍ أنّها مفتريات المعاني كما تزعمون على القرآن أي بمثل قصص أهل الجاهليّة وتكاذيبهم. وهذا من إرخاء العنان والتّسليم الجدليّ" التحرير والتنوير.

ثم قرن التحدي بالتأنيب والتقريع، ثم استفزهم بعد ذلك وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة! فقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)﴾ [البقرة: 23-24].

واستفزهم الله جل وعلا أيما استفزاز وتحداهم أيما تحد، فقال الله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)﴾ [البقرة: 24].

ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلَّمًا يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا... حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف! وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا عن نفسه بالقلم واللسان.. "فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا"، ثم قال: "وَلَنْ تَفْعَلُوا"... فقطع بأنهم لن يفعلوا! وهي كلمة يستحيل أن تكون إلا من الله ولا يقولها عربي في العرب أبداً!

قال ابن كثير رحمه الله: "تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتابيهم وذلك أكمل من التحدي وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعاني شيئا من العلوم وبدليل قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾ [هُودٍ: 13] وَقَوْلُهُ ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الْإِسْرَاءِ: 88] وقال بعضهم: من مثل محمّدٍ صلّى الله عليه وسلّم، يعني من رجلٍ أمّيٍّ مثله، والصّحيح الأوّل، لأنّ التّحدّي عامٌّ لهم كلّهم مع أنّهم أفصح الأمم، وقد تحدّاهم بهذا في مكّة والمدينة مرّاتٍ عديدةٍ مع شدّة عداوتهم له وبغضهم لدينه، ومع هذا عجزوا عن ذلك ولهذا قال تعالى: فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ولن لنفي التأبيد في المستقبل

أي: ولـن تفعلـوا ذلـك أبـدًا وهـذه أيضًـا معجـزة أخـرى، وهـو أنـه أخـبر خـبرا جازمـا قاطعـا مقـدما غـير خـائف ولا مشـفق أن هـذا القـرآن لا يعـارض بمثلـه أبـد الآبـدين ودهـر الـداهرين وكـذلك وقـع الأمـر لم يعـارض مـن لدنـه إلى زماننـا هـذا ولا يمكـن، وأنّى يتـأتّى ذلـك لأحـدٍ والقرآن كلام الله خالق كلّ شيءٍ، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين" اهـ.

ومـن الثابـت أن القـرآن الكـريم كـان يأخـذ كفـار قـريش بروعـة بيانـه وأنهـم لا يملكـون أنفسـهم عـن سماعـه ولـذلك سـعوا إلى أن يحولـوا بـين القـرآن وأسمـاع النـاس. سـعوا إلى أن لا يصـل إلى الأذن لأنهـم يعلمـون أن مجـرد وصـوله إلى السـمع يُحْـدِثُ في الـنفس دَويّاً هـائلاً وهِـزَّة عنيفـة، وقـد حكـى الله عـنهم هـذا الأسـلوب فقـال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (26)﴾ [فصلت: 26].

وكـان صـناديد قـريش وأعتـاهم محاربـةً للرسـول وأشـدهم كيـداً لـه ونـيلاً منـه لا يملكـون أنفسـهم عـن سماعـه، قـال محمّـد بـن إسـحاق في (السّـيرة): "حـدّثني محمّـد بـن مسـلم بـن شـهابٍ الزّهـريّ أنّـه حـدّث أنّ أبا سـفيان بـن حـربٍ وأبا جهـل بـن هشـامٍ والأخـنس بـن شـريق بـن عمـرو بـن وهـب الثقفـي حليـف بـني زهـرة، خرجـوا ليلـةً ليسـتمعوا مـن رسـول الله صـلّى الله عليـه وسـلّم وهـو يصـلّي باللّيـل في بيتـه، فأخـذ كـلّ واحـدٍ مـنهم مجلسًـا يسـتمع فيـه، وكـلٌّ لا يعلـم بمكـان صـاحبه، فبـاتوا يسـتمعون لـه حـتّى إذا طلـع الفجـر تفرقـوا، حـتى إذا جمعـتهم الطريـق تلاومـوا، وقـال بعضـهم لـبعضٍ: لا تعـودوا فلـو رآكـم بعـض سـفهائكم لأوقعـتم في نفسـه شـيئًا، ثمّ انصـرفوا حـتّى إذا كانـت اللّيلـة الثّانيـة، عـاد كـلّ رجـلٍ مـنهم إلى مجلسـه فبـاتوا يسـتمعون لـه، حـتى إذا طلـع الفجـر تفرقـوا وجمعـتهم الطريـق، فقـال بعضـهم لـبعض مثـل مـا قالـه أوّل مـرّةٍ، ثمّ انصـرفوا حـتّى إذا كانـت الليلـة الثالثـة أخـذ كـل رجـل مجلسـه فبـاتوا يسـتمعون لـه، حـتى إذا طلـع الفجـر تفرقـوا فجمعـتهم الطّريـق، فقـال بعضـهم لـبعضٍ لا نـبرح حـتّى نتعاهـد لا نعـود، فتعاهـدوا على ذلك ثمّ تفرّقوا.

فلمّا أصبح الأخنس بن شريقٍ أخذ عصاه ثمّ خرج حتّى أتى أبا سفيان بن حربٍ في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمّدٍ. قال: يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها، قال الأخنس: وأنا والّذي حلفت به. قال: ثمّ خرج من عنده حتّى أتى أبا جهلٍ فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمّدٍ؟ قال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد منافٍ الشّرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا، حتّى إذا تجاثينا على الرّكب وكنّا كفرسي رهانٍ، قالوا: منّا نبيٌّ يأتيه الوحي من السّماء، فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدّقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه" اهـ.

وقال الإمام الطبري رحمه الله: "عن عكرمة: أنّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقرأ عليه القرآن، فكأنّه رقّ له. فبلغ ذلك أبا جهل بن هشامٍ، فأتاه فقال: أي عمّ، إنّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا. قال: لم؟ قال: يعطونكه، فإنّك أتيت محمّدًا تتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريشٌ أنّي أكثرها مالًا. قال: فقل فيه قولًا يعلم قومك أنّك منكرٌ لما قال، وأنّك كارهٌ له. قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجلٌ أعلم بالأشعار منّي، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الّذي يقوله شيئًا من ذلك. والله إنّ لقوله الّذي يقول لحلاوةً، وإنّه ليحطّم ما تحته، وإنّه ليعلو وما يعلى. وقال: والله لا يرضى قومك حتّى تقول فيه. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ فِيهِ. فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ: إِنَّ هَذَا سِحْرٌ يَأْثِرُهُ عَنْ غَيْرِهِ. فَنَزَلَتْ: "ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا" قال قتادة: (خرج من بطن أمّه وحيدًا) ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (12) وَبَنِينَ شُهُودًا (13) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (14) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (15) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (16) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (17) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (29) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (30)﴾ [المدثر: 12-30]".

وهـذا جبـير بـن مطعـمٍ ﷺ عنـدما كـان كـافرا، فسـمع النـبي صـلّى الله عليـه وسـلّم يقـرأ سـورة الطّـور، فلمّـا بلـغ هـذه الآيـة: " أَمْ خُلِقُـوا مِـنْ غَـيْرِ شَـيْءٍ أَمْ هُـمْ الْخَـالِقُونَ. أَمْ خَلَقُـوا السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَـلْ لَا يُوقِنُـونَ. أَمْ عِنْـدَهُمْ خَـزَائِنُ رَبّـكَ أَمْ هُـمْ الْمُسَـيْطِرُونَ. قـال: كـاد قلـبي أن يطـير" رواه البخاري.

فكـان سماعـه لهـذا الآيات الكريمـات سـبباً في إسـلامه وهدايتـه، وكـاد قلبـه أن يطـير مـن حسـن هـذا البيـان وروعتـه وفصـاحته وبلاغتـه، ومـن وضـوح الحجـة وسـطوع الحـق، فـإن معناهـا: أم خلقـوا مـن غـير خـالق، وذلـك لا يجـوز؛ فـلا بـد لهـم مـن خـالق، وإذا أنكـروا الخـالق فهـم الخـالقون لأنفسـهم، وذلـك في الفسـاد والـبطلان أشـد؛ لأن مـا لا وجـود لـه كيـف يخلـق؟! وإذا بطــل الوجهــان قامــت الحجــة علــيهم بأن لهــم خالقــا، ثم قــال: ﴿أَمْ خَلَقُــوا السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الطـور: 36] أي إن جـاز لهـم أن يـدعوا خلـق أنفسـهم فليـدعوا خلـق السـماوات والأرض، وذلــك لا يمكــنهم، فقامــت الحجــة، ثم قــال: (بَــلْ لَا يُوقِنُــونَ) فــذكر العلــة الــتي عاقتهم عن الإيمان، وهو عدم اليقين.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77)﴾ [الواقعة: 77].

وصــف القــرآن بأنــه كــريم فيــه ميــزة وهــي: أن الكــلام إذا قــرئ وتــردد كثــيرا يهــون في الأعــين والآذان، ولهذا ترى من قال شيئا في مجلس الملوك لا يذكره ثانيا ولا يكرره.

فقولـه تعـالى (كـريم) أي لا يهـون بكثـرة الـتلاوة بـل يبقـى أبـد الـدهر كـالكلام الغـض والحـديث الطري.

وغـيره مـن الكـلام ولـو بلـغ في الحسـن والبلاغـة مبلغـه يمـل مـع الترديـد، ويعـادى إذا أعيـد، لأن إعادة الحديث على القلب أثقل من الحديد!

إن كفــار قــريش عنــدما جــاءهم القــرآن رأوا في داخــل الكــلام عظمــة القائــل، عظمــة لا يحسـونها في داخـل كـلام أي إنسـان مهمـا صـدق أو بالـغ في تعظـيم نفسـه، عظمـة أرهبـتهم

وأذهلتهم وأخضعتهم؛ إذ هذا الكلام يبين ويكشف عن نفسٍ عظيمة، وربنا عز وجل له نفس كما قال عيسى عليه السلام: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116].

نفس لا يعتريها الضعف قط، لا في ترهيبها ولا في ترغيبها، ولا في حال رحمتها ولا في حال عقوبتها... نفس تعلن استغناءها عن الجميع وحاجة الجميع إليها..

وأطلب منك أخي تدبر كلام هذا الرب العظيم الذي يعرّفنا بأسماءه وصفاته وأفعاله لعلك تعظمه وتقدره حق قدره!

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17)﴾ [فاطر: 15-17].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (15)﴾ [الشمس: 11-15].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)﴾ [الحج: 73-74].

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)﴾ [الحشر: 21-24].

نفس عظيمة متكبرة تنسب كل شيء لها نسبة الخلق والحاجة والإمداد والإعانة... نفس تأمر غيرها أمر السيد، والله هو السيد لعبيده. ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255)﴾ [البقرة: 255].

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98) وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (99) وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (103)﴾ [الأنعام: 95-103].

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (8) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (9) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (10) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (11) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ

الثِّقَالَ (12) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (13)﴾ [الرعد: 8-13].

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (59) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (61) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (62) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (63) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (64)﴾ [النمل: 59-64].

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (42) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (47) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (48) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (49) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (50) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (53) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (55) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (56) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (58) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)﴾ [النجم: 42-62].

ثبت في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ سجد في "النجم"، وسجد معه المسلمون والمشركون والإنس والجن.

تأمل العربي هذا الكلام وتساءل من يقوله؟ لقد سمعوا قول الملوك وأحسوا فيها حاجة وضعفًا مهما تقنع وتخفى، وسمعوا كلام الشجعان ورأوا فيه اضطرابًا وحاجة لآخر، فعنترة يشتكي فرسه من تحته لكثرة إرهاقه له، وسمعوا كلام الأسخياء والكرماء ورأوا فيها الإنسان الذي يعرفون من أنفسهم... لكن هذا الكلام يبين عن قائل ليسوا هم.. فليس فيه ضعف الإنسان ولا حاجته، بل هو يجري مجرًى واحدًا هو أن قائله إله؛ غني كل الغنى، عظيم كل العظمة، يملك كل ما سواه، ولذلك خرجت من العربي الفصيح الكلمة الواصفة لهذا الكلام حين سمع القرآن بقوله: "هذا كلام لا يخرج إلا من إلّ" –أي إله–.

يروى عن الأصمعي رحمه الله قال: قرأت «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله» والله غفور رحيم، وبجانبي أعرابي فقال كلام من هذا؟ فقلت: كلام الله. قال أعد فأعدت فقال: ليس هذا كلام الله، فانتبهت فقرأت "والله عزيز حكيم". فقال: أصبت هذا كلام الله! فقلت أتقرأ القرآن؟ قال لا فقلت: من أين علمت؟ فقال: يا هذا عز فحكم فقطع، ولو غفر ورحم لما قطع!

قال ابن كثير رحمه الله: "عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: اجتمعت قريشٌ يومًا فقالوا: انظروا أعلمكم بالسّحر والكهانة والشّعر، فليأت هذا الرّجل الّذي قد فرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وعاب ديننا، فليكلّمه ولننظر ماذا يردّ عليه؟ فقالوا: ما نعلم أحدًا غير عتبة ابن ربيعة. فقالوا: أنت يا أبا الوليد. فأتاه عتبة فقال: يا محمّد، أنت خيرٌ أم عبد الله؟ فسكت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: أنت خيرٌ أم عبد المطّلب؟ فسكت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: فإن كنت تزعم أنّ هؤلاء خيرٌ منك، فقد عبدوا الآلهة الّتي عبت، وإن كنت تزعم أنّك خيرٌ منهم فتكلّم حتى نسمع قولك، إنّا والله ما رأينا سخلةً قطّ أشأم على قومك منك؛ فرّقت جماعتنا، وشتّتّ أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتّى لقد طار فيهم أنّ في قريشٍ ساحرًا، وأنّ في قريشٍ كاهنًا! والله ما ننظر إلّا مثل صيحة الحبلى أن يقوم بعضنا إلى بعضٍ بالسّيوف، حتّى نتفانى! أيّها الرّجل، إن كان إنّما بك الحاجة جمعنا لك حتّى تكون أغنى قريشٍ رجلًا وإن كان إنّما بك الباءة فاختر أيّ نساء

قريشٍ [شئت] فلنزوّجك عشرًا. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "فرغت؟" قال: نعم فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "بِسْمِ الله الرحمن الرحيم. ﴿حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (5) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (7) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (8) قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (9) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (10) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (11) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (13)﴾ [فصلت: 1-13]. فقال عتبة: حسبك! حسبك! ما عندك غير هذا؟ قال: "لا" فرجع إلى قريشٍ فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئًا أرى أنّكم تكلّمونه به إلّا كلّمته. قالوا: فهل أجابك؟ [قال: نعم، قالوا: فما قال؟] قال: لا والّذي نصبها بنيّةً ما فهمت شيئًا ممّا قال، غير أنّه أنذركم صاعقةً مثل صاعقة عادٍ وثمود. قالوا: ويلك! يكلّمك الرّجل بالعربيّة ما تدري ما قال؟! قال: لا والله ما فهمت شيئًا ممّا قال غير ذكر الصّاعقة.

وقد ساقه البغويّ في تفسيره بسنده... عن جابرٍ، فذكر الحديث إلى قوله: "فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ" فأمسك عتبة على فيه، وناشده بالرّحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريشٍ واحتبس عنهم. فقال أبو جهلٍ: يا معشر قريشٍ، والله ما نرى عتبة إلّا قد صبا إلى محمّدٍ، وأعجبه طعامه، وما ذاك إلّا من حاجةٍ [قد] أصابته، فانطلقوا بنا إليه. فانطلقوا إليه فقال أبو جهلٍ: يا عتبة، ما حبسك عنّا إلّا أنّك صبوت إلى محمّدٍ وأعجبك طعامه، فإن كانت لك حاجةٌ جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن

طعام محمّدٍ. فغضب عتبة، وأقسم ألّا يكلّم محمّدًا أبدًا، وقال: والله، لقد علمتم أنيّ من أكثر قريشٍ مالًا ولكنّي أتيته وقصصت عليه [القصّة] فأجابني بشيءٍ والله ما هو بشعرٍ ولا كهانةٍ ولا سحرٍ، وقرأ السّورة إلى قوله: "فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ" فأمسكت بفيه، وناشدته بالرّحم أن يكفّ، وقد علمتم أنّ محمّدًا إذا قال شيئًا لم يكذب، فخشيت أن ينزل بكم العذاب، وهذا السياق أشبه من سياق البزار وأبي يعلى، والله أعلم.

وقد أورد هذه القصة الإمام مُحَّد بن إسحاق بن يسار في كتاب السيرة..."حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: "أفرغت يا أبا الوليد؟" قال: نعم. قال: "فاستمع مني" قال: أفعل. قال: " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. ﴿حم (1) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (3) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (4)﴾ [فصلت: 1-4] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه. فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: "قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك" فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: أقسم - يحلف بالله- لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلْكُهُ ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

وهذا السياق أشبه من الذي قبله، والله أعلم" اهـ.

وقد حاول مسيلمة الكذاب أن يسرق أساليب القرآن مع إحالة معانيه، فكانت شوهاء ممسوخة، مثل قوله: "ياضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين".

وقال ابن كثير رحمه الله: "وقد روّينا عن عمرو بن العاص أنّه وفد إلى مسيلمة في أيّام جاهليّته، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذا الحين؟ فقال له عمرٌو: لقد أنزل عليه سورةٌ وجيزةٌ بليغةٌ، فقال: وما هي؟ قال: أنزل عليه ﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)﴾ [العصر: 1-3] قال: ففكّر مسيلمة ساعةً ثمّ رفع رأسه فقال: ولقد أنزل عليّ مثلها، فقال له عمرو: وما هي؟ فقال مسيلمة: يا وبر يا وبر، إنّما أنت إيراد وصدر، وسائرك حفر نقرٌ! ثمّ قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنّك لتعلم أنّي أعلم أنّك تكذب" البداية والنهاية.

وقد علقّ ابن كثير رحمه الله على قول عمرو هذا من قرآن مسيلمة المزعوم: "فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان، ما يعاض به القرآن، فلم يرج ذلك على عابد الأوثان في ذلك الزمان!".

قال ابن القيم رحمه الله: "تأمّل خطاب الْقرْآن تجد ملكا له الْملك كله وله الْحمد كله أزمّة الْأمور كلها بيده ومصدرها منْه ومرادها إليْه مستويا على سرير ملكه لا تخفى عليْه خافية في أقطار مملكته عالما بما في نفوس عبيده مطّلعا على أسرارهم وعلانيتهم منْفردا بتدبير المملكة يسمع ويرى ويعْطي ويمْنع ويثيب ويعاقب ويكرم ويهين ويخلق ويرزق ويميت ويحيي ويقدر ويقْضي ويدبّر الْأمور نازلة من عنْده دقيقها وجليلها وصاعدة إليْه لا تتحرك في ذرّة إلّا بإذْنه ولا تسْقط ورقة إلّا بعلْمه فتأمّل كيف تجده يثني على نفسه ويمجّد نفسه ويحمد نفسه وينْصح عباده ويدلّهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغّبهم فيه ويحذّرهم ممّا فيه هلاكهم ويتعرّف إليْهم بأسمائه وصفاته ويتحبب إليْهم بنعمه وآلائه فيذكّرهم بنعمه عليْهم

ويأْمرهمْ بما يستوجبون به تمامها ويحذّرهم من نقمه ويذكّرهم بما أعد لهم من الْكرامة إن أطاعوه وما أعد لهم ما الْعقوبة إن عصوه ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه وكيف كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء ويثني على أوليائه بصالح أعْمالهم وأحسن أوصافهم ويذم أعداءه بسيء أعْمالهم وقبيح صفاتهم ويضْرب الْأمْثال وينوّع الأدلّة والبراهين ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الْأجْوبة ويصدق الصّادق ويكذب الْكاذب ويقول الْحق ويهْدي السّبيل ويدْعو إلى دار السّلام ويذكر أوصافها وحسنها ونعيمها ويحذّر من دار الْبوار ويذكر عذابها وقبحها وآلامها ويذكر عباده فقرهمْ إليْه وشدّة حاجتهم إليْه من كل وجه وأنّهمْ لا غنى لهم عنه طرفة عين ويذكر غناه عنْهم وعن جميع الموجودات وأنه الْغنيّ بنفسه عن كل ما سواه وكل ما سواه فقير إليْه بنفسه وأنه لا ينال أحد ذرة من الْخير فما فوْقها إلّا بفضله ورحمته ولا ذرّة من الشّرّ فما فوْقها إلّا بعدله وحكمته ويشْهد من خطابه عتابه لأحبابه ألطف عتاب وأنه مع ذلك مقيل عثراتهم وغافر زلاتهم ومقيم أعذارهم ومصلح فسادهم والدافع عنْهم والمحامي عنْهم والناصر لهم والْكفيل بمصالحهم والمنجي لهم من كل كرب والموفي لهم بوعده وأنه وليّهم الّذي لا ولي لهم سواه فهو موْلاهم الْحق ونصيرهم على عدوهم فنعم الْمولى ونعم النصير" الفوائد.

– **مثال من إعجاز القرآن:** إن هذا الكتاب الكريم يمنحُ مَنْ نظر فيه وتدبره خزائن بغير حساب ويفتح الله عليه من ألطافه ما يَجِلُّ عن الوصف فلا تُضيّع هذه الصفقة الرابحة وإلا فأنت والله مغبون.

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)﴾ [محمد: 24].

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا

الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)﴾ [آل عمران: 35-37].

فعندما وصفت الله بأنه (يرزق من يشاء بغير حساب) وكان نبي الله زكريا قد بلغه الهرم وزوجته عاقر، و(العاقر): المرأة الّتي لا تلد عقرت رحمها أي قطعته. وأهل النّفوس الزّكيّة يعتبرون بما يرون ويسمعون، فلذلك عمد إلى الدّعاء بطلب الولد في غير إبّانه، وقد كان في حسرةٍ من عدم الولد كما حكى الله عنه في سورة مريم.

قال الله هنا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39)﴾ [آل عمران: 38-39].

فماذا تفهم من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (212)﴾ [البقرة: 212]؟

(1) إن قلت: (يرزق من يشاء بغير حساب) أي: عطاء الله لا يدخل تحت عد أو حصر، فهو بغير حساب أي أن رزقه لا يتناهى... فيكون تنبيها على سعة خزائن الله وبسطة يده جل شأنه ومشيرة إلى الغنى المطلق لله ﷻ. من باب قوله صلّى الله عليه وسلّم: " قال الله عزّ وجلّ: أنفق أنفق عليك، وقال: يد الله ملأى لا تغيضها نفقةٌ سحّاء اللّيل والنّهار، وقال: أرأيتم ما أنفق منذ خلق السّماء والأرض، فإنّه لم يغض ما في يده" متفق عليه.

قوله(تغيضها): تنقصها. (سحاء): دائمة العطاء من السح وهو الصب والهطل. فقد أصبت!

(2) وإن قلت: (يرزق من يشاء بغير حساب) أي: لا يحسب ما يعطي لأنه لا يخاف نفادها عنده، فيحتاج إلى حساب ما يخرج منه، لأن المعطي إنما يحاسب ليعلم مقدار ما يعطي وما يبقي، من باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (54)﴾ [ص: 54]. فقد أصبت!

(3) وإن قلت: (يرزق من يشاء بغير حساب) أي والله يرزق من يشاء بعضها ثواب وبعضها تفضيل محض فهو بغير حساب، من باب قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10)﴾ [الزمر: 10].

فتكون الآية مشيرة إلى كرم الله ﷻ فيعطي مقابل الشيء عدلا ويزيد ما لا مقابل له فضلا. فقد أصبت!

(4) وإن قلت: (يرزق من يشاء بغير حساب) أي لا يوجد من يحاسبه لأنه هو العلي الأعلى، من باب قوله تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (23)﴾ [الأنبياء: 23].

فتكون الآية مشيرة إلى الربوبية المطلقة. فقد أصبت!

(5) وإن قلت: (يرزق من يشاء بغير حساب) أي أنه يعطي في الدنيا من يشاء وفقا لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء، من باب قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا﴾ [الفجر: 15-17].

فقد وسع الدنيا على قارون، وضيقها على أيوب عليه السلام، فلا يجوز لكم أيها الكفار أن تستدلوا بحصول متاع الدنيا لكم وعدم حصولها لفقراء المسلمين على كونكم محقين وكونهم مبطلين، بل الكافر قد يوسع عليه زيادة في الاستدراج، والمؤمن قد يضيق عليه زيادة في الابتلاء والامتحان. فقد أصبت!

(6) وإن قلت: (يرزق من يشاء بغير حساب) أي: طائفة من الموحدين الذين يدخلهم الله الجنة بدون حساب وهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب كما في الحديث الصحيح.... و"هم الذين لا يتطيرون ولا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون" فقد أصبت!

(7) وإن قلت: (يرزق من يشاء بغير حساب) أي: من حيث لا يحتسب ولا ينتظر، كما يقول الرجل إذا جاءه ما لم يكن في تقديره: لم يكن هذا في حسابي، من باب قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3].

ويكون فيها تلويحا للمؤمنين بما سيفتح لهم من أبواب النصر والظفر حتى يبدل عسرهم يسرا وفقرهم غنى من حيث لا يظنون. فقد أصبت!

- ومن إعجاز القرآن ما تضمنه من علم الغيب بأخبار تكون فكانت:

كقوله لليهود: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94)﴾ [البقرة: 94].

ثم قال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: 95] فما تمناه أحد منهم!

وهذا بالنّسبة إلى اليهود المخاطبين زمن النّزول ظاهرٌ إذ لم ينقل عن أحدٍ منهم أنّه تمنّى الموت كما أخبرت الآية. وهي أيضًا من أعظم الدّلائل عند أولئك اليهود على صدق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فإنّهم قد أيقن كلّ واحدٍ منهم أنّه لا يتمنّى الموت وأيقن أنّ بقيّة قومه لا يتمنّونه لأنّه لو تمنّاه أحدٌ لأعلن بذلك لعلمهم بحرص كلّ واحدٍ منهم على إبطال حكم هذه الآية، ويفيد بذلك إعجازًا عامًا على تعاقب الأجيال كما أفاد عجز العرب عن المعارضة علم جميع الباحثين بأنّ القرآن معجزٌ وأنّه من عند الله. على أنّ الظّاهر أنّ الآية تشمل اليهود الّذين يأتون بعد يهود عصر النّزول إذ لا يعرف أنّ يهوديًّا تمنّى الموت إلى اليوم، فهذا ارتقاءٌ في دلائل النّبوّة.

وكقوله لقريش ولغيرهم من العرب متحديا لهم: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: 23-24]. فقطع بأنهم لا يفعلون فلم يفعلوا. ولا يزال التحدي قائما!

وكقوله للنبي صلّى الله عليْه وسلّم وهو في مكة مستضعف: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45)﴾ [القمر: 45].

قال ابن كثير رحمه الله: "عنْ عكْرمة، قال: لما نزلتْ "سيهْزم الْجمْع ويولّون الدّبر" قال عمر: أيّ جمع يهزم؟ أيّ جمْع يغْلب؟ قال عمر: فلمّا كان يوْم بدْرٍ رأيْت رسول الله صلّى الله عليْه وسلّم يثب في الدّرْع، وهو يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45)﴾ [القمر: 45]" اهـ.

وقد كانت من دلائل النبوة، فهزمت جموعهم، وولوا الأدبار، وليس هذا تمام عقوبتهم، بل الساعة موعد عذابهم، والساعة أدهى من ذلك العذاب الدنيوي وأمرّ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46)﴾ [القمر: 46].

وكقوله تعالى في هجرته من مكة إلى المدينة: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [القصص: 85].

فأعاده الله إلى مكة عام الفتح. قال ابن كثير رحمه الله: "عنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: "لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ" أَيْ: لَرَادُّكَ إِلَى مَكَّةَ كَمَا أَخْرَجَكَ مِنْهَا". وقال تعالى: "لا أقسم بهذا البلد": يقسم ربنا عز وجل بمكة. "وأنت حل بهذا البلد" أي: وأنت بمكة حلال لك أن تصنع فيها ما تشاء مما هو حرام في غير هذا الوقت الذي أحل لك، فلا إثم عليك ولا حرج، وهذه السورة مكية، ولم يتحقق هذا الخبر إلا بعد مهاجر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغزوه مكة.

عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما، عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «حرّم الله مكّة فلم تحلّ لأحدٍ قبلي، ولا لأحدٍ بعدي، أحلّت لي ساعةً من نهارٍ "رواه البخاري ومسلم.

وكقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4)﴾ [المسد: 1-4].

ونزل هذا القرآن في حياة أبي لهبٍ وزوجته، وقد ماتا بعد ذلك كافرَين، فكانت هذه الآية إعلامًا بأنّهما لا يسلمان–ولو نفاقا– وكانت من دلائل النبوءة.

ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن أبا لهب ذهب الى مكان يتجمع فيه أهل مكة وقال لهم: لقد قال عني مُحَّد في القرآن الذي يدعي أنه ينزل من السماء أنني سأموت كافرا وسأدخل النار ولكني أقول أمامكم أشهد أن لا اله الا الله وأن مُحَّدا رسول الله، لتعلموا أنه هذا الكلام غير صادق وأن مُحَّدا لا يوحى اليه بشيء! ماذا كان يمكن ان يحدث لو نطق أبو لهب بالشهادتين رياء أو نفاق ليهدم قضية الدين؟ ولكن حتى هذا التصرف الذي كان يمكن ان يخدم قضية الكفر التي كان أبو لهب أكبر أقطابها، حتى هذا الكلام لم يخطر على عقل أبي لهب ولم يقله، أليس هذا دليلا على أن ما يريده الله لا بد أن يحدث؟! أيوجد تحد أكبر من أن يعطي الله أكبر أعداء الاسلام القضية التي يهدم بها هذا الدين، ثم لا يستطيع أن يستخدمها؟! أليس هذا دليلا على أن ما يقضي الله به غيبا لا بد أن ينفذ مهما بدا غير ذلك، وهل يوجد دليل أكبر من ذلك على أن الغيب عند الله لا بد أن يقع؟!

وكقوله تعالى: ﴿الم (1) غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: 1-4].

والآية من دلائل النبوة؛ لأنها إخبار عن الغيب، فإن الهزيمة التي ألحقتها فارس بالروم ألجأتهم إلى عقر دارهم، وأفقدتهم جميع الأقاليم التي كانت لهم في آسيا، وجعلتهم من الضعف بحيث لا يظن أحد أن تقوم لهم قائمة بعد هذه الهزيمة النكراء، فإذا نزل القرآن مبشرا بنصرهم ومحددا موعد هذا النصر بأنه في بضع سنين، وتحقق هذا النصر في موعده، فإنه دليل على أنه من عند الله، وليس من عند محمَّد كما زعم أعداءُ الإسلام، فإنه لا يقدم على مثل هذا الوعد الخطير إلاَّ من هو مؤيد من العليم الخبير. الذي يخبرنا من الذي سينتصر ومن الذي سيهزم، وتأتي الأحداث وتقع الحرب، وينتصر الروم ويهزم الفرس كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى، وماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الفرس انتصروا على الروم؟!

والقرآن كلام الله المتعبد بتلاوته الى يوم القيامة، وكيف كان يمكن أن يقف المسلمون في المساجد ويقرأون سورة الروم في الصلاة، مع أن نتيجة الحرب قد اختلفت عما في السورة.

وهكذا نرى مدى الاعجاز في أن الله سبحانه وتعالى، قد بيّن لنا بالدليل المادي على أنه يعلم الغيب، وأن علمه للغيب علم يقين لا بد أن يحدث وأن يتم، وأنه مسيطر على أمور الدنيا كلها، حتى في تلك الأشياء التي لا يمكن أن يتنبأ بنتيجتها أحد قبل حدوثها بتسع سنوات، بل لا يمكن أن يتنبأ بنتيجتها أحد حتى ساعة حدوثها، أليس هذا دليلا ماديا على أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يسيّر الأمر في كونه، وهو الذي إذا قال "كن" يكون، أليس هذا دليلا على أن الله سبحانه وتعالى القائل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)﴾ [يس: 82].

ألا نفهم معنى الآية الكريمة: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: 1].؟!

ثم قال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: 4-5] وقد صادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر، قال السّدّيّ رحمه الله: "فرح النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنون بظهورهم على المشركين يوم بدرٍ، وظهور أهل الكتاب على أهل الشّرك" تفسير البغوي.

مراحل هذه الرحلة العظيمة

والآن نبدأ بتفاصيل مراحل هذه الرحلة العظيمة:

المرحلة الأولى: مرحلة العدم

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ [مريم: 66-68].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا (1)﴾ [الإنسان: 1].

هذا الاستفهام على حقيقته، وهو يحمل سؤالا موجها إلى الإنسان ليجيب عليه، وليبحث عن حقيقته، وكيف كان؟ ثم كيف صار؟ ثم إلى أين ينتهي به خط مسيرته؟ وهذا السؤال من شأنه أن يستثير تفكير الإنسان، وأن ينشّط مداركه الخامدة، وأن يفتح عينيه المغمضتين، على هذا الوجود أين كان قبل أن يكون؟ من الذي أوجده؟ ومن الذي جعله شيئاً مذكوراً في هذا الوجود؟ بعد أن لم يكن له ذكر ولا وجود. وكيف البداية؟ وإلى أين النهاية؟

وقد ذكر تعالى أنّ من أنكر البعث فقد نسي الإيجاد الأوّل، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67)﴾ [مريم: 66-67].

ثُمّ رتّب على ذلك الدّليل بقوْله: (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ) الْآيَةَ. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (62)﴾ [الأنعام: 62].

وقال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28)﴾ [البقرة: 28].

يقول ابن كثير رحمه الله: "عن ابن عباس في قوله: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: 11] قال: كنتم ترابًا قبل أن يخلقكم، فهذه ميتة، ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى. فهذه ميتتان وحياتان، فهو كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: 28]" اهـ.

كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (36)﴾ [الطور: 35-36].

حتى لا يظن الإنسان وهو في قمة القوة والعافية أنه إله! وإنما هو مخلوق ضعيف حقير ليس له حول ولا قوة إلا بخالقه تعالى الله ﷻ.

المرحلة الثانية: مرحلة بطن الأم (عالم الأجنة)

والحكمة من البقاء فيها هذه المدة: تكميل خلق الأعضاء الداخلية والخارجية، ومدة البقاء فيها تسعة أشهر.

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2)﴾ [الإنسان: 2].

هذه دعوة إلى كل عقل، لينظر إلى تلك الحقيقة المشاهدة، في واقع الحس، والتي لا يستطيع أن ينكرها، أو يكابر فيها.. «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ».. والنطفة، هي التي أشار إليها قوله تعالى في آخر سورة القيامة: «أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنى؟».. والتي هي ماء الذكر، يقذف به في رحم الأنثى. والأمشاج: هي الأخلاط.

وهذا يعني أن تلك النطفة وإن بدت في مرأى العين مجرد ماء، هي في حقيقتها ماء مشوب بأشياء أخرى، أودعتها فيه قدرة الخالق جل وعلا، كما أودعت في هذه البذرة، صورة الشجرة ولون زهرها، وطعم ثمرها.. كذلك هذه النطفة الأمشاج، قد حملت في كيانها صورة الإنسان، ولونه، ومستوى إدراكه، ومستودع عواطفه، ومشاعره، قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5)﴾ [الطارق: 5] تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خُلق منه، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد؛ لأن من قدر على البَدَاءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27]. وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6)﴾ [الطارق: 6] يعني: المني؛ يخرج دَفقًا من الرجل ومن المرأة، فيتولد منهما الولد بإذن الله، عز وجل؛ ولهذا قال: " يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ" يعني: صلب الرجل وترائب المرأة، وهو صدرها. وهَذَا الْبُرْهَانُ الدَّالُّ عَلَى الْبَعْثِ الَّذِي هُوَ خَلْقُ الْإِنْسَانِ مِنْ نُطْفَةٍ من مَنِيٍّ تُمْنَى - يَجِبُ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ النَّظَرُ فِيهِ، لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا وَجَّهَ صِفَةَ الْأَمْرِ بِالنَّظَرِ فِيهِ إِلَى مَنِيِّ الْإِنْسَانِ، وَالْأَصْلُ فِي صِيغَةِ الْأَمْرِ عَلَى

التَّحْقِيقِ الْوُجُوبُ إِلَّا لِدَلِيلٍ صَارِفٍ عَنْهُ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7)﴾ [الطارق: 5-7] خلق من هذا الماء الذي يجتمع من صلب الرجل وهو عظام ظهره الفقارية ومن ترائب المرأة وهي عظام صدرها العلوية.. ولقد كان هذا سراً مكنوناً في علم الله لا يعلمه البشر. حتى كان نصف القرن الأخير حيث اطلع العلم الحديث على هذه الحقيقة بطريقته؛ وعرف أنه في عظام الظهر الفقارية يتكون ماء الرجل، وفي عظام الصدر العلوية يتكون ماء المرأة. حيث يلتقيان في قرار مكين فينشأ منهما الإنسان! هذه المسافة الهائلة التي يعبرها الماء الدافق إلى الإنسان الناطق توحي بأن هنالك يداً خارج ذات الإنسان هي التي تدفع بهذا الشيء المائع الذي لا قوام له ولا إرادة ولا قدرة، في طريق الرحلة الطويلة العجيبة الهائلة، حتى تنتهي به إلى هذه النهاية الماثلة. وتشي بأن هنالك حافظاً من أمر الله يرعى هذه النطفة المجردة من الشكل والعقل ومن الإرادة والقدرة في رحلتها الطويلة العجيبة ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5)﴾ [الطارق: 4-5].

وهي تحوي من العجائب أضعاف ما يعرض للإنسان من العجائب من مولده إلى مماته! هذه الخلية الواحدة الملقحة لا تكاد ترى بالمجهر، إذ أن هنالك ملايين منها في الدفقة الواحدة.. هذه الخلية التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة، تبدأ في الحال بمجرد استقرارها في الرحم في عملية بحث عن الغذاء. حيث تزودها اليد الحافظة بخاصية أكالة تحوّل بها جدار الرحم حولها إلى بركة من الدم السائل المعد للغذاء الطازج! وبمجرد اطمئنانها على غذائها تبدأ في عملية جديدة. عملية انقسام مستمرة تنشأ عنها خلايا... وتعرف هذه الخلية الساذجة التي لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة.. تعرف ماذا هي فاعلة وماذا هي تريد.. حيث تزودها اليد الحافظة بالهدى والمعرفة والقدرة والإرادة التي تعرف بها الطريق! ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3)﴾ [الأعلى: 1-3]. إنها مكلفة أن تخصص كل مجموعة من هذه الخلايا الجديدة لبناء ركن من أركان هذه العمارة الهائلة. عمارة الجسم الإنساني... فهذه المجموعة تنطلق لتنشئ

الهيكل العظمي. وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العضلي. وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز العصبي. وهذه المجموعة تنطلق لتنشئ الجهاز للمفاوي.. إلى آخر هذه الأركان الأساسية في العمارة الإنسانية!.. ولكن العمل ليس بمثل هذه البساطة.. إن هنالك تخصصاً أدق. فكل عظم من العظام. وكل عضلة من العضلات. وكل عصب من الأعصاب.. لا يشبه الآخر. لأن العمارة دقيقة الصنع، عجيبة التكوين، متنوعة الوظائف.. ومن ثم تتعلم كل مجموعة من الخلايا المنطلقة لبناء ركن من العمارة، أن تتفرق طوائف متخصصة، تقوم كل طائفة منها بنوع معين من العمل في الركن المخصص لها من العمارة الكبيرة!.. إن كل خلية صغيرة تنطلق وهي تعرف طريقها. تعرف إلى أين هي ذاهبة، وماذا هو مطلوب منها! ولا تخطئ واحدة منها طريقها في هذه المتاهة الهائلة. فالخلايا المكلفة أن تصنع العين تعرف أن العين ينبغي أن تكون في الوجه، ولا يجوز أبداً أن تكون في البطن أو القدم أو الذراع. مع أن كل موضع من هذه المواضع يمكن أن تنمو فيه عين. ولو أخذت الخلية الأولى المكلفة بصنع العين وزرعت في أي من هذه المواضع لصنعت عيناً هنالك! ولكنها هي بذاتها حين تنطلق لا تذهب إلا للمكان المخصص للعين في هذا الجهاز الإنساني المعقد.. فمن ترى قال لها: إن هذا الجهاز يحتاج إلى عين في هذا المكان دون سواه؟ إنه الله. إنه الحافظ الأعلى الذي يرعاها ويوجهها ويهديها إلى طريقها في المتاهة التي لا هادي فيها إلا الله!

ووراء هذا اللمحة الخاطفة عن صور الرحلة الطويلة العجيبة بين الماء الدافق والإنسان الناطق، حشود لا تحصى من العجائب والغرائب، في خصائص الأجهزة والأعضاء.... في هذه النقطة تكمن جميع خصائص الإنسان المقبل: صفاته الجسدية وسماته من طول وقصر وضخامة وضآلة وقبح ووسامة وآفة وصحة.. كما تكمن صفاته العصبية والعقلية والنفسية: من ميول ونزعات وطباع واتجاهات وانحرافات واستعدادات.. فمن يتصور أو يصدق أن ذلك كله كامن في تلك النقطة العالقة؟ وأن هذه النقطة الصغيرة الضئيلة هي هذا الإنسان

المعقد المركب الذي يختلف كل فرد من جنسه عن الآخر، فلا يتماثل اثنان في هذه الأرض في جميع الأزمان؟!

وأمر الإنسان بأن ينظر ممّ خلق في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5)﴾ [الطارق: 5] تنبيهٌ له على حقارة ما خلق منه؛ ليعرف قدره، ويترك التّكبّر والعتوّ، ويدلّ لذلك قوله: " أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ" الآية. وبيّن - جلّ وعلا - حقارته بقوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ (39)﴾ [المعارج: 38-39] والتّعبير عن النّطفة بما الموصولة في قوله: "مِمَّا يَعْلَمُونَ" فيه غاية تحقير ذلك الأصل الّذي خلق منه الإنسان. وفي ذلك أعظم ردعٍ، وأبلغ زجرٍ عن التّكبّر والتّعاظم.

إن أمر النشأة الأولى ونهايتها، أمر الحياة والموت، كل ذلك بيد الله وحده، وهو أمر مألوف وواقع في حياة الناس، فكيف لا يصدقون أن الله خلقهم.

إن ضغط هذه الحقيقة على الفطرة أضخم وأثقل من أن يقف له الكيان البشري، أو يجادل فيه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59)﴾ [الواقعة: 57-59].

إن دور البشر في أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يُوْدِع الرجل ما يُمْني في رحم المرأة، ثم ينقطع عمله وعملها، وتأخذ يد القدرة الإلهية في العمل وحدها في هذا الماء المهين، تعمل وحدها في خلقه وتنميته، وبناء هيكله، ونفخ الروح فيه، حتى يكون خلقاً آخر، حتى يكون بشراً سوياً له سمع وبصر، وقلب وروح، وعقل وإدراك، ورأس ولسان، وأيد وأقدام. يأكل ويشرب.. ويضحك ويبكي.. ويقوم ويقعد.. وينام ويستيقظ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا

آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16)﴾ [المؤمنون: 12-16].

هذه هي البداية، أما النهاية فهي الموت الذي ينتهي إليه كل حي، إنه قدر الله، ومن ثم لا يفلت منه أحد، وهو حلقة في سلسلة النشأة التي لا بدَّ أن تتكامل: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62)﴾ [الواقعة: 60-62].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5)﴾ [الحج: 5].

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد، فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »متفق عليه.

وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم من حديث داود بن أبي هند، عن الشعبي، عن علقمة، عن عبد الله بن مسعود قال: "النطفة إذا استقرت في الرحم، أخذها ملك بكفه قال: يا رب، مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قيل: "غير مخلقة" لم تكن نسمة، وقذفتها الأرحام دما. وإن قيل: "مخلقة" قال: أي رب، ذكر أو أنثى؟ شقي أو سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وبأي

أرض يموت؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله. فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله. فيقال له: اذهب إلى الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة. قال: فتخلق فتعيش في أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، حتى إذا جاء أجلها ماتت، فدفنت في ذلك المكان، ثم تلا عامر الشعبي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: 5] فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمة، فإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دما، وإن كانت مخلقة نكست في الخلق".

المرحلة الثالثة: عالم الدنيا

والحكمة من البقاء فيها تلك المدة: الابتلاء، وإذا أكمل العبد لله فيها ما يحب أكمل الله له في الآخرة ما يحب، ثم يخرج من الدنيا مع عمله إلى الدار التي تليها. قال تعالى: ﴿نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3)﴾ [الإنسان: 2-3].

جعل الله هذه الدنيا: دار تكميل الإيمان والأعمال، والآخرة دار تكميل الشهوات واللذات، ومن لم يأت بالإيمان والأعمال الصالحة دخل النار المشتملة على كمال العذاب والآلام: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (13) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (14)﴾ [النساء: 13-14].

وقال الله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17)﴾ [الأعلى: 16-17].

والله عزَّ وجلَّ جعل لكل شيء زينة ومقصداً، فالنبات له زينة وهي الأوراق والأزهار، ولكن المقصد الحبوب والثمار، والثياب لها زينة وهي الألوان والتفصيل، ولكن المقصد ستر العورة. وكذلك الدنيا زينة، وكل ما عليها زينة، والمقصد الإيمان والأعمال الصالحة، والدنيا كلها زينة، والمقصد الآخرة، وكل من نسي المقصد تعلق بالزينة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (8)﴾ [الكهف: 7-8].

فالابتلاء الذي يتعرض له الإنسان في حياته الدنيا هو جعل ما على الأرض زينة لها ثم اختبار الإنسان في موقفه من هذه الزينة: هل يلتزم فيها بعبادة الله؟ أي يقف في استمتاعه بها عند ما أحل الله، أم يعبد الشيطان فيتجاوز حدود الله؟ والأنبياء والرسل وأتباعهم

يشتغلون بالمقاصد، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأهل الدنيا يشتغلون بالزينات واللهو واللعب، ويغفلون عن المقصد، والله أمرنا أن نأخذ من الدنيا بقدر الحاجة، ونعمل للآخرة بقدر الطاقة، وإذا تعارضت في حياتنا الزينات والأشياء مع المقصد وهو عبادة الله وحده، والدعوة إلى الله، قدمنا ما يحب الله وهو عبادته، وطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والجهاد في سبيله ونشر دينه.

قال السعدي رحمه الله: "يخبر تعالى: أنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مآكل لذيذة، ومشارب، ومساكن طيبة، وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنة واختبارا. ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7)﴾ [الكهف: 7] أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة، وزائلة منقضية. وستعود الأرض صعيدا جرزا قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغتر بزخرف الدنيا وزينتها، من نظر إلى ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة اتفقت، فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يداه من التفريط والسيئات.

وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه، فإنه يتناول منها، ما يستعين به على ما خلق له، وانتهز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور، لا محل حبور، وشقة سفر، لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا، حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لآخرته، حين عمل البطال لدنياه، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين".

وقال القرطبي رحمه الله: " قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: 45].

قالت الحكماء: شبه الله سبحانه وتعالى الدنيا بالماء؛ لأن الماء لا يستقر في موضع، كذلك الدنيا لا تبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة؛ كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى. ولأن الماء لا يقدر أحد أن يدخله ولا يبتل كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدر كان نافعاً منبتاً، وإذا جاوز المقدار كان ضاراً مهلكاً، وكذلك الدنيا الكفاف منها ينفع وفضولها يضر"اهـ.

"وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (46)﴾ [النازعات: 46] تنطوي هذه الحياة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون، والتي يؤثرونها ويدعون في سبيلها نصيبهم في الآخرة، والتي يرتكبون من أجلها ما يرتكبون من الجريمة والمعصية والطغيان، والتي يجرفهم الهوى فيعيشون له فيها... فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها! أفمن أجل عشية أو ضحاها يضحون بالآخرة؟ ومن أجل شهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى! ألا إنها الحماقة الكبرى التي لا يرتكبها إنسان يسمع ويرى!" في ظلال القرآن.

وقد خلق الله الجن والإنس لعبادته وحده لا شريك له كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)﴾ [الذاريات: 56-58].

قال الإمام الشنقيطي رحمه الله: " التّحقيق - إن شاء الله - في معنى هذه الآية الكريمة إلّا ليعبدون، أي إلّا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم أي أختبرهم بالتّكاليف، ثمّ أجازيهم على أعمالهم، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌّ، وإنّما قلنا إنّ هذا هو التّحقيق في معنى الآية، لأنّه تدلّ عليه آياتٌ محكماتٌ من كتاب الله، فقد صرّح تعالى في آياتٍ من كتابه أنّه خلقهم

ليبتليهم أيّهم أحسن عملًا، وأنّه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم. قال تعالى في أوّل سورة هودٍ: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: 7]، ثمّ بيّن الحكمة في ذلك فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (7)﴾ [هود: 7] وقال تعالى في أوّل سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: 2]. وقال تعالى في أوّل سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (7)﴾ [الكهف: 7]. فتصريحه – جلّ وعلا – في هذه الآيات المذكورة بأنّ حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيّهم أحسن عملًا، يفسّر قوله: ليعبدون. وخير ما يفسّر به القرآن – القرآن.." اهـ.

جاء في الأثر – الذي أورده شيخ الإسلام ابن تيمية في (درء تعارض العقل والنقل)، والإمام ابن القيم في (مفتاح دار السعادة) – أن الله تعالى قال: "لَوْ لَمْ أخلُق جَنَّةً ولا ناراً ألَمْ أكنْ أهْلاً أنْ أُعْبَد"؟!

قال تعالى: ﴿نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (2)﴾ [الإنسان: 2] فعلى السالك في هذا الطريق أن يعلم أن البلاء بالمؤمن لا ينتهي حتى يأتيه الموت، فهو في سباق نحو الخاتمة التي يحبها الله للمؤمنين من السابقين والسالكين لهذا الدرب، فالبعض منهم يخرج من هذا السباق تعباً من التكاليف والبلاء، ويرضى بما هو عليه فيستقيل، وهذه لم يرضها الصحابة رضوان الله عليهم بل قالوا: (والله لا نقيل ولا نستقيل)، ولا يعاب على هؤلاء إيمانياً إلا كعيب القادرين على الكمال! وبعضهم يرتكس ويسقط من كل مراتبه حتى يعود عدواً للإسلام والمسلمين وهو لا يدري، ومنافقاً يتكلم بكلمات ومناهج وأحكام المنافقين زمن رسول الله ﷺ وهو غافل عن نفسه وأقواله! فليعرض كل واحد قوله على كتاب الله تعالى ليرى صورته ومرتبته وكل امرئ حسيب نفسه إن فعل ذلك.

قال ابن القيم رحمه الله: "الحيوان البهيم يتأمل العواقب، وأنت لا ترى إلا الحاضر. ما تكاد تهتم بمؤونة الشتاء حتى يقوى البرد، ولا بمؤونة الصيف حتى يقوى الحر، والذر يدخر الزاد من الصيف لأيام الشتاء. وهذا الطائر إذا علم أن الأنثى قد حملت أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع، أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلى القبر، فهلا بعثت فراش: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (44)﴾ [الروم: 44]" بدائع الفوائد.

ومن الابتلاء: قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55)﴾ [التوبة: 55].

إن النفوس الإنسانية تتأثر بما في أيدي الناس من المحبوبات التي ذكرها الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: 14].

لكن هذه يرقيها القرآن، ويقومها خطابه، ويرفع شأنها من النظر إليها إلى الآخرة فقال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15)﴾ [آل عمران: 15] ففي هذه الآية: "فلا تعجبك" قطع الإعجاب بما في يد الكافر والمنافق من المال والأولاد، ذلك لأن إعجاب المؤمن بمال الكافر والمنافق سبيل إلى تعظيمه واجلاله، والإعجاب بعمله وعقله ووسائل حياته، وهذا لو وقع لكان شراً في قلبه، مؤذن بتقليده، ثم باتخاذه إماماً وقدوة، وهذا ما وقع في الأزمنة المتأخرة، فإن ما أعطاه الله من دنيا في يد الكافر، وكثرة النعيم عنده كان سبباً في شك المسلمين بدينهم، ثم اتباعهم طرق الأغيار، ولو تربى المسلمون على هذه الآية لكفتهم في هذا الشأن، ولعصمتهم مما يقال الانبهار بالكفر، لكن مرض حب الدنيا، واتخاذ ما فيها ميزاناً يقيم منه صواب المنهج وضلاله هو ما صرف الكثير من المسلمين عن الإسلام، وهذا منهج فرعون في التفضيل حين قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52)﴾ [الزخرف: 52].

المرحلة الرابعة: مرحلة الموت (آخر يوم في الدنيا)

الموت طالب لا يمل الطلب، ولا يبطئ الخطى، ولا يخلف الميعاد ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (8)﴾ [الجمعة: 8].

وقال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19)﴾ [ق: 19].

والموت أشد ما يحاول المخلوق البشري أن يروغ منه، أو يبعد شبحه عن خاطره. ولكن أنى له ذلك! وذكر سكرة الموت كفيل برجفة تدب في الأوصال! وبينما المشهد معروض يسمع الإنسان: «ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ».

وإنه ليرجف لصداها وهو بعد في عالم الحياة! فكيف به حين تقال له وهو يعاني السكرات! ويلفت النظر في التعبير ذكر كلمة الحق: «وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ».. وهي توحي بأن النفس البشرية ترى الحق كاملا وهي في سكرات الموت. تراه بلا حجاب، وتدرك منه ما كانت تجهل وما كانت تجحد، ولكن بعد فوات الأوان، حين لا تنفع رؤية، ولا يجدي إدراك، ولا تقبل توبة، ولا يحسب إيمان!

إنها حقيقة الموت القاسية الرهيبة التي تواجه كل حي، فلا يملك لها رداً، ولا يملك لها أحد ممن حوله دفعاً. وهي تتكرر في كل لحظة، ويواجهها الكبار والصغار، والأغنياء والفقراء، والأقوياء والضعاف، ويقف الجميع منها موقفاً واحداً.. لا حيلة. ولا وسيلة. ولا قوة. ولا شفاعة. ولا دفع. ولا تأجيل.. مما يوحي بأنها قادمة من جهة عليا لا يملك البشر معها شيئاً. ولا مفر من الاستسلام لها، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (26) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (27) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (28) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (29) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (30)﴾ [القيامة: 26-30].

قال ابن كثير رحمه الله: "وقال ابن أبي حاتم: وساق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: "وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ" قال: قيل: من يرقى بروحه: ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة. وبهذا الإسناد، عن ابن عباس في قوله: " وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ " قال: التفت عليه الدنيا والآخرة. وكذا قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: " وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ " يقول: آخر يوم في الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، فتلتقي الشدة بالشدة إلا من رحم الله. وقال عكرمة: "وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ" الأمر العظيم بالأمر العظيم. وقال مجاهد: بلاء ببلاء" اهـ.

*النوم شبيه الموت، ولذلك يسميه علماؤنا بالوفاة الصغرى، فالنوم وفاة والقيام من النوم بعث ونشور ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: 60].

وفي النوم تقبض أرواح العباد، ومن شاء الحق أن يمسك روحه في حال نومه أمسكها، ومن شاء بقاءها ردها إلى الأجل الذي حدده الحق، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الزمر: 42].

وهذه الآية تتكرر يوميا الموتة الصغرى والبعث الأصغر، وعن حذيفة ﵁ قال: كان النّبيّ ﷺ إذا أراد أن ينام قال: «باسمك اللّهمّ أموت وأحيا». وإذا استيقظ من منامه قال: «الحمد لله الّذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النّشور» أخرجه البخاري.

*فكل من مات فقد قامت قيامته وحان حينه، ففي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة ﵂ قالت: كان رجل من الأعراب جفاة يأتون النبي ﷺ فيسألونه متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم فيقول: " إن يعش هذا، لا يدركه الهرم حتى تقوم عليكم ساعتكم ".

قال ابن كثير رحمه الله: "والمراد انخرام قرنهم، ودخولهم في عالم الآخرة، فإن من مات فقد دخل في حكم الآخرة، وبعض الناس يقول: من مات فقد قامت قيامته، وهذا الكلام بهذا المعنى صحيح" اهـ.

أخرج الحافظ أبو نعيمٍ في (حلية الأولياء) عن سفيان الثوري رحمه الله قال: "الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا" اهـ.

وقال يونس بن عبد الأعلى رحمه الله: "ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكره وما يحب، فبينما هو كذلك انتبه" اهـ.

*وكما أن الحياة آية من آيات الله فالموت كذلك آية أخرى تضاد الحياة، ولكنها لا تقل عنها عجباً. والتفكر في هذه الآية تفكر في خلق من خلق الله وعجائبه الدالة على عظيم قدرة الله وعجيب أمره.... يروى أن أعرابياً كان يسير على جمل له فخر ميتاً، فنزل الأعرابي عنه، وجعل يطوف به، ويتفكر فيه، ويقول: مالك لا تقوم؟ مالك لا تنبعث؟ هذه أعضاؤك كاملة وجوارحك سالمة ما شأنك؟ ما الذي كان يحملك؟ ما الذي كان يبعثك؟ ما الذي صرعك؟ ما الذي عن الحركة منعك؟! ثم انصرف متفكراً في شأنه، متعجباً من أمره.

قال ابن السماك رحمه الله: بينما صياد في الدهر الأول يصطاد السمك، إذ رمى بشبكته في البحر، فخرج فيها جمجمة إنسان، فجعل الصياد ينظر إليها ويبكي ويقول: عزيز فلم تترك لعزك! غني فلم تترك لغناك!! فقير فلم تترك لفقرك!! جواد فلم تترك لجودك!! شديد لم تترك لشدتك!! عالم فلم تترك لعلمك!! يردد هذا الكلام ويبكي.

ولله درُّ القائل:

وكأن بالمرء قد ... يبكي عليه أقربوه
وكأن القوم قد ماتوا ... فقالوا أدركوه
سائلوه كلموه ... حركوه لقنوه

حرفـــــــــوه وجهـــــــــوه مـــــــــددوه غمضـــــــــوه
عجلـــــــــوه لرحيـــــــــل عجلـــــــوا لا تحبســـــــوه
ارفعـــــــوه غســـــــلوه كفنـــــــوه حنطـــــــوه
فـــــإذا مـــــا لـــــف في الـــــ أكفـــــان قـــــالوا فـــــاحملوه
أخرجـــــوه فـــــوق أعـــــواد المنـــــايا شـــــيعوه
فـــــإذا صـــــلوا عليـــــه قيـــــل هـــــاتوا واقـــــبروه
فـــــإذا مـــــا اســـــتودعوه الأرض رهنـــــاً تركـــــوه
ودعـــــوه فـــــارقوه أســـــلموه... خلفـــــوه
وانثنـــــوا عنـــــه وخلـــــوه كـــــأن لم يعرفـــــوه!

"أورد الإمام ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى في كتابه (أهوال القبور) عن الفضيل بن عياض رحمه الله قال: رأيت رجلاً يبكي، قلت: وما يبكيك؟ قال: أبكاني كلامه، قلت: ما هو؟ قال: كنا وقوفاً في المقابر فأنشدوا:

أتيـــت القبـــور فســـألناها أيـــن المعظـــم والمحتقـــر؟
وأيـــن المـــدل بســـلطانه وأيـــن القـــوي إذا مـــا قـــدر؟
ففـــاتوا جميعـــاً فمـــا مخـــبر ومـــاتوا جميعـــاً ومـــات الخـــبر
فيـــا ســـائلي عـــن أناس مضـــوا أمـــا لـــك في مـــا مضـــى معتـــبر؟
تـــروح وتغـــدو وأبـــلاك الثـــرى فتمحـــو محاســـن تلـــك الصـــور

روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن عبد الله بن صدقة بن مرداس البكري عن أبيه عن شيخ حدثه قال: "كان ثلاثة إخوة: أمير يصحب السلطان ويؤمر على المدائن والجلوس، وتاجر موسر مطاع من ناحيته، وزاهد قد تخلى لنفسه وتخلى لعبادة ربه. قال: فحضرت العابد

الوفاة فاجتمع عنده إخوانه فقال لهما إذا مت فغسلاني وكفناني وادفناني على نشز من الأرض واكتبا على قبري:

وكيف يلذ العيش من هو عالم بأن إله الخلق لا بد سائله
فيأخذ منه مظلمة... لعباده ويجزيه بالخير الذي هو فاعله

فإذا أنتما فعلتما ذلك فأتياني كل يوم لعلكما أن تتعظا. قال: ففعلا ذلك، فكان أخوه يركب في جنده حتى يقف على القبر فيقرأ ما على عليه ويبكي فلما كان اليوم الثالث وأراد أن ينصرف سمع هدة من داخل القبر، كاد أن ينصدع لها قلبه، فانصرف مذعوراً فزعاً فلما كان من الليل رأى أخاه في منامه فقال له أي أخي ما الذي سمعت من قبرك؟ قال تلك هدة المقمعة قيل لي رأيت: مظلوما، فلم تنصره! فأصبح مهموما فدعا أخاه وخاصته وقال: ما أرى أراد بما أوصى أن يكتب على قبره غيري، وإني أشهدكم أن لا أقيم بين ظهرانيكم أبدا، قال: فترك الإمارة ولزم الكتابة وكتب إلى عبد الملك بن مروان في ذلك، فكتب أن خلوه وما أراد، فحضرته الوفاة وهو في جبل مع بعض الرعاة فبلغ أخاه فأتاه فقال له إذا مت فادفني إلى جنب أخي وأكتب على قبري:

وكيف يلذ العيش من كان موقنا بأن المنايا بغتة ستعاجله؟
فتسلبه ملكا عظيما وتسكنه البيت الذي هو أهله

ثم تعاهدني ثلاثة بعد موتي، وادعو الله لي لعل الله أن يرحمني، ومات، ففعل به أخوه ذلك، فلما كان في اليوم الثالث وأراد أن ينصرف سمع وجبة في قبره كاد أن يذهل عقله، فرجع حزينا قلقا. فلما كان في الليل إذا بأخيه في منامه قد أتاه قال. فقلت له: أي أخي أتيتنا زائرا قال: يا أخي هيهات بعد المزار فلا مزار، وأطمأنت بنا الدار قلت: يا أخي كيف أنت؟ قال: بخير ما أجمع التوبة لكل خير. قال: فكيف أخي؟ قال: ذلك مع الأئمة

الأبرار. قلت: وما أمرنا وراءكم؟ قال: من قدّم شيئا وجده؛ فاغتنم وجدك قبل نقلك، فأصبح أخوه معتزلا ففرق ماله وقسمه وباعه، وأقبل على طاعة ربه" اهـ.

*وقد وعظ الله رسوله بالموت فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30)﴾ [الزمر: 30].

وفي الحديث الذي يرويه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والحاكم في مستدركه وحسنه الألباني عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " أتاني جبريل، فقال: يا مُحَّد عش ما شئت، فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس". وقال ﷺ: "اثنتان يكرههما ابن آدم: الموت، والموت خير للمؤمن من الفتنة، ويكره قلّة المال وقلّة المال أقلّ للحساب" رواه أحمد وصححه الألباني.

إن الموت بالنسبة للمؤمن هي حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السجن وضيقه، فإن من وراء عالم الدنيا فضاءً فسيحا وروحاً وريحاناً وراحة! ونسبة هذه الدار إليه كنسبة بطن الأم إلى هذه الدار أو أدنى من ذلك، عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» رواه مسلم.

ويكفي في طيب هذه الحياة مرافقة الرفيق الأعلى من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، ومفارقة الرفيق المؤذي النكد، الذي تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة فضلاً عن مخالطته وعشرته... والنفس لإلفها هذا السجن الضيق النكد زماناً طويلاً تكره الانتقال منه إلى ذلك العالم العلوي، وتستوحش إذا استشعرت مفارقة هذا السجن... والمؤمن يكشف له بعد الموت من سعة جلال الله، ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن الضيق، كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف، لا يبلغ طرفه أقصاه.

*والحياة والموت حادثان يقعان في كل لحظة، وليس إلا الله وحده يملك الحياة والموت ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80)﴾ [المؤمنون: 80].

فالبشر كلهم أعجز وأقل من بث الحياة في حشرة واحدة، وأعجز من سلبها عن حي من الأحياء، فالذي يملك ويهب الحياة هو الذي يعرف سرها، ويملك أن يهبها ويستردها.

*قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ (85)﴾ [الواقعة: 83-85].

نسمع صوت الحشرجة، ونبصر تقبض الملامح، ونحس الكرب والضيق، ونبصر نظرة العجز وذهول اليأس في ملامح الحاضرين.... هنا... الجسد هو الذي يراه الناظرون. ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئاً. هنا تقف قدرة البشر، ويقف علم البشر، وينتهي مجال البشر. هنا يعرفون – ولا يجادلون – أنهم عجزة عجزة. قاصرون قاصرون. هنا يسدل الستار دون الرؤية. ودون المعرفة. ودون الحركة. هنا تتفرد القدرة الإلهية، والعلم الإلهي. ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال "ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون"! فإذا مجلس الموت تجلله رهبة الحضور وجلاله. فوق ما فيه من عجز ورهبة وانقطاع ووداع. وفي ظل هذه المشاعر الراجفة الواجفة الآسية الآسفة يجيء التحدي الذي يقطع كل قول وينهي كل جدال: "فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين!" فلو كان الأمر كما تقولون: إنه لا حساب ولا جزاء. فأنتم إذن طلقاء غير مدينين ولا محاسبين. فدونكم إذن فلترجعوها – وقد بلغت الحلقوم – لتردوها عما هي ذاهبة إليه من حساب وجزاء. وأنتم حولها تنظرون. وهي ماضية إلى الدينونة الكبرى وأنتم ساكنون عاجزون! هنا تسقط كل تعلة. وتنقطع كل حجة. ويبطل كل محال. وينتهي كل جدال. ويثقل ضغط هذه الحقيقة على الكيان البشري، فلا يصمد له، إلا وهو يكابر بلا حجة ولا دليل!

* قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145)﴾ [آل عمران: 145].

إن الغمرات والمحن، وإن القتال والجهاد، وإن الشجاعة والإقدام، وإن وقوف المرء أمام تيار الصعاب والسيوف والرماح لا يغير حقيقة أن الموت كتاباً مقدراً لا يتقدم ولا يتأخر، فالموت ككل مسائل القدر الإنساني قد تم الفراغ منها، وقد تمت كتابتها في لوح سابق على الخلق ووجودهم، وهذه قضية لا يمكن لأحد أن يجادل فيها ككل مسائل القدر كالجبر والإختيار، والوجود والعدم، وما على المرء سوى التسليم لخبر الغيْب، لأن المرء لا يملك أي برهان يدفعها أو يقبلها، وهي إحدى محن الإنسان مع أخبار الرسل والأنبياء.

قال ابن كثير رحمه الله عن هذه الآية: " وهذه الآية فيها تشجيعٌ للجبناء وترغيبٌ لهم في القتال، فإنّ الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه كما قال ابن أبي حاتمٍ: -وساق سنده-قال: قال رجلٌ من المسلمين -وهو حجر بن عديّ-: ما يمنعكم أن تعبروا إلى هؤلاء العدوّ، هذه النّطفة؟ -يعني دجلة- "وما كان لنفسٍ أن تموت إلا بإذن الله كتابًا مؤجّلا" ثمّ أقحم فرسه دجلة فلمّا أقحم أقحم النّاس فلمّا رآهم العدوّ قالوا: ديوان، فهربوا" اهـ.

الموت حقيقة مرئية، وهو حقيقة قاهرة لما يرغبه الإنسان وهما الخلد والملك الدائم، وهما مدخل الشيطان مع أبينا آدم عليه السلام" هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى"طه.

ولكن هناك قضايا تتعلق بالموت لا يستطيع المرء أن يفسرها بنفسه، تماماً كقضية وجوده وخروجه لهذه الحياة، ومن هذه القضايا حقيقة الموت، وما هو؟ ومتى هو؟ وما بعده؟ أسئلة كثيرة يقف المرء العاقل المهتدي مسلّماً لخبر الغيْب الرحيم. هذه الآية جعلت الموت فعلاً قدرياً، فهو مخلوق من مخلوقات الله، ولا يقع إلا بإذن الله، وقد فرغ الأمر منه في كتاب

سابق، وحين نعيد للأذهان سياق هذه الآية مع الجهاد ومع موقعة أحد، حينها نعلم جاهلية الذين يجعلون الجهاد سبباً للموت أو الهلكة أو فقدان الأحبة، وهذه القاعدة القرآنية ستتوزع في آيات قادمة فيها التقريع للذين يعيبون على المجاهدين جهادهم لأنه أودى بهم إلى الموت والهلكة. إن ارتباط المفاهيم الجاهلية حول الموت مع ترك الجهاد في سبيل الله تعالى ارتباط أساسي في حياة الشعوب المسلمة، الحقيقة: أن الموت قدر آت لا يستطيع القاعد عنه الهروب، كما أن المجاهد لا يستطيع أن يقدمه ولو للحظة واحدة، حين يعي المسلم هذه القضية مع الموت، ومع ما هو أدنى منه كالسجن والبلاء، والجوع، والفقر، يدرك أن الجهاد منفذ للطاعة والعزة، وأن ما يأتي من أقدار على خلاف مقصد المجاهد هي مكتوبة ستقع عليه شاء أم أبى، حينها يقبل على تنفيذ أمر الله غير هياب ولا متوجس من سوء العاقبة في الدنيا.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (32)﴾ [فصلت: 30-32].

وهذا التنزُّل - كما قال طائفة من أئمة التفسير منهم مجاهد والسدي - إنما يكون حالة الاحتضار، ولا شك أن الإنسان في حالة الاحتضار يكون في موقف صعب، يخاف فيه من المستقبل الآتي، كما يخاف على من خلَّف بعده، فتأتي الملائكة لتؤمنه مما يخاف ويحزن وتُطَمئِنُ قلبه، وتقول له: لا تخف من المستقبل الآتي في البرزخ والآخرة، ولا تحزن على ما خلفت من أهل وولد أو دَيْنٍ، وتبشره بالبشرى العظيمة: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30)﴾ [فصلت: 30].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31)﴾ [فصلت: 31].

وما دام العبد قد تولى الله وحده، فإن الله يتولاه دائماً، وخاصة في المواقف الصعبة، ومن أشقها هذا الموقف، ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: 31].

* وقد أحسن القرطبي رحمه الله في وصف الموت حيث يقول: "اعلم أن الموت هو الخطب الأفظع والأمر الأشنع والكأس الذي طعمها أكره وأبشع، وأنه الأهذم للذات والأقطع للراحات والأجلب للكريهات، فإن أمراً يقطع أوصالك ويفرق أعضاءك ويهدم أركانك، لهو الأمر الفظيع والخطب الجسيم وإن يومه لهو اليوم العظيم"اهـ.

وقد يُحدِّث العقلاء في حال الاحتضار عما يعانونه من شدة الموت وسكراته، وممن حدَّث بهذا عمرو بن العاص ﷺ فعندما حضرته الوفاة، قال له ابنه: يا أبتاه! إنك لتقول: يا ليتني ألقى رجلاً عاقلاً لبيباً عند نزول الموت حتى يصف لي ما يجد! وأنت ذلك الرجل، فصف لي، فقال: "يا بني والله كأن جنبي في تخت (وِعَاءٌ تُصانُ فِيهِ الثيابُ) وكأني أتنفس من سمّ إبرة وكأن غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي، ثم أنشأ يقول:

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي   في تلال الجبال أرعى الوعولا

***الذي يخفف عنه سكرات الموت:**

أخبرنا الرسول ﷺ أن الشهيد الذي يسقط في المعركة تخفف عنه سكرات الموت، قال ابن النحاس رحمه الله: "وإن للموت لسكرات أيها المفتون، وإن هول المطلع شديد ولكن لا تشعرون، وإن للقبر عذابا لا ينجو منه إلا الصالحون وإن فيه لسؤال الملكين الفاتنين ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: 27] ثم بعد ذلك الخطر العظيم، إما سعيدا فإلى النعيم المقيم، وإما شقيا فإلى عذاب الجحيم، والشهيد أمن من جميع ذلك، لا يخشى شيئا من هذه المهالك، وقد قال رسول الله ﷺ: "لا يجد الشهيد من ألم القتل إلا كمس القرصة"" رواه الترمذي.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171)﴾ [آل عمران: 169-171].

عن مسروقٍ قال: سألنا عبد الله ﷺ عن هذه الآية: "ولا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءٌ عند ربّهم يرزقون" فقال: أما إنّا قد سألنا عن ذلك فقال: "أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ لها قناديل معلّقةٌ بالعرش، تسرح من الجنّة حيث شاءت، ثمّ تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربّهم اطّلاعةً فقال: هل تشتهون شيئًا؟ فقالوا: أيّ شيءٍ نشتهي ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرّاتٍ، فلمّا رأوا أنّهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا ربّ، نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتّى نقتل في سبيلك مرّةً أخرى، فلمّا رأى أن ليس لهم حاجةٌ تركوا" رواه مسلم.

لقد جاءت هذه الآيات جواباً لسؤال الشهداء وهم في الجنة لربهم أن يعودوا للدنيا حتى يقاتلوا مرة أخرى فيقتلوا في سبيل الله مرات، لما رأوا من أجر الشهادة ومتعتها، ولكن مضى قدر الله أن لا يعود من يذهب، ولا أقول من يموت، لأننا نهينا أن نقول عن القتلى في سبيل الله تعالى أمواتاً! هذا القتل في سبيل الله تعالى الذي يهرب منه الناس هو أمنية الشهداء وهم في الجنان! وهو سؤالهم لربهم! فعجباً لهذا الأمر الغريب، حيث تتقابل الأوهام أمام الحقائق، وتنهار التصورات الجاهلة حين تشرق عليها آيات القرآن الكريم.

هذه الآيات تصفع المستهزئين بالمجاهدين أنهم يحملون (ثقافة الموت والقتل) والحق أنهم هم من يحمل ثقافة (الجهل والخور وحب النخامة)! وأما المجاهدون فهم أهل القرآن، وهم يحملون حب جوار الرحمن واللحوق بالصحابة الأخيار، ويركضون إلى منزل أبيهم الأول آدم عليه السلام، فخذوا أنتم من جناح البعوضة ما تشتهون، وتنافسوها كما تحبون! فوالله لن نحسدكم على شيء منها، لا على ذهبها ولا على سلطانها وقصورها، وإن ما نسعى

إليه فقط أن نموت شهداء، وحينها ستكون البشرى بنعم الله تعالى وفضله. إن هؤلاء الشهداء لهم بشارتان دوماً؛ بشارتهم الأولى: حين يعلمون بأن أخاً لهم قادم على الطريق التي سلكوها من قبل، فيعرفون، ذلك لأنهم طلبوا من الله تعالى أن يبلغ إخوانهم من بعدهم بما أصابوا من النعيم والفضل ودخول الجنان، فأنزل الله هذه الآيات استجابة لطلبهم، فيتم الإعلام بذلك، فإن جاء الخبر أن أحدهم آت فرحوا بذلك فاستبشروا بأن أخاهم في مقام عدم الحزن ولا الخوف.

وأما البشارة الثانية: فهي نعم الله تعالى عليهم، وفضله العميم الذي يصيبهم غدوة وعشياً، وما هذا الذي يرونه إلا بسبب أعمالهم، فهي أجورهم التي يوفيها الله لهم ويزيدهم من فضله، وهذا لكل مؤمن سواء مات شهيداً أو محباً للشهادة أو مات على فراشه ذلك بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين... وهكذا تفترق الحالتين عند وقوع الشهداء؛ أهلهم في الدنيا يبكون، وإخوانهم في الجنان يفرحون، فبكاء أهلهم للفراق، وبكاء إخوانهم في الجنان للقاء، وبكاء إخوانهم حزناً عليهم، واستبشار إخوانهم فرحاً بهم، وأما هم فسيكونون سلفاً لمن يأتي بعدهم كما كان إخوانهم سلفاً لهم لتتصل حلقة الشهادة فلا تنقطع، ولتدوم رحلة الشهداء إلى الآخرة، وأما غيرهم فيموتون وهم كارهون للموت، خائفون من عذاب الله تعالى كما قال تعالى عنهم في سورة الشورى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: 22]. بهذه الآيات التي وصف الله موازين جديدة للقتل في سبيل الله تعالى، وأخبرت عن عالم علوي غيبي لا نراه ولا نشعر به ولا نعلمه. بهذه الآيات التي كشفت عن عرس سماوي بسبب القتل في سبيل الله، حيث تقام فيه أهازيج الاستبشار والفرح وتوزيع النعيم والفضل الرباني الواسع. نسأل الله العظيم من فضله.

المرحلة الخامسة: عالم البرزخ (القبر)

قال الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى في كتابه (أهوال القبور): "إن الله سبحانه وتعالى خلق بني آدم للبقاء لا للفناء، وإنما ينقلهم بعد خلقهم من دار إلى دار، كما قال ذلك طائفة من السلف الأخيار، منهم بلال بن سعد، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما، فأسكنهما في هذه الدار، ليبلوهم أيُّهم أحسن عملاً، ثم ينقلهم إلى دار البرزخ فيحبسهم هنالك إلى أن يجمعهم يوم القيامة ويجزي كل عاملٍ جزاء عمله مفصّلاً هذا مع أنهم في دار البرزخ بأعمالهم مدانون مكافئون، فمكرّمون بإحسانهم وبإساءتهم مهانون، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىَ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 100].

قال مجاهد رحمه الله: البرزخ الحاجز بين الموت والرجوع إلى الدنيا، وعنه قال: هو ما بين الموت إلى البعث" اهـ.

والقبر أول منازل الآخرة، ويبقى فيه الإنسان حتى يكتمل موت الخلائق، وتقوم الساعة، وهو على المؤمن روضة من رياض الجنة، وعلى الكافر حفرة من حفر النار، يبدأ فيه الجزاء، ثم ينتقل منه إلى دار الخلود.

قال النووي رحمه الله: "اعلم أنّ مذهب أهل السّنّة إثبات عذاب القبر، وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسّنّة، قال الله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)﴾.

وتظاهرت به الأحاديث الصّحيحة عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من رواية جماعة من الصّحابة في مواطن كثيرة، ولا يمتنع في العقل أن يعيد الله تعالى الحياة في جزء من الجسد ويعذّبه، وإذا لم يمنعه العقل وورد الشّرع به وجب قبوله واعتقاده، وقد ذكر مسلم هنا أحاديث كثيرة في إثبات عذاب القبر، وسماع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم صوت من يعذّب فيه، وسماع الموتى قرع نعال دافنيهم، وكلامه صلّى الله عليه وسلّم لأهل القليب، وقوله: "

ما أنتم بأسمع منهم " وسؤال الملكين الميّت، وإقعادهما إيّاه، وجوابه لهما، والفسح له في قبره، وعرض مقعده عليه بالغداة والعشيّ، وسبق معظم شرح هذا في كتاب الصّلاة، وكتاب الجنائز، والمقصود: أنّ مذهب أهل السّنّة إثبات عذاب القبر كما ذكرنا خلافًا للخوارج ومعظم المعتزلة وبعض المرجئة نفوا ذلك، ثمّ المعذّب عند أهل السّنّة الجسد بعينه أو بعضه بعد إعادة الرّوح إليه أو إلى جزء منه، وخالف فيه محمّد بن جرير وعبد الله بن كرام وطائفة فقالوا: لا يشترط إعادة الرّوح، قال أصحابنا: هذا فاسد؛ لأنّ الألم والإحساس إنّما يكون في الحيّ، قال أصحابنا: ولا يمنع من ذلك كون الميّت قد تفرّقت أجزاؤه كما نشاهد في العادة أو أكلته السّباع أو حيتان البحر أو نحو ذلك، فكما أنّ الله تعالى يعيده للحشر وهو سبحانه وتعالى قادر على ذلك، فكذا يعيد الحياة إلى جزء منه أو أجزاء، وإن أكلته السّباع والحيتان، فإن قيل: فنحن نشاهد الميّت على حاله في قبره، فكيف يسأل ويقعد ويضرب بمطارق من حديد ولا يظهر له أثر؟

فالجواب: أنّ ذلك غير ممتنع، بل له نظير في العادة وهو النّائم، فإنّه يجد لذّة وآلامًا لا نحسّ نحن شيئًا منها، وكذا يجد اليقظان لذّة وألما لما يسمعه أو يفكّر فيه ولا يشاهد ذلك جالسوه منه، وكذا كان جبرائيل يأتي النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فيخبره بالوحي الكريم ولا يدركه الحاضرون، وكلّ هذا ظاهر جليّ)اهـ.

ويقول ابن تيمية رحمه الله: "وإذا عرف أن النائم يكون نائماً وتقعد روحه وتقوم وتمشي، وتذهب وتتكلم وتفعل أفعالاً وأموراً بباطن بدنه مع روحه، ويحصل لبدنه وروحه بها نعيم وعذاب، مع أن جسده مضطجع، وعينيه مغمضة، وفمه مطبق، وأعضاؤه ساكنة، وقد يتحرك لقوة الحركة الداخلة، وقد يقوم ويمشي ويتكلم ويصيح، لقوة الأمر في باطنه، كان هذا مما يعتبر به أمر الميت في قبره، فإن روحه تقعد، وتجلس، وتسأل، وتنعم، وتعذب، وتصيح وذلك متصل ببدنه، مع كونه مضطجعاً في قبره، وقد يقوى ذلك حتى يظهر ذلك في بدنه" اهـ.

قال المناوي رحمه الله: "إن الميت ولو أعمى، يعرف من يحمله من محل موته إلى مغتسله، ومن يغسله، ومن يكفنه، ومن يدليه في قبره، ومن يلحده فيه وغير ذلك؛ لأن الموت ليس بعدم محض، والشعور باق حتى بعد تمام الدفن، حتى أنه يعرف زائرهُ، وإنما يغلِطُ أكثرُ الناس في هذا وأمثاله، حيث يعتقد أن الروح من جنس ما يُعْهَدُ من الأجسامِ الذي إذا شغلت مكاناً لا يمكن أن تكون بغيره، بل الروح لها اتصال بالبدن والقبر، وجرمها في السماء كشعاع الشمس ساقط بالأرض وأصله متصل بالشمس" اهـ.

عن أبي سعيدٍ الخدري ﷺ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إذا وضعت الجنازة واحتملها الرّجال على أعناقهم، فإن كانت صالحةً قالت قدّموني، وإن كانت غير صالحةٍ قالت: يا ويلها أين تذهبون بها، يسمع صوتها كلّ شيءٍ، إلا الانسان ولو سمعها الانسان لصعق" أخرجه البخاري.

وقال ابن القيم رحمه الله في كتابه (الروح): "جعل الله سبحانه الدور ثلاثاً، دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وجعل لكل دار أحكاماً تختص بها. فالأبدان هنا ظاهرة والأرواح خفية، والأبدان كالقبور لها.. والأرواح هناك ظاهرة والأبدان خفية في قبورها فتجري أحكام البرزخ على الأرواح فتسري إلى أبدانها نعيماً أو عذاباً كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان فتسري إلى أرواحها نعيماً أو عذاباً.. فأَحِطْ بهذا الموضع علماً واعرفه كما ينبغي يُزيل عنك كل إشكال يورَد عليك من داخل وخارج. وقد أرانا الله بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أنموذجاً في الدنيا من حال النائم، فإن ما يُنَعّم به أو يُعذّب في نومه يجري على روحه أصلاً والبدن تبع له، وقد يقوى حتى يؤثر في البدن تأثيراً مشاهداً، فيرى النائم في نومه أنه ضُرِب فيصبح وأثر الضرب في جسمه، ويرى أنه قد أكل أو شرب فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشراب في فيه، ويذهب عنه الجوع والظمأ. وأعجب من ذلك أنك ترى النائم يقوم في نومه ويضرب ويبطش ويُدافع كأنه يقظان وهو نائم لا شعور له بشيء من ذلك... فإذا كانت الروح تتألم وتتنعّم ويصل ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع. فهكذا في البرزخ، بل أعظم، فإن تجرّد الروح هنالك أكمل وأقوى. وهي متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه

كل الإنقطاع. فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً أصلا. ومتى أعطيت هذا الموضع حقة تبين لك ما أخبر به الرسول من عذاب القبر ونعيمه وضيقه وسعته وضمّه، وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة مطابق للعقل وأنه حق لا مِرْيَة فيه، وأن مَنْ أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه وقلة علمه أُتِيَ كما قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً   وآفته من الفهم السقيم

وأعجب من ذلك أنك تجد النائمين في فراش واحد وهذا روحه في النعيم ويستيقظ وأثر النعيم على بدنه. وهذا روحه في العذاب ويستيقظ وأثر العذاب على بدنه. وليس عند أحدهما خبر بما عند الآخر. كذلك فإن النار التي في القبر والخضرة ليست من نار الدنيا ولا من زروع الدنيا فيشاهده من شاهد نار الدنيا وخَضِرَها. وإنما هي من نار الآخرة وخَضِرِها. وهي أشد من نار الدنيا فلا يُحِسُّ به أهل الدنيا. فإن الله سبحانه يُحمي عليه ذلك التراب والحجارة التي عليه وتحته حتى يكون أعظم حراً من جمر الدنيا، ولو مسّها أهل الدنيا لم يحسّوا بذلك. بل أعجب من هذا أن الرجلين يُدفنان أحدهما إلى جنب الآخر وهذا في حفرة من حفر النار لا يصل حرها إلى جاره وذلك في روضة من رياض الجنة لا يصل رَوْحها ونعيمها إلى جاره. وقدرة الرب أوسع وأعجب من ذلك، وقد أرانا الله من آيات قدرته في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير، ولكن النفوس مولَعة بالتكذيب بما لم تحط به علماً إلا من وفقه الله وعَصَمه. فرؤية عذاب القبر ونعيمه كرؤية الملائكة والجن تقع أحياناً لمن شاء الله أن يريه ذلك، والله سبحانه وتعالى يُحدث في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك. فهذا جبريل كان ينزل على النبي ﷺ ويتمثل له رجلاً فيكلمه بكلام يسمعه، ومَنْ إلى جانب النبي ﷺ لا يراه ولا يسمعه، وكذلك غيره من الأنبياء. وأحياناً يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس ولا يسمعه غيره من الحاضرين. وهؤلاء الجن يتحدثون ويتكلمون بالأصوات المرتفعة بيننا ونحن لا نسمعهم، وقد كانت الملائكة تضرب الكفار

بالسِّياط وتضرب رقابهم وتصيح بهم، والمسلمون معهم لا يرونهم ولا يسمعون كلامهم، والله سبحانه قد حجب بني آدم عن كثير مما يُحدثه في الأرض وهو بينهم، وقد كان جبريل يُقرئ النبي ﷺ ويُدارسه القرآن والحاضرون لا يسمعونه. وكيف يستنكر من يعرف الله سبحانه ويُقِرّ بقدرته أن يُحدث حوادث يصرف عنها أبصار بعض خلقه حكمة منه ورحمة بهم لأنهم لا يطيقون رؤيتها وسماعها، والعبد أضعف بصراً وسمعاً من أن يَثْبت لمشاهدة عذاب القبر، وكثيراً ممن أشهده الله ذلك صَعِقَ وغُشي عليه ولم ينتفع بالعيش زمناً... وإذا كان أحدنا يمكنه توسعة القبر عشرة أذرع ومائة ذراع وأكثر طولاً وعرضاً وعمقاً ويستر توسيعه عن الناس ويُطلع عليه من يشاء، فكيف يعجز رب العالمين أن يوسعه ما يشاء على من يشاء ويستر ذلك عن أعين بني آدم؟! فيراه بنو آدم ضيقاً وهو أوسع شيء وأطيبه ريحاً وأعظمه إضاءة ونوراً وهم لا يرون ذلك. وسر المسألة: أن هذه السعة والضيق والإضاءة والخضرة والنار ليس من جنس المعهود في هذا العالَم، فلو كان الميت بين الناس موضوعاً لم يمتنع أن يأتيه الملكان ويسألانه من غير أن يشعر الحاضرون بذلك ويجيبهما من غير أن يسمعوا كلامه ويضربانه من غير أن يشاهد الحاضرون ضربه. وهذا الواحد منا ينام إلى جنب صاحبه فيُعذب في النوم ويُضرب ويألَم وليس عند المستيقظ خبر من ذلك البتة. وقد سرى أثر الضرب والألم إلى جسده" انتهى.

*عن البراء بن عازب ﷺ قال: "خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الانصار، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ (مستقبل القبلة)، وجلسنا حوله، وكأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عوده ينكت في الارض، (فجعل ينظر إلى السماء، وينظر إلى الارض، وجعل يرفع بصره ويخفضه، ثلاثا)، فقال: " استعيذوا بالله من عذاب القبر، مرتين، أو ثلاثا، (ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر) (ثلاثا)، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الاخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيئ ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه فيقول:

أيتها النفس الطيبة (وفي رواية: المطمئنة)، أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، (وفي رواية: حتى إذا خرجت روحه صلى الله عليه كل ملك بين السماء والارض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبلهم)، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، (فذلك قوله تعالى: (توفته رسلنا وهم لا يفرطون)، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الارض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون - يعني - بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان - بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها، إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ)، فيكتب كتابه في عليين، ثم يقال): أعيدوه إلى الأرض، فإني (وعدتهم أني) منها خلقتهم، وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: ف (يرد إلى الأرض، و) تعاد روحه في جسده، (قال: فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه) (مدبرين). فيأتيه ملكان (شديدا الانتهار) ف(ينتهرانه، و) يجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به، وصدقت، (فينتهره فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله عز وجل {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي مُحَمَّد ﷺ، فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه (وفي رواية: يمثل له) رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، (أبشر برضوان من الله، وجنات فيها نعيم

مقيم)، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: (وأنت فبشرك الله بالخير) من أنت فوجهك الوجه يجئ بالخير؟ فيقول: أنا عملك الصالح (فوالله ما علمتك إلا كنت سريعا في طاعة الله، بطيئا في معصية الله، فجزاك الله خيرا)، ثم يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقال: هذا منزلك لو عصيت الله، أبدل لك الله به هذا فإذا رأى ما في الجنة قال: رب عجل قيام الساعة، كيما أرجع إلى أهلي ومالي، (فيقال له: اسكن). قال: وإن العبد الكافر (وفي رواية: الفاجر) إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة (غلاظ شداد)، سود الوجوه، معهم المسوح (من النار)، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود (الكثير الشعب) من الصوف المبلول، (فتقطع معها العروق والعصب)، (فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء وتغلق أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم)، فيأخذها، فإذا أخذها، لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان - بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة، حتى يلج الجمل في سم الخياط) فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، (ثم يقال: أعيدوا عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى)، فتطرح روحه (من السماء) طرحا (حتى تقع في جسده) ثم قرأ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (31)﴾ [الحج: 31]، فتعاد روحه في جسده، (قال: فإنه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه)، ويأتيه ملكان (شديدا الانتهار، فينتهرانه، و) يجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ (فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقول له: ما دينك؟

فيقول: هاه هاه لا آدري)، فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم) فلا يهتدي لاسمه، فيقال: مُحَمَّد! فيقول) هاه هاه لا أدري (سمعت الناس يقولون ذاك! قال: فيقال: لا دريت)، (ولا تلوت)، فينادي مناد من السماء أن كذب، فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه (وفي رواية: ويمثل له) رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول (وأنت فبشرك الله بالشر) من أنت؟ فوجهك الوجه يجئ بالشر؟ فيقول: أنا عملك الخبيث؟ (فو الله ما علمت إلا كنت بطيئا عن طاعة الله، سريعا إلى معصية الله)، (فجزاك الله شرا، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة! لو ضرب بها جبل كان ترابا، فيضربه ضربة حتى يصير بها ترابا، ثم يعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أخرى، فيصيح صيحة يسمعه كل شئ إلا الثقلين، ثم يفتح له باب من النار، يمهد من فرش النار). فيقول: رب لا تقم الساعة "أخرجه أبو داود والحاكم والطيالسي وأحمد والسياق له. وفي حديث أنس ﷺ: "أن العبد المؤمن إذا أجاب الإجابة الصادقة في قبره يقال له: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به مقعداً من الجنة، قال النبي ﷺ: فيراهما جميعاً"، قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره " وذكر في حديث أنس: أن الكافر والمنافق بعد أن يجيب في قبره تلك الإجابة الكاذبة، يقال له: " لا دريت، ولا تليت، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين " أخرجه البخاري ومسلم.

ولمسلم: " إن العبد إذا وضع في قبره، ثم ذكر نحواً مما تقدم إلى قوله: وذكر لنا: أنه يفسح فيه سبعين ذراعاً، ويملأ عليه خضراً إلى يوم تبعثون" وفي رواية لأبي داود: أن العبد المؤمن بعد أن يسأل ويجيب: " ينطلق به إلى بيت كان له في النار، فيقول له: هذا كان لك، ولكن الله عصمك، فأبدلك به بيتاً في الجنة، فيراه، فيقول: دعوني حتى أذهب فأبشر أهلي، فيقال له: اسكن".

وفي سنن الترمذي عن أبي هريرة ﷺ قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إذا قبر الميّت"، أو قال: "أحدكم، أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المنكر، والآخر النّكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرّجل، فيقول: ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّدًا عبده ورسوله، فيقولان: قد كنّا نعلم أنّك تقول هذا، ثمّ يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين، ثمّ ينوّر له فيه، ثمّ يقال له نم فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم، فيقولان: نم كنومة العروس الّذي لا يوقظه إلا أحبّ أهله إليه، حتّى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقًا قال: سمعت النّاس يقولون، فقلت: مثله لا أدري، فيقولان: قد كنّا نعلم أنّك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف فيها أضلاعه فلا يزال فيها معذّبًا، حتّى يبعثه الله من مضجعه ذلك" قال الألباني رحمه الله: وإسناده حسن.

قال ابن حجر رحمه الله: "وفي رواية ابن حبّان: " يقال لهما منكر ونكير" زاد الطّبرانيّ في الأوسط من طريق أخرى عن أبي هريرة: " أعينهما مثل قدور النّحاس وأنيابهما مثل صياصي البقر وأصواتهما مثل الرّعد" ونحوه لعبد الرّزّاق من مرسل عمرو بن دينار وزاد: "يحفران بأنيابهما ويطآن في أشعارهما، معهما مرزبّة لو اجتمع عليها أهل منًى لم يقلّوها ""اهـ.

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "إن الميّت إذا وضع في قبره إنّه يسمع خفق نعالهم حين يولّون عنه فإن كان مؤمنًا كانت الصّلاة عند رأسه وكان الصّيام عن يمينه وكانت الزّكاة عن شماله وكان فعل الخيرات- من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى النّاس - عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصّلاة: ما قبلي مدخلٌ ثمّ يؤتى عن يمينه فيقول الصّيام: ما قبلي مدخلٌ ثمّ يؤتى عن يساره فتقول الزّكاة: ما قبلي مدخلٌ ثمّ يؤتى من قبل رجليه فتقول فعل الخيرات ـ من الصّدقة والصّلة والمعروف والإحسان إلى النّاس: ما قبلي مدخلٌ فيقال له: اجلس فيجلس وقد مثّلت له الشّمس وقد أدنيت للغروب فيقال له: أرأيتك هذا الرّجل الّذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهّد به عليه؟ فيقول: دعوني حتّى

أصلّي فيقولون: إنّك ستفعل أخبرني عمّا نسألك عنه أرأيتك هذا الرّجل الّذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهّد عليه؟ قال: فيقول: محمّدٌ أشهد أنّه رسول الله وأنّه جاء بالحقّ من عند الله فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك متّ وعلى ذلك تبعث إن شاء الله . ثمّ يفتح له بابٌ من أبواب الجنّة فيقال له: هذا مقعدك منها وما أعدّ الله لك فيها فيزداد غبطةً وسرورًا ثمّ يفتح له بابٌ من أبواب النّار فيقال له: هذا مقعدك منها وما أعدّ الله لك فيها لو عصيته فيزداد غبطةً وسرورًا ثمّ يفسح له في قبره سبعون ذراعًا وينوّر له فيه ويعاد الجسد لما بدأ منه فتجعل نسمته في النّسم الطّيّب وهي طيرٌ يعلق في شجر الجنّة قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27] إِلَى آخر الآية، قال: وإنّ الكافر إذا أتي من قبل رأسه لم يوجد شيءٌ ثمّ أتي عن يمينه فلا يوجد شيءٌ ثمّ أتي عن شماله فلا يوجد شيءٌ ثمّ أتي من قبل رجليه فلا يوجد شيءٌ فيقال له: اجلس فيجلس خائفًا مرعوبًا فيقال له: أرأيتك هذا الرّجل الّذي كان فيكم ماذا تقول فيه؟ وماذا تشهّد به عليه؟ فيقول: أيّ رجلٍ؟ فيقال: الّذي كان فيكم فلا يهتدي لاسمه حتّى يقال له: محمّدٌ فيقول: ما أدري سمعت النّاس قالوا قولًا فقلت كما قال النّاس، فيقال له: على ذلك حييت وعلى ذلك متّ وعلى ذلك تبعث إن شاء الله . ثمّ يفتح له بابٌ من أبواب النّار فيقال له: هذا مقعدك من النّار وما أعدّ الله لك فيها فيزداد حسرةً وثبورًا ثمّ يفتح له بابٌ من أبواب الجنّة فيقال له: ذلك مقعدك من الجنّة وما أعدّ الله لك فيه لو أطعته فيزداد حسرةً وثبورًا ثمّ يضيّق عليه قبره حتّى تختلف فيه أضلاعه فتلك المعيشة الضّنكة الّتي قال الله: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124)﴾ [طه: 124]". رواه ابن حبان وحسنه الألباني.

* قال رسول الله ﷺ: "إذا حضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون: اخرجي راضية مرضيا عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى إنه ليناوله بعضهم بعضا، حتى يأتون به باب السماء، فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض! فيأتون به أرواح المؤمنين، فلهم أشد فرحا به من أحدكم بغائبه

يقدم عليه، فيسألونه: ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه فإنه كان في غم الدنيا، فإذا قال: أما أتاكم؟ قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية، وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح، فيقولون: اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله عز وجل، فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتون بهباب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح! حتى يأتون به أرواح الكفار " أخرجه النسائي وصححه الألباني.

*قال الإمام الذهبي رحمه الله في (سير أعلام النبلاء): "روى أحمد من حديث عائشة ﵂ عن النبي ﷺ قال: "إن للقبر ضغطة، ولو كان أحد ناجيا منها نجا سعد ابن معاذ" قال الذهبي رحمه الله: إسناده قوي. وقال: هذه الضمة ليست من عذاب القبر في شيء، بل هو أمر يجده المؤمن كما يجد ألم فقد ولده وحميمه في الدنيا، وكما يجد من ألم مرضه وألم سؤاله في قبره وامتحانه وألم تأثره ببكاء أهله عليه وألم قيامه من قبره وألم الموقف وهوله وألم وروده على النار ونحو ذلك. فهذه الأراجيف كلها قد تنال العبد وما هي من عذاب القبر ولا من عذاب جهنم قط، ولكن العبد التقي يرفق الله به في بعض ذلك أو كله، ولا راحة للمؤمن دون لقاء ربه. قال تعالى: (وأنذرهم يوم الحسرة)، وقال: (وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر). فنسأل الله تعالى العفو واللطف الخفي، ومع هذه الهزات فسعد ممن نعلم أنه من أهل الجنة، وأنه من أرفع الشهداء - ﵁ -كأنك يا هذا تظن أن الفائز لا يناله هول في الدارين ولا روع ولا ألم ولا خوف. سل ربك العافية وأن يحشرنا في زمرة سعد" اهـ.

***بعض من يعذبون في قبورهم:** عن سمرة بن جندبٍ ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه "وفي روايةٍ: كان إذا صلى صلاةً أقبل علينا بوجهه، فقال: "هل رأى أحدٌ منكم [الليلة] من رؤيا؟ " قال: فيقص عليه من شاء الله أن يقص، (وفي روايةٍ: فإن رأى أحد قصها، فيقول ما شاء الله، فسألنا يوماً، فقال: "هل رأى أحد منكم رؤيا؟ ". قلنا: لا)، وإنه قال لنا ذات غداةٍ: "إنه أتاني الليلة آتيان (وفي روايةٍ: قال: لكني رأيت الليلة رجلين أتياني) وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق [فأخذا بيدي]، وإني انطلقت

معهما [فأخرجاني إلى الأرض المقدسة]، وإنا أتينا على رجلٍ مضطجع، وإذا آخر قائمٌ عليه بصخرةٍ، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ (أي: يشدخ، والشدخ: كسر الشيء الأجوف). (وفي روايةٍ: فيشدخ به)، رأسه، فيتهدهد (أي: فيتدحرج). الحجر هاهنا، فيتبع الحجر، فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل المرة الأولى. قال: قلت لهما: سبحان الله! ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق انطلق. فانطلقنا، فأتينا على رجلٍ مستلقٍ لقفاه، وإذا آخر قائمٌ عليه بـ[يده] كلوبٌ (أي حديدة معوجة الرأس) من حديدٍ، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه، فيشرشر (أي: يقطعه، و(الشدق) جانب الفم) شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه. وعينه إلى قفاه -قال: وربما قال أبو رجاءٍ: فيشق- قال: ثم يتحول إلى الجانب الآخر، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح (وفي روايةٍ: يلتئم) ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى. قال: قلت: سبحان الله! ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق. فانطلقنا، فأتينا على [ثقبٍ] مثل التنور [أعلاه ضيقٌ، وأسفله واسع، يتوقد تحته ناراً]، قال: فأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لغط وأصوات، قال: فاطلعنا فيه، فإذا فيه رجال ونساءٌ عراةٌ، وإذا هم يأتيهم لهبٌ من أسفل منهم، [فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها]، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا (أي: صاحوا). قال: قلت لهما: ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق.

فانطلقنا، فأتينا على نهرٍ -حسبت أنه كان يقول- أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجلٌ سابحٌ يسبح وإذا على شط النهر رجلٌ [قائم]، قد جمع عنده حجارةً كثيرةً، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة، فيفغر له (أي: فيفتح له فمه) فاه، فيلقمه حجراً، فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه، كلما رجع إليه فغر له فاه، فألقمه حجراً. قال: قلت لهما: ما هذان؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق. فانطلقنا، فأتينا على رجلٍ كريه المرآة، كأكره ما أنت راءٍ رجلاً مرآةً، وإذا عنده نارٌ يحشها ويسعى حولها. قال: قلت لهما: ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق. فانطلقنا، فأتينا على روضةٍ معتمةٍ (أي:

كثيرة النبات طويلته) [خضراء فيها شجرةٌ] فيها من كل نور الربيع، وإذا بين ظهري الروضة رجلٌ طويلٌ، لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدانٍ رأيتهم قط. قال: قلت لهما: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق. فانطلقنا، فانتهينا إلى روضةٍ عظيمةٍ، لم أر روضةً قط أعظم منها، ولا أحسن، [فيها رجالٌ شيوخٌ، وشبابٌ، ونساءٌ، وصبيانٌ]، قال: قالا لي: ارق فيها. قال: فارتقينا فيها، فانتهينا إلى مدينةٍ مبنية بلبن ذهبٍ ولبن فضةٍ، فأتينا باب المدينة. فاستفتحنا، ففتح لنا، فدخلناها (وفي روايةٍ: فأدخلاني داراً هي أحسن وأفضل، فيها شيوخٌ وشبابٌ)، فتلقانا فيها رجالٌ شطرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ، وشطرٌ كأقبح ما أنت راءٍ، قال: قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر، قال: وإذا نهرٌ معترضٌ يجري كأن ماءه المحض في البياض، فذهبوا فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم، فصاروا في أحسن صورةٍ. قال: قالا لي: هذه جنة عدنٍ، وهذاك منزلك، [فارفع رأسك]، قال: [فرفعت رأسي]، فسما بصري صعداً، فإذا قصرٌ مثل الربابة البيضاء، قال: قالا لي: هذاك منزلك، قال: قلت لهما: بارك الله فيكما، ذراني فأدخله، قالا: أما الآن فلا، وأنت داخله (وفي روايةٍ: قالا: إنه بقي لك عمرٌ لم تستكمله، فلو استكملت أتيت منزلك). قال: قلت لهما: فإني قد رأيت منذ الليلة عجباً، فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالا لي: أما إنا سنخبرك: أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ (وفي الرواية الأخرى: يشدخ) رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة. (وفي الرواية الأخرى: فرجلٌ علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يفعل به إلى يوم القيامة). وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة [فتحمل عنه حتى] تبلغ الآفاق، [فيصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة]. وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني. وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر، ويلقم الحجر، فإنه آكل الربا. وأما الرجل الكريه المرآة، الذي عند النار يحشها، ويسعى حولها، فإنه مالكٌ خازن جهنم. وأما الرجل الطويل الذي في الروضة، فإنه إبراهيم ﷺ. وأما

الولدان الذين حوله، فكل مولودٍ مات على الفطرة". قال: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله! وأولاد المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: "وأولاد المشركين". "وأما القوم الذين كانوا شطرٌ منهم حسناً، وشطرٌ منهم قبيحاً، فإنهم قومٌ خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئاً؛ تجاوز الله عنهم. [والدار الأولى التي دخلت؛ دار عامة المؤمنين، وأما هذه الدار فدار الشهداء، وأنا جبريل. وهذا ميكائيل]"رواه البخاري. قال في (فتح الباري): (قوله (وينام عن الصلاة المكتوبة): هذا أوضح من رواية جرير بن حازم بلفظ " علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار " فإن ظاهره أنه يعذب على ترك قراءة القرآن بالليل، بخلاف رواية عوف فإنه على تركه الصلاة المكتوبة، ويحتمل أن يكون التعذيب على مجموع الأمرين ترك القراءة وترك العمل. قوله (فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق).... قال ابن هبيرة: لما كان الكاذب يساعد أنفه وعينه لسانه على الكذب بترويج باطله وقعت المشاركة بينهم في العقوبة. قوله (فهم الزناة)مناسبة العري لهم لاستحقاقهم أن يفضحوا لأن عادتهم أن يستتروا في الخلوة فعوقبوا بالهتك، والحكمة في إتيان العذاب من تحتهم كون جنايتهم من أعضائهم السفلى. قوله: (فإنه آكل الربا) قال ابن هبيرة: إنما عوقب آكل الربا بسباحته في النهر الأحمر وإلقامه الحجارة لأن أصل الربا يجري في الذهب والذهب أحمر، وأما إلقام الملك له الحجر فإنه إشارة إلى أنه لا يغني عنه شيئًا وكذلك الربا فإن صاحبه يتخيل أن ماله يزداد والله من ورائه محقه" اهـ. رواه البخاري رحمه الله في صحيحه في عدة أبواب، منها: باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح. باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم. باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل. باب ما قيل في أولاد المشركين. باب آكل الربا وشاهده وكاتبه. باب درجات المجاهدين في سبيل الله. باب قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119)﴾ [التوبة: 119] وما ينهى عن الكذب.

*__بعض من ينعمون في البرزخ:__ قال رسول الله ﷺ: "إنما نسمة المسلم طير يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده إلى يوم القيامة" قال ابن كثير رحمه الله: "إسناده صحيح

عزيز عظيم اجتمع في ثلاثة من الأئمة الأربعة فإن الإمام أحمد رواه عن الإمام الشافعي وعن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك عن أبيه مرفوعا" اهـ.

قوله: "إنما نسمة المسلم طير" أي أن روحه كطير، "يعلق" أي يأكل. والفرق بين أرواح المؤمنين وأرواح الشهداء، أن الشهداء في حواصل طير خضر تسرح متنقلة في رياض الجنة، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، أما أرواح المؤمنين فإنها في أجواف طير يعلق في ثمر الجنة ولا ينتقل في أرجائها، وقال ابن كثير في " تفسيره " (1/ 427): "وفي هذا الحديث أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة، وأما أرواح الشهداء فكما تقدم " في حواصل طير خضر" فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فإنها تطير بأنفسها".

***حياة خاصة للشهيد في البرزخ:** قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170)﴾ [آل عمران: 169-170]. وقد جاء بيان ذلك في حديث ابن مسعود ﷺ عندما سأله مسروق عن معنى الآية الأولى فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فأطّلع عليهم ربهم اطلاّعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلمّا رأى أن ليس لهم حاجة تركوا" رواه مسلم.

فالشهداء أرواحهم حية عند الله حياة برزخية، مودوعة في أجواف طير خضر تتنعم بنعم الله، وترتزق برزق الله، تسرح من الجنة حيث شاءت، تأكل من ثمارها وتلتذ بنعيمها، وهي مغتطبة فرحة بما نالت من أجر وحظيت من كرامة، بل تتمنىّ أن تعود إلى الدنيا لتقتل في سبيل الله مرة أخرى لما رأت من فضل الشهادة وعظيم ثوابها.... ولقد بين النبي صلى الله

عليه وسلم أن من قتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه أمن من فتنة القبر وسلم منها، فلما سئل رسول الله وقيل له يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة" رواه النسائي وصححه الألباني.

وقال رسول الله ﷺ: "للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوّج باثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه" رواه الترمذي وصححه الألباني.

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان"، رواه مسلم.

وعن سهل بن سعدٍ السّاعديّ رضى الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: " رباط يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدّنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنّة خيرٌ من الدّنيا وما عليها، والرّوحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خيرٌ من الدّنيا وما عليها" رواه البخاري.

فالمرابط في سبيل الله يأمن من فتنة القبر ومن فتاني القبر فيسلم منهما بثبات وصبر، فيضاعف له الأجر، ولا ينقطع مدة الحياة وأبد الدهر إلى يوم القيامة والحشر. ولا شك بأن من وقف للقتال ورأى السيوف تلمع وتقطع والأسنة تبرق وتخرق، والسهام ترشق وتمرق، والرؤوس تندر، والدماء تثعب، والأعضاء تتطاير، وجاد بنفسه لله تعالى إيمانا به وتصديقا بوعده ووعيده كما وصف الله المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (22)﴾ [الأحزاب: 22] فيكفيه هذا امتحانا لإيمانه واختبارا له وفتنة إذ لو كان عنده شك أو ارتياب لولى الدبر، وذهل عما هو واجب عليه من الثبات، وداخله الشك والارتياب كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ

وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (12)﴾ [الأحزاب: 12]. فيكفي الشهيد هذا امتحانا من سؤال الفتان والله أعلم.

*كرامة زوجة شهيد: قال الإمام الذهبي رحمه الله في (تاريخ الإسلام): "قال الحاكم: سمعت أبا زكريا العنبري يقول: سمعت أبا العباس، فذكر قصة المرأة التي لا تأكل ولا تشرب، وأنها عاشت كذلك نيفاً وعشرين سنة. فقال: إن الله مظهر ما شاء من آياته، فيزيد الإسلام بها عزاً وقوة، وإن مما أدركنا عياناً، وشاهدناه في زماننا أن وردت (عان) مدينة من مدائن خوارزم، بينها وبين المدينة العظمى نصف يوم، فأخبرت أن بها امرأة من نساء الشهداء رأت رؤيا كأنها أطعمت في منامها شيئاً، فهي لا تأكل ولا تشرب منذ عهد عبد الله بن طاهر؛ ثم مررت بها سنة اثنتين وأربعين، فرأيتها وحدثتني بحديثها، ثم رأيتها بعد عشر سنين مشيتها قوية، وإذا هي امرأة نصف، جيدة القامة، حسنة البنية، متوردة الخدين، فسايرتني وأنا راكب. فعرضت عليها مركباً، فأبت وبقيت تمشي معي. وحضر مجلس مُحَمَّد بن حمدويه الحارثي، وهو فقيه قد كتب عنه موسى بن هارون، وكهل له عبارة وبيان يسمى عبد الله بن عبد الرحمن، وكان قد تخلف أصحاب في ناحيته، فسألتهم عنها، فأحسنوا القول فيها، وأثنوا عليها، وقالوا: أمرها ظاهر، ليس فينا من يختلف فيه. قال عبد الله: أنا أسمع أمرها من أيام الحداثة، وقد فرغت بالي لها، فلم أر إلا ستراً وعفافاً. ولم أعثر على كذب في دعواها. وذكر أن من كان يلي خوارزم كانوا يحضرونها الشهر والشهرين في بيت، ويغلقون عليها. قال: فلما تواطأ أهل الناحية على تصديقها سألتها، فقالت: اسمي رحمة بنت إبراهيم، كان لي زوج نجار يأتيه رزقه يوماً فيوماً. وأنها ولدت عدة أولاد. وجاء الأقطع ملك الترك الغزية، فعبر الوادي عند جموده إلينا في زهاء ثلاثة آلاف فارس.

قال الطهماني: والأقطع هذا كان كافراً عاتياً، شديد العداوة للمسلمين، قد أثر على أهل الثغور، وألح عن أهل خوارزم، وكان ولاة خوارزم يتألفونه، ويبعثون إليه بمالٍ وألطاف، وأنه أقبل مرة في خيوله فعاث وأفسد وقتل... قالت المرأة: فعبر الكافر، وصار إلى باب الحصين، فأراد الناس الخروج لقتاله، فمنعهم العامل دون أن يتوافى العسكر. فشد طائفة

من شبان الناس، فتقاربوا من السور، وحملوا على الكفرة، فتهازموا، واستجروهم بين البيوت، ثم كروا عليهم، وصار المسلمون في مثل الحرجة فحاربوا أشد حرب، وثبتوا حتى تقطعت الأوتار، وأدركهم اللغوب والجوع والعطش، وقتل عامتهم، وأثخن من بقي. فلما جن عليهم الليل، تحاجز الفريقان.

قالت: ورفعت النيران من المناظر ساعة عبور الكافر، فاتصلت بجرجانية خوارزم، وكان بها ميكال مولى طاهر في عسكر، فخف وركض إلى حصننا في يوم وليلة أربعين فرسخاً، وغدا الترك للفراغ من أمر أولئك، فبينا هم كذلك إذا ارتفعت بهم الأعلام السود، وسمعوا الطبول، فأفرجوا عن القوم، ووافى ميكال موضع المعركة، فارتث القتلى، وحمل الجرحى، ودخل الحصن عشيتئذ زهاء أربعمائة جنازة، وارتجت الناحية بالبكاء والنوح، ووضع زوجي بين يدي قتيلاً، فأدركني من الجزع والهلع عليه ما يدرك المرأة الشابة المسكينة، على زوج أبي أولاد، وكاسب عيال. فاجتمع الناس من قراباتي والجيران، وجاء الصبيان، وهم أطفال يطلبون الخبز، وليس عندي ما أعطيهم، فضقت صدراً، فنمت، فرأيت كأني في أرض حسناء ذات حجارة وشوك، أهيم فيها والهة حزناً أطلب زوجي، فناداني رجل: خذي ذات اليمين. فأخذت، فرفعت لي أرض سهلة الثرى، طيبة العشب، وإذا قصور وأبنية لا أحسن أن أصفها، وأنهار تجري من غير أخاديد، فانتهيت إلى قوم جلوس حلقاً، عليهم ثياب خضر، قد علاهم النور، فإذا هم الذين قتلوا، يأكلون على موائد. فجعلت أبغي زوجي، فناداني: يا رحمة، يا رحمة. فيممت الصوت، فإذا به في مثل حال الشهداء، ووجهه مثل القمر ليلة البدر، وهو يأكل مع رفقة. فقال لهم: إن هذه البائسة جائعة منذ اليوم، أفتأذنون أن أناولها؟ فأذنوا له، فناولني كسرةً أبيض من الثلج، وأحلى من العسل، وألين من الزبد، فأكلتها. فلما استقرت في جوفي قال: اذهبي. فقد كفاك الله مؤونة الطعام والشراب ما حييت.

فانتبهت وأنا من شبعى رياً، لا أحتاج إلى طعام ولا إلى شراب، فما ذقتهما إلى الآن.

قال الطهماني: وكانت تحضرنا، وكنا نأكل، فتتنحى، وتأخذ على أنفها، تزعم أنها تتأذى برائحة الطعام، فسألتها: هل يخرج منك ريح؟ قالت: لا. قلت: والحيض؟ أظنها قالت: انقطع. قلت: فهل تحتاجين حاجة النساء إلى الرجال؟ قالت: أما تستحي مني، تسألني عن مثل هذا؟ قلت: لعلي أحدث الناس عنك. قالت: لا أحتاج.

قلت: فتنامين؟ قالت: نعم.

قلت: فما ترين في منامك؟ قالت: مثل الناس.

قلت: فتجدين لفقد الطعام وهناً في نفسك؟ قالت: ما أحسست بالجوع منذ طعمت ذلك الطعام.

وكانت تقبل الصدقة، فقلت: ما تصنعين بها؟ قالت: أكتسي وأكسي ولدي.

قلت: فهل تجدين البرد؟ قالت: نعم.

قلت: فهل يدركك اللغوب والإعياء إذا مشيت؟ قالت: نعم، ألست من البشر؟ قلت: فتتوضئين للصلوات؟ قالت: نعم. قلت: ولم؟ قالت: تأمرني بذلك الفقهاء، معتق للنوم.

وذكر أن بطنها لاصق بظهرها، فأمرت امرأة من نسائنا، فنظرت، فإذا بطنها كما وصفت، وإذا قد اتخذت كيساً وشدته على بطنها كي لا ينقصف ظهرها إذا مشت.

قال: ثم لم أزل اختلف إلى (هزارسف)، يعني تلميذتها، فأعيد مسألتها، وهي تتكلم بلغة أهل خوارزم، فلا تزيد في الحديث، ولا تنقص منه. فعرضت كلامها كله على عبد الله بن عبد الرحمن الفقيه، قال: أنا أسمع هذا الحديث منذ نشأت، فلا أرى من يدفعه. وأجريت ذكرها لأبي العباس أحمد بن مُحَمَّد بن طلحة بن طاهر والي خوارزم في سنة ست وستين، فقال: هذا غير كائن. قلت: فالأمر سهل، والمسافة قريبة. فأمر بها، فتحمل إليك، وتمتحنها بنفسك. فأمرني، فكتبت عنه إلى العامل، فأشخصها على رفق. فأخبرني أبو العباس أحمد أنه وكل أمه دون الناس بمراعاتها، وسألها أن تستقصي عليها، وتتفقدها في

ساعات الغفلات. وأنها بقيت عند أمه نحواً من شهرين، في بيت لا تخرج منه، فلم يروها تأكل ولا تشرب. وكثر من ذلك تعجبه، وقال: لا ينكر الله قدره. وبرها وصرفها، فلم يأت عليها إلا القليل حتى ماتت، رحمها الله. قلت: حدثني غير واحد أثق به، أن امرأة كانت بالأندلس مثل هذه كانت في حدود السبعمائة، بقيت نحواً من عشرين سنة لا تأكل شيئاً، وأمرها مشهور".

المرحلة السادسة: مرحلة البعث والنشور

قد بين الحق تبارك وتعالى في أكثر من موضع أن من تمام ألوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال.. ولذا فإنه يميت ويُحيي، ويخلق ويفني، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (96)﴾ [الأنعام: 95-96].

من الحبة الجامدة الصماء يُخرج الله نبتة غضة خضراء تزهر وتثمر، ثم تعطي هذه النبتة الحية حبوباً جامدة ميتة، ومن الطيور الحية يخرج البيض الميت ومن البيض الميت تخرج الطيور المتحركة المغردة التي تنطلق في أجواز الفضاء.... إن تقلب العباد: موت فحياة ثم حياة فموت، دليل عظم على قدرة الله تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه، قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28)﴾ [البقرة: 28].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (81) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)﴾ [يس: 78-83].

والذي ضرب المثل أحد كفرة العرب، قال مجاهدٌ وعكرمة، وعروة بن الزّبير والسّدّي وقتادة رحمهم الله: "جاء أبي بن خلفٍ لعنه الله إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفي يده عظمٌ

رمـيمٌ وهـو يفتّتـه ويذريـه في الهـواء، وهـو يقـول: يا محمّـد، أتـزعم أنّ الله يبعـث هـذا؟ فقـال: "نعم، يميتك الله تعالى ثمّ يبعثك، ثمّ يحشرك إلى النّار"".

فـأنزل الحـق تبـارك وتعـالى هـذه الآيات معـيّراً هـذا الكـافر بجهلـه وضـلاله ﴿وَضَـرَبَ لَنَـا مَـثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78)﴾ [يس: 78].

فإنـه لـو كـان لبيبـاً عـاقلاً لم يسـأل هـذا السـؤال؛ لأن وجـوده وخلقـه في هـذه الحيـاة يجيـب علـى السـؤال، وقـد وضـح الله جـل وعـلا هـذا المعـنى الـذي أجملـه في البدايـة فقـال: ﴿قُـلْ يُحْيِيهَـا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)﴾ [يس: 79].

فـاحتج بالإبـداء علـى الإعـادة، وبالنشـأة الأولى علـى النشـأة الأخـرى، إذ كـل عاقـل يعلـم ضـرورة أن مـن قـدر علـى هـذه قـدر علـى هـذه وأنـه لـو كـان عـاجزاً عـن الثانيـة لكـان عـن الأولى أعجـز وأعجـز. وهـل تزيـد النطفـة حيويـة أو قـدرة أو قيمـة علـى العظـم الـرميم المفتـوت؟ أو لـيس مـن تلـك النطفـة كـان الإنسـان؟ أو ليسـت هـذه هـي النشـأة الأولى؟ أو لـيس الـذي حـول تلـك النطفـة إنسـانا، وجعلـه خصـيما مبينـا بقـادر علـى أن يحـول العظـم الـرميم مخلوقـا حيـا جديـدا؟! إن الأمـر أيسـر وأظهـر مـن أن يـدور حولـه سـؤال. فمـا بال الجـدل الطويـل؟! "قُـلْ: يُحْيِيهَـا الَّـذِي أَنْشَـأَها أَوَّلَ مَـرَّةٍ" يحييهـا لأنـه أنشـأها أول مـرة فهـو قـادر علـى إنشـائها ثاني مـرة كما أنشأها أول مرة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62)﴾ [الواقعة: 62].

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27].

ولمـا كـان الخلـق يسـتلزم قـدرة الخـالق علـى المخلـوق، وعلمـه بتفاصـيل خلقـه أتبـع ذلـك بقولـه: " وهـو بكـل خلـقٍ علـيم " فهـو علـيم بتفاصـيل الخلـق الأول وجزئياتـه ومـواده وصـورته، فكـذلك الثاني، فإذا كان تام العلم كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحي العظم وهي رميم؟!

ثمَّ أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر، يتضمن جواباً عن سؤال كافر آخر يقول: العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب معاً، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80)﴾ [يس: 80] فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة.. فهذا الشجر الأخضر الريان بالماء، يحتك بعضه ببعض فيولد نارا ثم يصير هو وقود النار. بعد الاخضرار.. ففيه إيجاد الضد وهو نهاية الحرارة من ضده وهو الرطوبة. وهذا هو وجه وصف الشجر بالأخضر إذ ليس المراد من الأخضر اللون وإنما المراد لازمه وهو الرطوبة لأن الشجر أخضر اللون ما دام حيا فإذا جف وزالت منه الحياة استحال لونه إلى الغبرة فصارت الخضرة كناية عن رطوبة النبت وحياته. فالذي يخرج الشيء من ضده، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا يستعصي عليه، هو الذي يفعل ما أنكره هذا الكافر ودفعه، من إحياء العظام وهي رميم.

ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدرُ وأقدرُ، فمن قدر على حمل قنطار فهو على حمل وقية أشدُّ اقتداراً، فقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [يس: 81] فأخبر أن الذي أبدع السماوات والأرض على جلالتهما، وعظم شأنهما وكبر أجسامها وسعتهما وعجيب خلقهما أقدر عليه أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى.

ثم أكد تبارك وتعالى ذلك وبيَّنه ببيان آخر، وهو أن فعله ليس بمنزلة غيره، الذي يفعل بالآلات والكلفة والنصب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لا بدَّ معه من آلة ومُعِين، بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكوِّنه نفس إرادته، وقوله للمكوَّن: (كُنْ)، فإذا هو كائن كما شاءه وأراده ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (82)﴾

[يس: 82] ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيتصرف فيه بفعله ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)﴾ [يس: 83].

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (62) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (66) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (67) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (70) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (71) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (72) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (73) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (74)﴾ [الواقعة: 57-74].

قال ابن عاشور رحمه الله: "فهذا تذكيرٌ لهم بما ذهلوا عنه بأنّ الله هو خلقهم أول مرّة وهو الّذي يعيد خلقهم ثاني مرّة، فإنّهم وإن كانوا يعلمون أن الله خلقهم لما لم يجروا على موجب ذلك العلم بإحالتهم إعادة الخلق نزّلوا منزلة من يشكّ في أنّ الله خلقهم.. أي خلقناكم الخلق الّذي لم تروه ولكنّكم توقنون بأنّا خلقناكم فتدبّروا في خلق النّسل لتعلموا أنّ إعادة الخلق تشبه ابتداء الخلق. وذكرت كائناتٌ خمسةٌ مختلفة الأحوال متّحدة المآل إذ في كلّها تكوينٌ لموجودٍ ممّا كان عدمًا... ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (59)﴾ [الواقعة: 58-59] وكان حقّهم أن يقيسوا على تخلّق الجنين من مبدأ ماء النّطفة فيقولوا: لا تتخلق من النّطفة الميتة أجسام حيّة كما قالوا: لا تصير العظام البالية ذواتًا حيّةً، وإلّا فإنّهم لم يدّعوا قطّ أنّهم خالقون، فكان قوله: أأنتم تخلقونه؟ تمهيدًا للاستدلال على أنّ الله هو خالق الأجنّة بقدرته، وأنّ تلك القدرة لا تقصر عن الخلق الثّاني عند البعث. "نحن قدّرنا بينكم الموت" استدلالٌ بإماتة الأحياء على أنّها مقدورةٌ لله

تعالى ضرورة أنّهم موقنون بها ومشاهدونها ووادّون دفعها أو تأخيرها، فإنّ الّذي قدر على خلق الموت بعد الحياة قادرٌ على الإحياء بعد الموت إذ القدرة على حصول شيءٍ تقتضي القدرة على ضدّه فوضح دليل إمكان البعث، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وهو الّذي أحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم إنّ الإنسان لكفورٌ﴾ [الحج: 66]. ووجه التّعبير بـ"قدّرنا بينكم الموت" دون: نحن نميتكم، وهو أنّ الموت يأتي على آحادهم تداولًا وتناوبًا، فلا يفلت واحدٌ منهم ولا يتعيّن لحلوله صنفٌ ولا عمرٌ فآذن ظرف (بين) بأنّ الموت كالشّيء الموضوع للتّوزيع لا يدري أحد متى يصيبه قسطه منه، فالنّاس كمن دعوا إلى قسمة مالٍ أو ثمرٍ أو نعمٍ لا يدري أحدٌ متى ينادى عليه ليأخذ قسمه، أو متى يطير إليه قطّه ولكنّه يوقن بأنّه نائله لا محالة. وبهذا كان في قوله: بينكم الموت استعارةٌ مكنيّةٌ إذ شبّه الموت بمقسومٍ ورمز إلى المشبّه به بكلمة بينكم الشّائع استعمالها في القسمة، قال تعالى: ﴿أنّ الماء قسمةٌ بينهم﴾ [القمر: 28]. وفي هذه الاستعارة كنايةٌ عن كون الموت فائدةً ومصلحةً للنّاس أمّا في الدّنيا لئلّا تضيق بهم الأرض والأرزاق وأمّا في الآخرة فللجزاء الوفاق." ولقد علمتم النّشأة الأولى فلولا تذكّرون "ولما كان علمهم بالنّشأة الأولى كافيًا لهم في إبطال إحالتهم النّشأة الثّانية رتّب عليه من التّوبيخ ما لم يرتّب مثله على قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (60) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (61)﴾ [الواقعة: 60-61] فقال: فلولا تذكّرون، أي هلّا تذكّرتم بذلك فأمسكتم عن الجحد، وهذا تجهيلٌ لهم في تركهم قياس الأشباه على أشباهها، ومثله قوله آنفًا: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (57)﴾ [الواقعة: 57]. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64)﴾ [الواقعة: 63-64] انتقالٌ إلى دليلٍ آخر على إمكان البعث وصلاحية قدرة الله له بضربٍ آخر من ضروب الإنشاء بعد العدم. ومناسبة الانتقال من الاستدلال بخلق النّسل إلى الاستدلال بنبات الزّرع هي التّشابه البيّن بين تكوين الإنسان وتكوين النّبات، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17)﴾ [نوح: 17]. والقول في أفرأيتم ما تحرثون نظير قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (58)﴾ [الواقعة: 58]. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ

(68) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (69)﴾ [الواقعة: 68-69] ووجه الاستدلال إنشاء ما به الحياة بعد أن كان معدومًا بأن كوّنه الله في السّحاب بحكمة تكوين الماء. فكما استدلّ بإيجاد الحيّ من أجزاء ميّتةٍ في خلق الإنسان والنّبات استدلّ بإيجاد ما به الحياة عن عدمٍ تقريبًا لإعادة الأجسام بحكمةٍ دقيقةٍ خفيّةٍ، أي يجوز أن يمطر الله مطرًا على ذوات الأجساد الإنسانيّة يكون سببًا في تخلّقها أجسادًا كاملةً كما كانت أصولها، كما تتكوّن الشّجرة من نواة أصلها" اهـ.

ففي عالم المخلوقات: لو أحضرنا لمخترع الجهاز الالكتروني جهازه الذي اخترعه ثم سحقناه أمامه هل يستطيع أن يعيد صناعته؟ أو أنه يعجز عن ذلك؟! لا شك أنه سيكون أمر الإعادة أهون من الابتداء... ولله المثل الأعلى قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27]. مع أن الصانع سيعيد الجهاز المتحطم من أدوات جديدة بعكس الله جلت قدرته فإنه سيعيدها هي ذات الأجزاء والذرات بعينها وإن أكلتها السباع أو ذرتها الريح!!

قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148)﴾ [البقرة: 148].

قال ابن كثير رحمه الله: "أي: هو قادرٌ على جمعكم من الأرض، وإن تفرّقت أجسادكم وأبدانكم)اهـ. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)﴾ [البقرة: 260].

قال ابن كثير رحمه الله: " عن ابن عبّاس: "فصرهنّ إليك" أوثقهنّ، فلمّا أوثقهنّ ذبحهنّ، ثمّ جعل على كلّ جبل منهنّ جزءًا، فذكروا أنّه عمد إلى أربعة من الطّير فذبحهنّ، ثمّ قطّعهنّ ونتف ريشهنّ، ومزّقهنّ وخلط بعضهن في ببعض، ثمّ جزّأهنّ أجزاءً، وجعل على كلّ جبل

منهنّ جزءًا، قيل: أربعة أجبل. وقيل: سبعةٌ. قال ابن عبّاس: وأخذ رؤوسهنّ بيده، ثمّ أمره الله عزّ وجلّ، أن يدعوهنّ، فدعاهنّ كما أمره الله عزّ وجلّ، فجعل ينظر إلى الرّيش يطير إلى الرّيش، والدّم إلى الدّم، واللّحم إلى اللّحم، والأجزاء من كلّ طائر يتّصل بعضها إلى بعض، حتّى قام كلّ طائر على حدته، وأتينه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له في الرّؤية الّتي سألها، وجعل كلّ طائر يجيء ليأخذ رأسه الّذي في يد إبراهيم، عليه السّلام، فإذا قدّم له غير رأسه يأباه، فإذا قدّم إليه رأسه تركب مع بقيّة جثّته بحول الله وقوّته" اهـ.

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "كان رجلٌ يسرف على نفسِهِ (وفي طريق: لم يعملْ خيرًا قطُّ فلما حَضَرَهُ الموتُ قال لبنيهِ: إذا أنا مُتُّ، فأحْرِقوني، ثم اطْحَنُوني، ثم ذَرُّوني في الريحِ (وفي طريق: واذروا نصفَهُ في البَر، ونصفَهُ في البحر)، فواللهِ لئِنْ قَدَرَ عليّ ربي لَيُعَذِّبَنِّي عذاباً ما عَذَّبَهُ أحداً [من العالمينَ]، فلما ماتَ فُعِلَ به ذلك، فأمَرَ اللهُ تعالى الأرض فقالَ: اجمَعي ما فيكِ منه، ففَعَلَتْ (وفي طريقٍ: فأمرَ اللهُ البحرَ فجَمَعَ ما فيه، وأمرَ البرَّ فجَمَعَ ما فيه)، فإذا هو قائمٌ، فقالَ: ما حَمَلَكَ على ما صنعتَ؟ قالَ: يا ربِّ! خشيَتُكَ حَمَلَتْني، [وأنتَ اعْلَمُ]، فغَفَرَ لهُ "متفق عليه واللفظ لمسلم.

قال في (مرقاة المفاتيح): "وفي حديث حذيفة عند البخاري في أول ذكر بني إسرائيل: إذا أنا مت فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا وأوقدوا فيه نارًا حتى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي فامتحشت فخذوها فاطحنوها ثم انظروا يومًا راحًا (أي: كثير الريح وشديدة) فاذروه في اليم الحديث. وفي حديث أبي سعيد عنده أيضًا في الرقاق: فإذا مت فاحرقوني: حتى إذا صرت فحمًا فاسحقوني أو قال: فاسهكوني، ثم إذا كان ريح عاصف فاذروني فيها فأخذ مواثيقهم على ذلك).

قال ابن حجر رحمه الله: "وفي حديث أبي سعيدٍ في يومٍ عاصفٍ أي عاصفٌ ريحه، وفي حديث معاذٍ عن شعبة عند مسلمٍ: في ريحٍ عاصفٍ، ووقع في حديث موسى بن إسماعيل في أوّل الباب: حتّى إذا أكلت لحمي وخلصت إلى عظمي وامتحشت وهو بضمّ المثنّاة

وكسر المهملة بعدها شينٌ معجمةٌ أي وصل الحرق العظام والمحش إحراق النّار الجلد.... وفيه: عظم قدرة الله تعالى أن جمع جسد المذكور بعد أن تفرّق ذلك التّفريق الشّديد" اهـ.

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (4) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (5) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (6) فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12) يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (13)﴾ [القيامة: 3-13].

في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: "ثمّ ينفخ في الصّور فلا يسمعه أحدٌ إلاّ أصغى ليتًا ورفع ليتًا - قال - وأوّل من يسمعه رجلٌ يلوط حوض إبله - قال - فيصعق ويصعق النّاس ثمّ يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطرًا كأنّه الطّلّ أو الظّلّ - نعمان الشّاكّ - فتنبت منه أجساد النّاس ثمّ ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون".

وإنبات الأجساد من التراب بعد إنزال الله ذلك الماء الذي ينبتها يماثل إنبات النبات من الأرض إذا نزل عليها الماء من السماء في الدنيا، ولذا فإن الله قد أكثر في كتابه من ضرب المثل للبعث والنشور بإحياء الأرض بالنبات بعد نزول الغيث، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 57].

وقال في موضع آخر: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: 9].

وقال في موضع آخر: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (7)﴾ [الحج: 5-7].

ولاحظ في قوله: (كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْموْتَى)، (كَذَلِكَ النُّشُورُ)، (وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) فإنه يدل على المماثلة والمشابهة بين إعادة الأجسام بإنباتها من التراب بعد إنزال الماء قبيل النفخ في الصور، وبين إنبات النبات بعد نزول الماء من السماء. ونحن نعلم أن النبات يتكون من بذور صغيرة، تكون في الأرض ساكنة هامدة، فإذا نزل عليها الماء تحركت الحياة فيها، وضربت بجذورها في الأرض، وبسقت بسوقها إلى السماء، فإذا هي نبتة مكتملة خضراء. والإنسان يتكون في اليوم الآخر من عظم صغير عندما يصيبه الماء ينمو نمو البقل، هذا العظم الذي هو عجب الذنب، وهو عظم الصلب المستدير الذي في أصل العجز وأصل الذنب. فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ ». قَالُوا يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا قَالَ أَبَيْتُ. قَالُوا أَرْبَعُونَ شَهْرًا قَالَ أَبَيْتُ. قَالُوا أَرْبَعُونَ سَنَةً قَالَ أَبَيْتُ « ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ ». قَالَ « وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَىْءٌ إِلاَّ يَبْلَى إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» رواه البخاري ومسلم.

فدل الحديث على نقص جسم الإنسان وتحلله وذهابه في الأرض، إلا ذلك الجزء وهو عجب الذنب، الذي قيل إنه كحبة الخردل، وفيه يركب الإنسان، فيبقى بعينه، جاء في حديث أبي سعيد عند الحاكم وأبي يعلى قيل يا رسول الله ما عجب الذنب؟ قال "مثل حبة خردل". والعجب بفتح المهملة وسكون الجيم بعدها موحدة، ويقال له ((عجم)) بالميم أيضا عوض الباء وهو: عظم لطيف في أصل الصلب، وهو رأس العصعص، وهو مكان في رأس الذنب من ذوات الأربع" فتح الباري.

***حكمة الله في البعث:**

إن هذه الدنيا لا يبلغ أمر فيها تمامه، فالناس يختلفون حول الحق والباطل.. والهدى والضلال... والخير والشر. وقد لا يفصل بينهم فيما يختلفون فيه في هذه الأرض، ولا يحل بهم عذابه الفاصل في هذه الدار، حتى يتم الجزاء في الآخرة، ويبلغ كل أمر تمامه هناك،

أهل الجنة في كمال النعيم.. وأهل النار في كمال العذاب، وللأمر حكمته: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39)﴾ [النحل: 39]. والأمر بعد ذلك هين كغيره على الله كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (40)﴾ [النحل: 40].

***مقدمات البعث:**

النفخ في الصور: قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (87)﴾ [النمل: 87].

قال رسول الله ﷺ: "إن طَرْف صاحب الصور منذ وكلَّ به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه، كأن عينيه كوكبان دُرّيان" السلسلة الصحيحة للألباني.

قال ﷺ: كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ، فينفخ، قال المسلمون: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل، توكلنا على الله ربنا" السلسلة الصحيحة للألباني.

عن زُرَارة بن أوفى -قاضي البصرة- رحمه الله: أنه صلى بهم الصبح، فقرأ هذه السورة، فلما وصل إلى قوله: " فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ " شَهِقَ شهقة، ثم خر ميتا، رحمه الله" رواه أبو نعيم في الحلية.

وقوله تعالى: "غَيْرَ يَسِيرٍ" كان يكفي عنها يومٌ عسيرٌ، إلّا أنّه ليبيّن لهم أنّ عسره لا يرجى تيسيره كعسر الدّنيا، وأنّ فيه زيادة وعيد للكافرين.

والذي يظهر أن إسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور مرتين، الأولى يحصل بها الصعق، والثانية يحصل بها البعث، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68)﴾ [الزمر: 68].

وقد سمى القرآن النفخة الأولى بالراجفة، والنفخة الثانية بالرادفة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (7)﴾ [النازعات: 6-7].

وفي موضع آخر سمى الأولى بالصيحة، وصرح بالنفخ بالصور بالثانية، قال تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (50) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51)﴾ [يس: 49-51].

وفي هذه الآيات: يردّ الله تعالى على سؤال هؤلاء المكذّبين المستهزئين بالرّسل: إنّهم لا ينتظرون إلاّ نفخةً واحدةً في الصّور فتأخذ جميع من في الأرض من الخلائق بغتةً، وهم في أسواقهم وأعمالهم ومعايشهم، يتجادلون ويتخاصمون في شؤون الدّنيا، فتصعق الخلائق جميعاً، فلا يستطيعون أن يعهدوا بأموالهم إلى أحدٍ ليرعاها لهم (توصيةً) إذ لا يمهلون لذلك، ولا يستطيع من كان بعيداً عن داره وأهله أن يعود إليهم، إذ تبغت الصّيحة الخلائق فيموت كلّ واحدٍ منهم حيث هو قائمٌ.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)﴾ [الحج: 1-2].

فإن كانت الأم المرضعة وهي أحرص ما يكون على ولدها تذهل عنه، فغيرها من باب أولى، وإن كان الطفل الصغير الذي لم يذنب بعدُ يخاف حتى يشيب عارضاه فما بالك بغيره من الناس. وتُنسى الأنساب، فكل إنسان مشغول بنفسه لأنه يأتي وحيداً قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101)﴾ [المؤمنون: 101].

قال الشنقيطي رحمه الله: "اختلف العلماء في وقت هذه الزّلزلة المذكورة هنا، هل هي بعد قيام النّاس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة؟ أو هي عبارةٌ عن زلزلة الأرض قبل

قيام النّاس من القبور؟ فقالت جماعةٌ من أهل العلم: هذه الزّلزلة كائنةٌ في آخر عمر الدّنيا، وأوّل أحوال السّاعة، وممّن قال بهذا القول: علقمة والشّعبيّ وإبراهيم وعبيد بن عميرٍ وابن جريجٍ. وهذا القول من حيث المعنى له وجهٌ من النّظر، ولكنّه لم يثبت ما يؤيّده من النّقل، بل الثّابت من النّقل يؤيّد خلافه. وهو القول الآخر... وأمّا حجّة أهل القول الآخر القائلين بأنّ الزّلزلة المذكورة كائنةٌ يوم القيامة بعد البعث من القبور، فهي ما ثبت في الصّحيح عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم من تصريحه بذلك... هذا القول هو الصّواب كما لا يخفى. قال البخاريّ رحمه الله في صحيحه في التّفسير في باب قوله: وترى النّاس سكارى: حدّثنا عمر بن حفصٍ، حدّثنا أبي، حدّثنا الأعمش، حدّثنا أبو صالحٍ، عن أبي سعيدٍ الخدريّ، قال: قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: " يقول الله عزّ وجلّ يوم القيامة: يا آدم. فيقول: لبّيك ربّنا وسعديك. فينادى بصوتٍ: إنّ الله يأمرك أن تخرج من ذرّيّتك بعثًا إلى النّار. قال: يا ربّ، وما بعث النّار؟ قال: من كلّ ألفٍ – أراه قال – تسعمائةٍ وتسعةً وتسعين، فحينئذٍ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، وترى النّاس سكارى، وما هم بسكارى، ولكنّ عذاب الله شديدٌ. فشقّ ذلك على النّاس، حتّى تغيّرت وجوههم، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: من يأجوج ومأجوج تسعمائةٍ وتسعةً وتسعين، ومنكم واحدٌ، وأنتم في النّاس كالشّعرة السّوداء في جنب الثّور الأبيض، أو كالشّعرة البيضاء في جنب الثّور الأسود، وإنّي لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنّة. فكبّرنا، ثمّ قال: ثلث أهل الجنّة. فكبّرنا، ثمّ قال: شطر أهل الجنّة. فكبّرنا "ورواه مسلم.

فحديث أبي سعيدٍ هذا الّذي اتّفق عليه الشّيخان كما رأيت فيه التّصريح من النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم بأنّ الوقت الّذي تضع فيه كلّ ذات حملٍ حملها، وترى النّاس سكارى، وما هم بسكارى، بعد القيام من القبور كما ترى، وذلك نصٌّ صحيحٌ صريحٌ في محلّ النّزاع.

فإن قيل: هذا النّصّ فيه إشكالٌ، لأنّه بعد القيام من القبور لا تحمل الإناث حتّى تضع حملها من الفزع، ولا ترضع حتّى تذهل عمّا أرضعت.

فالجواب عن ذلك من وجهين:

الأوّل: هو ما ذكره بعض أهل العلم، من أنّ من ماتت حاملًا تبعث حاملًا، فتضع حملها من شدّة الهول والفزع، ومن ماتت مرضعةً بعثت كذلك، ولكنّ هذا يحتاج إلى دليلٍ.

الوجه الثّاني: أنّ ذلك كنايةٌ عن شدّة الهول؛ كقوله تعالى: " يومًا يجعل الولدان شيبًا " ومثل ذلك من أساليب اللّغة العربيّة المعروفة.

تنبيهٌ: اعلم أنّ هذا الّذي دلّت عليه الأحاديث الصّحيحة الّتي ذكرنا بعضها يرد عليه سؤالٌ وهو أن يقال: إذا كانت الزّلزلة المذكورة بعد القيام من القبور، فما معناها؟

والجواب: أنّ معناها: شدّة الخوف والهول والفزع، لأنّ ذلك يسمّى زلزالًا، بدليل قوله تعالى فيما وقع بالمسلمين يوم الأحزاب من الخوف: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (11)﴾ [الأحزاب: 10-11] أي: وهو زلزال فزعٍ وخوفٍ، لا زلزال حركة الأرض، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: اتّقوا ربّكم إنّ زلزلة السّاعة شيءٌ عظيمٌ يدلّ على أنّ عظم الهول يوم القيامة موجبٌ واضحٌ للاستعداد لذلك الهول بالعمل الصّالح في دار الدّنيا قبل تعذّر الإمكان؛ لما قدّمنا مرارًا من أنّ إنّ المشدّدة المكسورة تدلّ على التّعليل، كما تقرّر في الأصول في مسلك الإيماء والتّنبيه، ومسلك النّصّ الظّاهر؛ أي: اتّقوا الله؛ لأنّ أمامكم أهوالًا عظيمةً، لا نجاة منها إلّا بتقواه جلّ وعلا"اه.

***قال الله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (1) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3) وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ (4) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6) وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ (8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ (10) وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ (11) وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (12) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (13) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (14)﴾ [التكوير: 1-14].**

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "هي اثنتا عشرة خصلة، ستة في الدنيا وستة في الآخرة".

وعن أبيّ بن كعب ﷺ، قال: "ست آيات قبل يوم القيامة: بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، [فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم] فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت، وفزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطير والوحش، وماج بعضهم في بعض، فذلك قوله: "وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ" [اختلطت] "وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ وَإِذَا البحار سُجِّرَتْ" قال: قالت الجن للإنس نحن نأتيكم بالخبر: فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى [وانشقت السماء إنشقاقة واحدة] وإلى السماء السابعة العليا، فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم" تفسير البغوي.

قال ابن عاشور رحمه الله: "(وتكوير الشمس): فساد جرمها لتداخل ظاهرها في باطنها بحيث يختلّ تركيبها فيختلّ لاختلاله نظام سيرها، من قولهم: كوّر العمامة، إذا أدخل بعضها في بعضٍ ولفّها، وقريبٌ من هذا الإطلاق إطلاق الطّيّ في قوله تعالى: ﴿يوم نطوي السّماء كطيّ السّجلّ للكتب﴾ [الأنبياء: 104]. وإذا زال ضوء الشّمس انكدرت النّجوم لأنّ معظمها يستنير من انعكاس نور الشّمس عليها. وفسّر الانكدار بالتّساقط والانقضاض، ومعنى تساقطها تساقط بعضها على بعضٍ واصطدامها بسبب اختلال نظام الجاذبيّة الّذي جعله الله لإمساكها إلى أمدٍ معلومٍ.

و(تسيير الجبال) انتقالها من أماكنها بارتجاج الأرض وزلزالها.

و(العشار) جمع عشراء وهي النّاقة الحامل إذا بلغت عشرة أشهرٍ لحملها فقاربت أن تضع حملها لأنّ النّوق تحمل عامًا كاملًا، والعشار أنفس مكاسب العرب ومعنى عطّلت تركت لا ينتفع بها. والكلام كنايةٌ عن ترك النّاس أعمالهم لشدّة الهول.. وعلى هذا الوجه يكون ذلك من أشراط السّاعة في الأرض فيناسب "وإذا الوحوش حشرت"

و(الوحوش): جمع وحشٍ وهو الحيوان البرّيّ غير المتأنّس بالنّاس. وحشرها: جمعها في مكانٍ واحدٍ، أي مكانٍ من الأرض عند اقتراب فناء العالم فقد يكون سبب حشرها طوفانًا يغمر الأرض من فيضان البحار فكلّما غمر جزءًا من الأرض فرّت وحوشه حتّى تجتمع في مكانٍ واحدٍ طالبةً النّجاة من الهلاك، ويشعر بهذا عطف وإذا البحار سجّرت عليه. وذكر هذا بالنّسبة إلى الوحوش إيماءً إلى شدّة الهول فالوحوش الّتي من طبعها نفرة بعضها عن بعضٍ تتجمّع في مكانٍ واحدٍ لا يعدو شيءٌ منها على الآخر من شدّة الرّعب، فهي ذاهلةٌ عمّا في طبعها من الاعتداء والافتراس، وليس هذا الحشر الّذي يحشر النّاس به للحساب بل هذا حشرٌ في الدّنيا وهو المناسب لما عدّ معه من الأشراط، وروي معناه عن أبيّ بن كعبٍ.

و(تسجير البحار): فيضانها قال تعالى: و"البحر المسجور" في سورة الطّور. والمراد تجاوز مياهها معدّل سطوحها واختلاط بعضها ببعضٍ وذلك من آثار اختلال قوّة كرة الهواء الّتي كانت ضاغطةً عليها، وقد وقع في آية سورة الانفطار: "وإذا البحار فجّرت" وإذا حدث ذلك اختلط ماؤها برملها فتغيّر لونه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7)﴾ [التكوير: 7] شروعٌ في ذكر الأحوال الحاصلة في الآخرة يوم القيامة وقد انتقل إلى ذكرها لأنّها تحصل عقب السّتّة الّتي قبلها وابتدئ بأوّلها وهو تزويج النّفوس، وتطلق النّفس على ذات الإنسان قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: 151] وقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: 2] وقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: 61]، أي فليسلّم الدّاخل على أمثاله من النّاس. فيجوز أن يكون معنى النّفوس هنا الأرواح، أي تزوّج الأرواح بالأجساد المخصّصة لها فيصير الرّوح زوجًا مع الجسد بعد أن كان فردًا لا جسم له في برزخ الأرواح، وكانت الأجساد بدون أرواحٍ حين يعاد خلقها، أي وإذا أعطيت الأرواح للأجساد. وهذا هو البعث وهو المعنى المتبادر أوّلًا، وروي عن عكرمة.

ويجوز أن يكون المعنى وإذا الأشخاص نوّعت وصنّفت فجعلت أصنافًا: المؤمنون، والصّالحون، والكفّار، والفجّار، قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (7) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (8) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (9) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (10)﴾ [الواقعة: 7-10].

ولعلّ قصد إفادة هذا التّركيب لهذين المعنيين هو مقتضى العدول عن ذكر ما زوّجت النّفوس به. وأوّل منازل البعث اقتران الأرواح بأجسادها، ثمّ تقسيم النّاس إلى مراتبهم للحشر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68)﴾ [الزمر: 68] ثمّ قال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: 71] ثمّ قال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: 73]" اهـ. التحرير والتنوير.

* أخبر الله ﷻ: أن **الشمس** التي تغمر هذه الحياة بالضياء، فإنها تجمع وتكور، ويذهب ضوؤها كما قال تعالى: "إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ".

أما **القمر** الذي نراه في أول الشهر هلالا ثم يتكامل ويتنامى حتى يصبح بدرا جميلا بديعا، فإنه يخسف به ويذهب ضوؤه ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (7) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (8) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (9) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (10) كَلَّا لَا وَزَرَ (11) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (12)﴾ [القيامة: 7-12].

ذكر تعالى ثلاث علاماتٍ ليوم القيامة: فإذا تحيّر البصر فزعاً ودهش فلم يعد يطرف من شدّة الهول والفزع ممّا يشاهد. والعلامة الثّانية هي: إذا خسف القمر وذهب ضوؤه. والعلامة الثّالثة هي إذ اجتمع الشّمس والقمر في أفقٍ واحدٍ، وطلعا من المغرب أسودين، لا نور فيهما. فإذا ظهرت هذه العلامات الثّلاث فإنّ القيامة تكون قد قامت، ويقول الإنسان حينئذٍ، أين المفرّ من جهنّم؟ وهل منها مهربٌ وملجأٌ؟! ويردّ الله تعالى على تساؤل الإنسان عن المهرب والملجأ مجيباً: كلاّ لا مهرب ولا ملجأ من هول ذلك اليوم، ولا شيء يعصم الإنسان من أمر الله تعالى.

أما تلك **النجوم** المتناثرة في القبة السماوية الزرقاء، فإن عقدها ينفرط فتتناثر وتنكدر ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (2)﴾ [الانفطار: 2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (2)﴾ [التكوير: 2].

والانكدار: الانتشار، وأصله في لغة العرب: الانصباب، أي إِذَا تَنَاثَرَتِ النُّجُومُ، وَذَهَبَ لأْلاؤُهَا وَانْطَمَسَ نُورُهَا.

*وأخبر الحق تبارك وتعالى أن هذه الأرض الثابتة، وما عليها من **جبال** صم راسية تحمل في يوم القيامة عندما ينفخ في الصور فتدك دكة واحدة ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (13) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (14) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (15)﴾ [الحاقة: 13-15].

وتحمل الأرض بما فيها من جبالٍ وتندكّ، حتّى تتقطّع أوصالها، ويزول تماسكها، فتصبح وكأنّها الكثيب المهيل، بعد أن كانت كتلةً صلبةً قويّةً متماسكة. فإذا حدث ذلك فحينئذٍ تقوم القيامة. وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21)﴾ [الفجر: 21].

فتتحول هذه الجبال الصلبة إلى رمل ناعم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (14)﴾ [المزمل: 14].

وجاء في موضع آخر أن الجبال تصبح كالعهن وهو الصوف كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9)﴾ [المعارج: 9]. وَفِي ذَلِكَ اليَوْمِ تُصْبِحُ الجِبَالُ هَشَّةً غَيْرَ مُتَمَاسِكَةٍ وَكَأَنَّهَا الصُّوفُ المَنْفُوشُ إِذَا لَعِبَتْ بِهِ الرِّيحُ، قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5)﴾ [القارعة: 5].

وتكون الجبال قدْ تفتّتتْ وتفرّقتْ أجْزاؤها وأصْبحتْ مثْل الصّوف الذي نفش فتفرّقتْ شعْراته بعْضها عنْ بعْضٍ حتّى صار يطير مع الرّيح.

ثم إن الحق تبارك وتعالى يزيل هذه الجبال عن مواضعها ويسوي الأرض حتى لا يكون فيها موضع مرتفع ولا منخفض، وعبر القرآن عن إزالة الجبال بتسييرها مرة وبنسفها أخرى فقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (3)﴾ [التكوير: 3]. وَإِذَا زَالَتِ الجِبَالُ مِنْ أَمَاكِنِهَا وَنُسِفَتْ فَتَرَكَتِ الأَرْضَ قَاعاً صَفْصَفاً. وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (20)﴾ [النبأ: 20].

ويذهب ثبات الجبال المعروف وتماسكها، وتصبح كالسّراب الذي يرى من بعدٍ فيظنّ شيئاً، فإذا اقترب الإنسان منه لم يجده شيئاً، وكذلك حال الجبال في ذلك اليوم المهول، فإنّ النّاظر إليها يخيّل إليه أنّها شيءٌ، وهي ليست بشيءٍ لتفرّق أجزائها، وانبثاث جواهرها ثمّ تنسف وتحملها الرّياح، كما جاء في آيةٍ أخرى، وقال في نسفه لها: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ (10)﴾ [المرسلات: 10].

وإذا سيّرت الجبال وفرّقتها الرّياح فلم يبق لها أثرٌ. سيّرت – قلعت من أماكنها بسرعةٍ. ثم بين الحق حال الأرض بعد تسيير الجبال ونسفها ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47)﴾ [الكهف: 47].

وقال تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107)﴾ [طه: 105-107].

يخبر تعالى عن أهوال القيامة، وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ" أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟ "فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا" أي: يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعهن وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثا، فتضمحل وتتلاشى، ويسويها بالأرض، ويجعل الأرض قاعا صفصفا، مستويا لا يرى فيه أيها الناظر عِوَجًا، هذا من تمام استوائها "وَلا أَمْتًا" أي: أودية وأماكن منخفضة، أو مرتفعة فتبرز الأرض، وتتسع للخلائق، ويمدها الله مد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر" تفسير السعدي.

أما **البحار** التي تغطي الجزء الأعظم من هذه الأرض وتعيش في باطنها عوالم هائلة من الأحياء، فإنها تفجر في ذلك اليوم وتشتعل نارا قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (3)﴾ [الانفطار: 3]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ (6)﴾ [التكوير: 6].

وهذه **السماء** التي ننظر إليها فتنشرح صدورنا وتسر قلوبنا فإنها تمور مورا وتضطرب اضطرابا عظيما ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (9)﴾ [الطور: 9].

في يَوْمِ القِيَامةِ الذِي تَتَحَرَّكُ فِيهِ السَّماءُ وَتَدُورُ دَوَرانا وَهِي في مَكانِها كما تَدُورُ الرَّحَى.

ثم إنها تنفطر وتتشقق قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (1)﴾ [الانفطار: 1].

قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2)﴾ [الانشقاق: 1-2].

إذا انْشقّت السّماء وتغيّر نظامها، ويكون ذلك عنْد قيام السّاعة، وخراب العالم... عند ذلك تصبح ضعيفة واهية كالقصر العظيم المتين البنيان الراسخ الأركان عندما تصيبه الزلازل، تراه بعد القوة أصبح واهيا ضعيفا متشققا ﴿وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (16)﴾ [الحاقة: 16]. وتتصدّع السّماء وتصْبح في ذلك اليوْم ضعيفةً واهيةً متراخيةً، بعْد أنْ كانتْ شديدة الأسْر، عظيمة القُوّة. أما لون السماء الأزرق الجميل فإنه يزول ويذهب، وتأخذ السماء في التلون في ذلك اليوم كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء، وتارة صفراء، وأخرى خضراء، ورابعة زرقاء، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (37)﴾ [الرحمن: 37].

*****بداية البعث**: قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70)﴾ [الزمر: 68-70].

قال ابن كثير رحمه الله: "قَالَ تَعَالَى: "ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ" أي: أحياءٌ بعد ما كانوا عظامًا ورفاتًا، صاروا أحياءً ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (13) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (14)﴾ [النازعات: 13-14]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (52)﴾ [الإسراء: 52]"، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (25)﴾ [الروم: 25]" اهـ.

قال البغوي رحمه الله: ""يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ" أي صوت الداعي الذي يدعوهم إلى موقف القيامة، وهو إسرافيل، وذلك أنه يضع الصور في فيه، ويقول: أيتها العظام البالية والجلود المتمزقة واللحوم المتفرقة هلموا إلى عرض الرحمن" اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: 51-52].

كان أبو محكم الجسري رحمه الله يجتمع إليه إخوانه، وكان حكيماً، فإذا تلى الآية السابقة بكى، ثم قال: "إن القيامة ذهبت فظاعتها بأوهام العقول، أما والله لئن كان القوم في رقدة مثل ظاهر قولهم، لما دعوا بالويل عند أول وهلة من بعثهم، ولم يوقفوا بعد موقف عرض ولا مسألة إلا وقد عاينوا خطراً عظيماً، وحقت عليهم القيامة بالجلائل من أمرها، ولكن كانوا في طول الإقامة في البرزخ يألمون ويعذبون في قبورهم، وما دعوا بالويل عند انقطاع ذلك عنهم، إلا وقد نقلوا إلى طامة هي أعظم منه، ولولا أن الأمر على ذلك ما استصغر القوم ما كانوا منه، فسموه رقاداً، وإن في القرآن لدليلاً على ذلك: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34)﴾ [النازعات: 34]. ثم يبكي حتى يبل لحيته" رواه ابن أبي الدنيا.

وقد حكى الله سبحانه عن الكافرين: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ (10)﴾ [السجدة: 10].

والمراد بالضلال في الأرض تحلل أجسادهم ثم اختلاطها بتراب الأرض، تقول: ضل السمن في الطعام إذا ذاب فيه. عن أبي جعفر الباقر رحمه الله قال: "كان يقال: عجباً لمن يكذب بالنشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى! يا عجباً كل العجب لمن يكذب بالنشر بعد الموت، وهو ينشر في كل يوم وليلة!" رواه ابن أبي الدنيا.

***جاءت بعض الأحاديث مخبرة أنه يسبق النفخة الثانية في الصور نزول ماء من السماء فتنبت منه أجساد العباد،** ففي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: "يخرج الدّجّال في أمّتي فيمكث أربعين - لا أدرى أربعين يومًا أو أربعين شهرًا أو أربعين عامًا - فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنّه عروة بن مسعودٍ فيطلبه فيهلكه ثمّ يمكث النّاس سبع سنين ليس بين اثنين عداوةٌ ثمّ يرسل الله ريحًا باردةً من قبل الشّأم فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرّةٍ من خيرٍ أو إيمانٍ إلاّ قبضته حتّى لو أنّ أحدكم دخل في كبد جبلٍ لدخلته عليه حتّى تقبضه ». قال سمعتها من رسول الله ﷺ قال « فيبقى شرار النّاس في خفّة الطّير وأحلام السّباع لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا فيتمثّل لهم الشّيطان فيقول ألا تستجيبون فيقولون فما تأمرنا فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دارٌّ رزقهم حسنٌ عيشهم ثمّ ينفخ في الصّور فلا يسمعه أحدٌ إلاّ أصغى ليتًا ورفع ليتًا - قال - وأوّل من يسمعه رجلٌ يلوط حوض إبله - قال - فيصعق ويصعق النّاس ثمّ يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطرًا كأنّه الطّلّ أو الظّلّ - نعمان الشّاكّ - فتنبت منه أجساد النّاس ثمّ ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون ثمّ يقال يا أيّها النّاس هلمّ إلى ربّكم. وقفوهم إنّهم مسئولون - قال - ثمّ يقال أخرجوا بعث النّار فيقال من كم فيقال من كلّ ألفٍ تسعمائةٍ وتسعةً وتسعين - قال - فذاك يوم يجعل الولدان شيبًا وذلك يوم يكشف عن ساقٍ» (الليت): صفحة العنق والمعنى أمال صفحة عنقه.

***الأرض التي يحشر العباد عليها في يوم القيامة أرض أخرى غير هذه الأرض،** قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (48)﴾ [إبراهيم: 48]. وَيَوْمَ القِيَامَةِ تُبَدَّلُ الأَرْضُ فَتُصْبِحُ غَيْرَ الأَرْضِ التِي يَعْرِفُهَا البَشَرُ، وَتُبَدَّلُ

السَّمَاءُ فَتُصْبِحُ غَيْـرَ السَّمَاءِ التِي يَرَوْنَهَا. وَتَخْرُجُ الخَلائِقُ جَمِيعاً مِنَ القُبُورِ، وَيُسَاقُونَ لِيَقِفُوا أَمَامَ اللهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67)﴾ [الزمر: 67]. وجاء في موضع آخر ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104)﴾ [الأنبياء: 104].

عن عبيد الله بن مقسمٍ، أنّه نظر إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كيف يحكي رسول الله ﷺ قال: "يأخذ الله عزّ وجلّ سماواته وأرضيه بيديه، فيقول: أنا الله – ويقبض أصابعه ويبسطها – أنا الملك " حتّى نظرت إلى المنبر يتحرّك من أسفل شيءٍ منه، حتّى إنّي لأقول: أساقطٌ هو برسول الله ﷺ؟ وعن سالم بن عبد الله أخبرنى عبد الله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ«يطوى الله عزّ وجلّ السّموات يوم القيامة ثمّ يأخذهنّ بيده اليمنى ثمّ يقول أنا الملك أين الجبّارون أين المتكبّرون ثمّ يطوى الأرضين بشماله ثمّ يقول أنا الملك أين الجبّارون أين المتكبّرون؟!» رواه مسلم.

وقد أخبر عليه الصلاة والسلام أن الوقت الذي يتم فيه هذا التبديل هو وقت مرور الناس على الصراط أو قبل ذلك بقليل، فعن عائشة ﵂، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عزّ وجلّ: يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات فأين يكون النّاس يومئذٍ؟ يا رسول الله فقال: " على الصّراط" رواه مسلم.

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائمًا عند رسول الله ﷺ فجاء حبرٌ من أحبار اليهود فقال: السّلام عليك يا محمّد. فدفعته دفعةً كاد يصرع منها فقال لم تدفعنى؟ فقلت ألا تقول يا رسول الله. فقال اليهودىّ إنّما ندعوه باسمه الّذى سمّاه به أهله. فقال رسول الله ﷺ: « إنّ اسمى محمّدٌ الّذى سمّانى به أهلى». فقال اليهودىّ جئت أسألك. فقال له رسول الله ﷺ: « أينفعك شىءٌ إن حدّثتك؟». قال أسمع بأذنىّ! فنكت رسول الله ﷺ بعودٍ معه. فقال: « سل ». فقال اليهودىّ أين يكون النّاس يوم تبدّل الأرض غير الأرض

والسّموات؟ فقال رسول الله ﷺ: « هم في الظّلمة دون الجسر ». قال فمن أوّل النّاس إجازةً قال: « فقراء المهاجرين ». قال اليهوديّ فما تحفتهم حين يدخلون الجنّة؟ قال « زيادة كبد النّون » قال: فما غذاؤهم على إثرها، قال: « ينحر لهم ثور الجنّة الّذى كان يأكل من أطرافها ». قال: فما شرابهم عليه، قال: « من عينٍ فيها تسمّى سلسبيلاً ». قال صدقت. قال: وجئت أسألك عن شىءٍ لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض إلاّ نبيٌّ أو رجلٌ أو رجلان. قال: « ينفعك إن حدّثتك؟». قال: أسمع بأذنىّ. قال: جئت أسألك عن الولد؟ قال: « ماء الرّجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا منىّ الرّجل منىّ المرأة أذكرا بإذن الله وإذا علا منىّ المرأة منىّ الرّجل آنثا بإذن الله ». قال اليهوديّ: لقد صدقت وإنّك لنبيٌّ! ثمّ انصرف فذهب. فقال رسول الله ﷺ: « لقد سألنى هذا عن الّذى سألنى عنه وما لى علمٌ بشىءٍ منه حتّى أتانى الله به » رواه مسلم.

*__أول من يبعث وتنشق عنه الأرض هو نبينا مُحَمَّد ﷺ__، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: « أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة وأوّل من ينشقّ عنه القبر وأوّل شافعٍ وأوّل مشفّعٍ ». رواه مسلم.

وفي صحيح البخاري عن أبى هريرة رضى الله عنه قال استبّ رجلان رجلٌ من المسلمين ورجلٌ من اليهود، قال المسلم والّذى اصطفى محمّدًا على العالمين، فقال اليهوديّ: والّذى اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهوديّ، فذهب اليهوديّ إلى النّبيّ ﷺ فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النّبيّ ﷺ المسلم فسأله عن ذلك، فأخبره فقال النّبيّ ﷺ « لا تخيّرونى على موسى، فإنّ النّاس يصعقون يوم القيامة، فأصعق معهم، فأكون أوّل من يفيق، فإذا موسى باطشٌ جانب العرش، فلا أدرى أكان فيمن صعق فأفاق قبلى، أو كان ممّن استثنى الله".

*** تصوير القرآن لحشر الناس يوم القيامة:**

يقول الله جل وعلا يذكر بعث الناس وحشرهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7)﴾ [القمر: 6-7].

قال ابن كثير رحمه الله: ""يوم يدعو الدّاعي إلى شيءٍ نكرٍ" أي: إلى شيءٍ منكرٍ فظيعٍ، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء، بل والزّلازل والأهوال، "خشّعًا أبصارهم" أي: ذليلةٌ أبصارهم "يخرجون من الأجداث" وهي: القبور، "كأنّهم جرادٌ منتشرٌ" أي: كأنّهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابةً للدّاعي "جرادٌ منتشرٌ" في الآفاق؛ ولهذا قال: "مهطعين" أي: مسرعين "إلى الدّاعي" لا يخالفون ولا يتأخّرون" اهـ.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4)﴾ [القارعة: 1-4].

ومعلوم قطعاً: أن يوم القيامة يوم مهول يفزع فيه الخلائق، ويخرجون من قبورهم، قال الله جل وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (51) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (52)﴾ [يس: 51-52].

هاتان الآيتان تصوران خروج الناس من القبور وذهابهم إلى أرض المحشر، والسؤال هنا: كيف يخرجون؟ قال الله جل وعلا في سورة القارعة:﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4)﴾ [القارعة: 4]. وعاد وقال تبارك وتعالى في سورة القمر: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7)﴾ [القمر: 7].

ومعلوم: أن حركة الفراش غير حركة الجراد، فحركة الفراش يسومها الاضطراب، وعدم التوافق، وعدم الانتظام، بخلاف حركة الجراد فإنها تصبغ بالانتظام والانضباط مع الكثرة، فالكثرة موجودة في الطرفين في الفراش والجراد، لكن الاضطراب سمة للفراش، والانتظام سمة لحركة الجراد.

ومعلوم: أن المبعوثين أنفسهم لا يتغيرون في حال وصفهم بالفراش، وهم أنفسهم في حال وصفهم بالجراد، فهل يوجد بين الآيتين تعارض؟

التخريج أن يقال: إن الناس أول ما يخرجون من قبورهم يخرجون مضطربين، قال الله جل وعلا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (99)﴾ [الكهف: 99].

فالبعث يكون بالنسبة للناس أول مرة وآخر مرة، فالناس لم يعرفوا البعث من قبل، ولم يعرفوا النشور من قبل، فلا يدرون أين يذهبون؛ ولذلك تضطرب حركتهم ولا تنتظم، ففي هذه الأثناء صورهم تبارك وتعالى بأنهم فراش، قال الله جل وعلا في سورة القارعة: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4)﴾ [القارعة: 4] ثم لا يلبث أولئك الناس أهل المحشر أن يتقدمهم ملك كريم هو إسرافيل، قال الله جل وعلا: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108)﴾ [طه: 108]، لاحظ حركة الانتقال، انتقلوا من كون حالة الفراش التي تصبغ وتوسم بأنها حركة اضطراب إلى حركة الجراد التي توسم بأنها حركة منتظمة، قال ربنا وهو أصدق القائلين: "كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ" فيصبحون منتظمين خلف ملك كريم يقال له: إسرافيل، بعد أن يكون إسرافيل عليه السلام قد دعاهم إلى أرض المحشر.

وقال الله جل وعلا: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86)﴾ [مريم: 85-86].

قال البغوي رحمه الله: "قال عليّ بن أبي طالبٍ: ما يحشرون والله على أرجلهم ولكن على نوقٍ رحالها الذّهب ونجائب سرجها يواقيت إن همّوا بها سارت وإن همّوا بها طارت.. " ونسوق المجرمين إلى جهنّم ورداً، أي: مشاةً. وقيل: عطاشًا قد تقطّعت أعناقهم من العطش. والورد جماعةٌ يردون الماء ولا يرد أحدٌ الماء إلا بعد العطش" اهـ.

وقال في (التحرير والتنوير): "و(الحشر): والحشر: الجمع مطلقًا، يكون في الخير كما هنا، وفي الشّر كقوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (22) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (23)﴾ [الصافات: 22-23]، ولذلك أتبع فعل نحشر

بقيد وفداً، أي حشر الوفود إلى الملوك، فإنّ الوفود يكونون مكرمين، وكانت لملوك العرب وكرمائهم وفودٌ في أوقاتٍ، ولأعيان العرب وفاداتٌ سنويّةٌ على ملوكهم وسادتهم، ولكلّ قبيلةٍ وفادةٌ، وفي المثل: «إنّ الشّقيّ وافد البراجم». وقد اتّبع العرب هذه السّنّة فوفدوا على النّبيء صلّى الله عليه وسلّم لأنّه أشرف السّادة.

وسنة الوفود هي سنة تسعٍ من الهجرة تلت فتح مكّة بعموم الإسلام بلاد العرب. وذكر صفة الرّحمن هنا واضحة المناسبة للوفد.

والسّوق: تسيير الأنعام قدّام رعاتها، يجعلونها أمامهم لترهب زجرهم وسياطهم فلا تتفلّت عليهم، فالسّوق: سير خوفٍ وحذرٍ... قال تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (98)﴾ [هود: 98]" اهـ.

المرحلة السابعة: يوم القيامة

*** ذهول الناس وخوفهم وهلعهم يوم القيامة:**

قَالَ تَعَالَى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ (4) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا (5) إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7) يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (8) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (9) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (10)﴾ [المعارج: 4-10].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (2)﴾ [الحج: 1-2].

وقال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)﴾ [مريم: 93-95].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (33)﴾ [لقمان: 33].

ويجثو الناس على الركب: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28)﴾ [الجاثية: 28].

وعندئذ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (18)﴾ [الحاقة: 18].

وعن عائشة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يحشر النّاس يوم القيامة حفاةً عراةً غرلاً». قلت يا رسول الله النّساء والرّجال جميعًا ينظر بعضهم إلى بعضٍ قال صلى الله عليه وسلم «يا عائشة الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعضٍ» صحيح مسلم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (10) يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: 10-11].

أي: لا يسأل القريب عن حاله، وهو يراه في أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره. قال العوفي عن ابن عباس: "يعرف بعضهم بعضا، ويتعارفون بينهم، ثم يفر بعضهم من بعض".

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: 33].

وكقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [فاطر: 18].

وكقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101)﴾ [المؤمنون: 101].

وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (37)﴾ [عبس: 34-37].

قال عكرمة رحمه الله: "يلقى الرجل زوجته فيقول لها: يا هذه، أيّ بعل كنتُ لك؟ فتقول: نعم البعل كنتَ! وتثني بخير ما استطاعت، فيقول لها: فإني أطلبُ إليك اليومَ حسنةً واحدةً تهبينها لي لعلي أنجو مما ترين. فتقول له: ما أيسر ما طلبتَ، ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئا أتخوف مثل الذي تخاف. قال: وإن الرجل ليلقي ابنه فيتعلق به فيقول: يا بني، أيّ والد كنتُ لك؟ فيثني بخير. فيقولُ له: يا بني، إني احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلي أنجو بها مما ترى. فيقول ولده: يا أبت، ما أيسر ما طلبت، ولكني أتخوف مثل الذي تتخوف، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا. يقول الله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (34) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (35) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (36)﴾ [عبس: 34-36]". تفسير ابن كثير.

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك فيقول: إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟

فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار" رواه البخاري.

قوله: (بذيخ) الذيخ: ذكر الضبع، الكثير الشعر. (متلطخ) متلوث بالدم.

* **سمَّى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بيوم الجمع**، لأن الله يجمع العباد فيه جميعا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ (103)﴾ [هود: 103].

وقدرة الله تعالى تحيط بالعباد فالله لا يعجزه شيء، وحيثما هلك العباد فإن الله قادر على الإتيان بهم، إن هلكوا في أجواء الفضاء، أو غاروا في أعماق الأرض، وإن أكلتهم الطيور الجارحة أو الحيوانات المفترسة، أو أسماك البحار أو غيبوا في قبورهم في الأرض، كل ذلك عند الله سواء ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148)﴾ [البقرة: 148].

وكما أن قدرة الله محيطة بعباده تأتي بهم حيثما كانوا، فكذلك علمه محيط بهم، فلا ينسى منهم أحدا، ولا يضل منهم أحد ولا يشذ منهم أحد ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)﴾ [مريم: 93-95] [مريم:93-95]) وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (47)﴾ [الكهف: 47].

وهذه النصوص بعمومها تدلُّ على حشر جميع الخلائق الإنس والجن والملائكة.

قال ابن تيمية رحمه الله: "وأمّا البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه كما دلّ عليه الكتاب والسّنّة. قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38)﴾ [الأنعام: 38]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (5)﴾ [التكوير: 5]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29)﴾ [الشورى: 29]، وحرف إذا إنّما يكون لما يأتي لا محالة. والأحاديث في ذلك مشهورةٌ، فإنّ الله عزّ وجلّ يوم القيامة يحشر البهائم ويقتصّ لبعضها من بعضٍ ثمّ يقول لها: كوني ترابًا. فتصير ترابًا. فيقول الكافر حينئذٍ ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)﴾ [النبأ: 40]، وَمن قال إنّها لا تحيا فهو مخطئٌ في ذلك أقبح خطأٍ؛ بل هو ضالٌّ أو كافرٌ والله أعلم" مجموع الفتاوى - (ج 4 / ص 248).

وقد وصف الله بعض دواهي يوم القيامة، وأكثر من أساميه لتقف بكثرة أساميه على كثرة معانيه، فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب، بل الغرض تنبيه أولي الألباب، فتحت كلّ اسمٍ من أسماء القيامة سر، وفي كلّ نعتٍ من نعوتها معنًى، فاحرص على معرفة معانيها. فمن أساميها: " يَوْمُ الْقِيَامَةِ "، " وَيَوْمُ النَّدَامَةِ [يُونُسَ: 54 وَسَبَأٍ: 33]، " وَيَوْمُ الْحساب " [ص: 26 و 53]، " وَيَوْمُ الزَّلْزَلَةِ " [الْحَجّ: 1 وَالزَّلْزَلَةِ: 1]، " وَيَوْمُ الصَّاعِقَةِ " [الطُّورِ: 45 وَالزُّمَرِ: 68]، " وَيَوْمُ الْوَاقِعَةِ " [الْوَاقِعَةِ: 1 وَالْحَاقَّةِ: 13 وَ 15]، " وَيَوْمُ الْقَارِعَةِ " [الْقَارِعَةِ: 1، وَالْحَاقَّةِ: 4]، " وَيَوْمُ الْغَاشِيَةِ " [الْغَاشِيَةِ: 1]، " وَيَوْمُ الرَّاجِفَةِ " [النَّازِعَاتِ: 6]، " وَيَوْمُ الْحَاقَّةِ " [الْحَاقَّةِ: 1 وَ 2]، " وَيَوْمُ الطَّامَّةِ الكبرى" [النَّازِعَاتِ: 34]، " وَيَوْمُ الصَّاخَّةِ " [عَبَسَ: 33]، " وَيَوْمُ التَّلَاقِ " [غَافِرٍ: 15]، " وَيَوْمُ التَّنَادِ " [غَافِرٍ: 32]، " وَيَوْمُ الْجَزَاءِ " [غَافِرٍ: 17]، " وَيَوْمُ الْوَعِيدِ " [ق: 20]، " وَيَوْمُ الْعَرْضِ " [الْكَهْفِ: 48]، " وَيَوْمُ الْوَزْنِ " [الْأَعْرَافِ: 8 وَ 9]، " وَيَوْمُ الْفَصْلِ " [الصَّافَّاتِ: 21 وَالنَّبَأِ: 17 وَالْمُرْسَلَاتِ: 38]، " وَيَوْمُ الْجَمْعِ " [الشُّورَى: 7]، " وَيَوْمُ الْبَعْثِ " [الرُّومِ: 56]، " وَيَوْمُ الْخِزْيِ " [آلِ عِمْرَانَ: 192 وَالنَّحْلِ: 27]، " وَيَوْمٌ عَسِيرٌ " [الْفُرْقَانِ: 26 وَالْمُدَّثِّرِ: 9]، " وَيَوْمُ الدِّينِ " [الْحِجْرِ: 35 وَالصَّافَّاتِ: 20]، " وَيَوْمُ النُّشُورِ " [الْمُلْكِ: 15 وَالْقَمَرِ: 7]، " وَيَوْمُ الْخُلُودِ " [ق: 34]، " وَيَوْمٌ لَا رَيْبَ فِيهِ " [آلِ عِمْرَانَ: 9 وَالنِّسَاءِ: 87]، " وَيَوْمٌ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا " [الْبَقَرَةِ: 48، 123]، " وَيَوْمٌ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ " [إِبْرَاهِيمَ: 42]، وَ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ

مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عَبَسَ: 34 - 36] ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشُّعَرَاءِ: 88، 89].

ولكثرة حسرة العذاب سمى الله ذلك اليوم (بيوم الحسرة) ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39)﴾ [مريم: 39].

ولشدة تحسر الكفار وندمه على عدم اتباعه للرسول الذي بعثه إليه واتباعه لأعداء الرسل، فإنه يعض على يديه ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29)﴾ [الفرقان: 27-29].

وفي ذلك اليوم يوقن الكفار أن ذنبهم غير مغفور، وعذرهم غير مقبول، فييأسوا من رحمة الله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (12)﴾ [الروم: 12].

ويتمنى الكفار في ذلك اليوم أن يهلكهم الله، ويجعلهم تراباً ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ [النساء: 42]، ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)﴾ [النبأ: 40]. فما بالك بأقوام كانت مناياهم هي غاية المنى!!

فالويل كلّ الويل للغافلين، يرسل الله لنا سيّد المرسلين، وينزّل عليه الكتاب المبين، ويخبرنا بهذه الصّفات من نعوت يوم الدّين، ثمّ يعرّفنا غفلتنا ويقول: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (1) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (2) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1-3]. ثمّ يعرّفنا قرب القيامة فيقول: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1)﴾ [القمر: 1]. ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا (6) وَنَرَاهُ قَرِيبًا (7)﴾ [المعارج: 6-7]. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (63)﴾ [الأحزاب: 63]. ثمّ يكون أحسن أحوالنا أنّ نتّخذ دراسة هذا القرآن عملًا فلا نتدبّر معانيه، ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه، ولا نستعدّ للتّخلّص من دواهيه. فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يتداركنا الله بواسع رحمته.

* **تدنو الشمس من رؤوس العباد في ذلك اليوم حتى لا يكون بينها وبينهم إلا مقدار ميل واحد،** ولوا أنهم مخلوقون خلقاً غير قابل للفناء لانصهروا وذابوا وتبخروا، ولكنهم بعد الموت لا يموتون. ويذهب عرقهم في الأرض حتى يرويها، ثم يرتفع فوق الأرض، ويأخذهم على قدر أعمالهم. ففي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل "قال سليم بن عامر: فوالله ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين؟ قال: " فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه. ومنهم من يكون إلى ركبتيه. ومنهم من يكون إلى حقويه. ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً " قال: وأشار رسول الله بيده إلى فيه".

*في صحيح البخاري عن ابن عبّاسٍ رضى الله عنهما عن النّبيّ ﷺ قال: « إنّكم محشورون حفاةً عراةً غرلاً – ثمّ قرأ – ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (104)﴾ [الأنبياء: 104] وأوّل من يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإنّ أناسًا من أصحابى يؤخذ بهم ذات الشّمال فأقول أصحابى أصحابى فيقول إنّهم لم يزالوا مرتدّين على أعقابهم منذ فارقتهم. فأقول كما قال العبد الصّالح ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118)﴾ [المائدة: 117-118]).

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: " أليس الذي أمشاه على رجليه في الدنيا قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة " قال قتادة: (بلى وعزة ربنا).

ومع حشرهم على هذه الصورة المنكرة على وجوههم فإنهم يحشرون عمياً لا يرون، وبكماً لا يتكلمون، وصماً لا يسمعون ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97)﴾ [الإسراء: 97].

وقبل أن يصلوا إلى النار تصك مسامعهم أصواتها التي تملأ قلوبهم رعباً وهلعاً ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12)﴾ [الفرقان: 12].

وعندما يبلغون النار ويعاينون أهوالها يندمون ويتمنون العودة إلى الدنيا كي يؤمنوا ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (27)﴾ [الأنعام: 27]. ولكنهم لا يجدون من النار مفراً: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (53)﴾ [الكهف: 53].

وعند ذلك يؤمرون بالدخول في النار وغضب الجبار أذلاء خاسرين ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (29)﴾ [النحل: 29].

***صنف من عباد الله لا يفزعون عندما يفزع الناس، ولا يحزنون عندما يحزن الناس، أولئك هم أولياء الرحمن الذين آمنوا بالله، وعملوا بطاعة الله استعداداً لذلك اليوم،** فيؤمنهم الله في ذلك اليوم، وعندما يبعثون من القبور تستقبلهم ملائكة الرحمن تهدئ من روعهم وتطمئن قلوبهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (102) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (103)﴾ [الأنبياء: 101-103]. والفزع الأكبر هو ما يصيب العباد عندما يبعثون من القبور، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42)﴾ [إبراهيم: 42].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85)﴾ [مريم: 85].

قال علي بن أبي طالب ﷺ: "لا والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة" تفسير ابن كثير.

وفي ذلك اليوم ينادي منادي الرحمن أولياء الرحمن مطمئناً لهم: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69)﴾ [الزخرف: 68-69].

وقال في موضع آخر: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64)﴾ [يونس: 62-64].

والسر في هذا الأمن الذي يشمل الله به عباده الأتقياء، أن قلوبهم كانت في الدنيا غامرة بمخافة الله، فأقاموا ليلهم، وأظمؤا نهارهم، واستعدوا ليوم الوقوف بين يدي الله، فقد حكى عنهم ربهم أنهم كانوا يقولوه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: 10] ومن كان حاله كذلك فإن الله يقيه من شر ذلك اليوم ويؤمنه، ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا - وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان: 11-12].

وفي الحديث الذي يرويه أبو نعيم في (الحلية) عن شداد بن أوس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي، لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن هو أمنني في الدنيا أخفته يوم أجمع فيه عبادي، وإن هو خافني في الدنيا أمنته يوم أجمع فيه عبادي ". وكلما كان العبد أكثر إخلاصاً لربه تبارك وتعالى كان أكثر أمناً في يوم القيامة، فالموحدون الذين لم يلبسوا إيمانهم بشيء من الشرك، لهم الأمن التام يوم القيامة، يدلك على هذا جواب إبراهيم لقومه عندما خوفوه بأصنامهم، فأجابهم قائلاً: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ - الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 81-82].

فمن كان خوفه في الدنيا أشد كان أمنه يوم القيامة أكثر وبالعكس وذلك لأن من أعطى علم اليقين في الدنيا طالع الصراط وأهواله بقلبه فذاق من الخوف وركب من الأهوال ما لا

يوصف فيضعه عنه غداً ولا يذيقه مرارته مرة ثانية، قال القرطبي رضي الله: "فمن استحى من الله في الدنيا مما يصنع استحى الله عن سؤاله في القيامة ولم يجمع عليه حياءين كما لم يجمع عليه خوفين".

وقال أحد السلف رحمه الله: "نار الحق في الدنيا للمعترف رحمة من عذاب النار تفديه من نار السطوة في الآخرة" ومُحَمَّد عليه الصلاة والسلام يعطى الأمن يوم القيامة حتى يتفرغ للشفاعة وما ذاك إلا من الخوف الذي كان علاه أيام الدنيا فلم يجتمع عليه خوفان، فكل من كان له حظ من اليقين فعاين منه ما ذاق من الخوف سقط عنه من الخوف بقدر ما ذاق هنا.

عن عبد الله بن عمرٍو ﷺ عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: "تجتمعون يوم القيامة فيقال: أين فقراء هذه الأمّة ومساكينها؟ قال: فيقومون فيقال لهم: ماذا عملتم؟ فيقولون: ربّنا ابتليتنا فصبرنا وآتيت الأموال والسّلطان غيرنا فيقول الله: صدقتم قال: فيدخلون الجنّة قبل النّاس ويبقى شدّة الحساب على ذوي الأموال والسّلطان" قالوا: فأين المؤمنون يومئذٍ؟ قال: يوضع لهم كراسيّ من نورٍ وتظلّل عليهم الغمام يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعةٍ من نهار" رواه ابن حبان وحسنه الألباني.

وعن أبي هريرة ﷺ عن رسولِ اللهِ صلّى الله عليهِ وسلّم قال: "يقوم النّاس لِربِّ العالمين مِقدار نِصفِ يومٍ مِن خمسِين ألف سنةٍ يهوّن ذلِك على المؤمِنين كتدلّي الشّمسِ لِلغروبِ إلى أن تغرب"رواه ابن حبان وصححه الألباني.

قال لقمان رحمه الله لابنه: "يا بني أمرٌ لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك**!**".

وإذا فزع الناس في يوم القيامة فإن الشهيد لا يفزع، عن سعيد بن جُبَير رحمه الله في قوله: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: 68] قال: "الشهداء ثنية الله حول العرش، متقلدين السيوف" تفسير الطبري.

وروى ابن المبارك، عن راشد أبي مُحَّد، أنه سمع شهر بن حوشب يحدث قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: "يجيء الله تبارك وتعالى في ظل من الغمام والملائكة ثم ينادي مناد: سيعلم أول الجمع لمن الكرم اليوم، فيقول: عليكم بأوليائي الذين أهرقوا ابتغاء مرضاتي فينطلقون حتى يدنون" وإسناده حسن.

وفي سنن الترمذي وابن ماجة عن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: " للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقربائه ". والشاهد في الحديث أن الشهيد يأمن من الفزع الأكبر، وهو فزع يوم القيامة.

ومثل الشهيد المرابط في سبيل الله، فإنه إذا مات وهو مرابط أمَّنه الله من الفزع الأكبر، فقد روى الطبراني بإسناد صحيح عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: "رباط يوم خير من صيام دهر، ومن مات مرابطاً في سبيل الله أمن من الفزع الأكبر، وغدي عليه برزقه، وريح عليه من الجنة، ويجري عليه أجر المرابط حتى يبعثه الله ".

ومن إكرام الله للشهيد يوم القيامة أن الله يبعثه وجرحه يتفجر دماً اللون لون الدم، والريح ريح المسك، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ: " والذي نفسي بيده، لا يُكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة اللون لون الدم، والريح ريح المسك ".

وروى الترمذي والنسائي وأبو داود بإسناد صحيح عن معاذ بن جبل أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "من قاتل في سبيل الله فواق ناقة، فقد وجبت له الجنة، ومن جرح جرحاً في سبيل الله أو نكب نكبة فإنها تجيء يوم القيامة كأغزر ما كانت، لونها الزعفران، وريحها المسك ".

قال ابن حجر رحمه الله: "قال العلماء: الحكمة في بعثه كذلك أن يكون معه شاهد بفضيلته ببذله نفسه في طاعة الله تعالى".

***من مشاهد يوم القيامة:**

*** الشفاعة العظمى:**

* عن أبي هريرة رضى الله عنه قال أتى رسول الله ﷺ بلحمٍ، فرفع إليه الذّراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسةً ثمّ قال « أنا سيّد النّاس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذلك يجمع النّاس الأوّلين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ، يسمعهم الدّاعى، وينفذهم البصر، وتدنو الشّمس، فيبلغ النّاس من الغمّ والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول النّاس ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربّكم فيقول بعض النّاس لبعضٍ عليكم بآدم فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده. ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى إلى ما قد بلغنا فيقول آدم إنّ ربّى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنّه نهانى عن الشّجرة فعصيته، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوحٍ، فيأتون نوحًا فيقولون يا نوح إنّك أنت أوّل الرّسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبدًا شكورًا اشفع لنا إلى ربّك، ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول إنّ ربّى عزّ وجلّ قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنّه قد كانت لى دعوةٌ دعوتها على قومى نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم، فيقولون يا إبراهيم، أنت نبىّ الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربّك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول لهم إنّ ربّى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنّى قد كنت كذبت ثلاث كذباتٍ - فذكرهنّ أبو حيّان في الحديث - نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى، فيقولون يا موسى أنت رسول الله، فضّلك الله برسالته وبكلامه على النّاس، اشفع لنا إلى ربّك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول

إنّ ربّي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنّي قد قتلت نفسًا لم أومر بقتلها، نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وكلّمت النّاس في المهد صبيًّا اشفع لنا ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول عيسى إنّ ربّى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله – ولم يذكر ذنبًا – نفسى نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمّدٍ – ﷺ – فيأتون محمّدًا ﷺ فيقولون يا محمّد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، اشفع لنا إلى ربّك ألا ترى إلى ما نحن فيه فأنطلق فآتى تحت العرش، فأقع ساجدًا لربّى عزّ وجلّ ثمّ يفتح الله علىّ من محامده وحسن الثّناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحدٍ قبلى ثمّ يقال يا محمّد ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفّع، فأرفع رأسى، فأقول أمّتى يا ربّ، أمّتى يا ربّ فيقال يا محمّد أدخل من أمّتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنّة وهم شركاء النّاس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثمّ قال والّذى نفسى بيده إنّ ما بين المصراعين من مصاريع الجنّة كما بين مكّة وحمير، أو كما بين مكّة وبصرى » متفق عليه.

***ورد في السنة النبوية مشاهد للمناقشة والمحاسبة والعرض والمعاتبة التي تكون من الله لعباده.**

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب. حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته. وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (18)﴾ [هود: 18].

قال القرطبي في قوله: "فيضع عليه كنفه " أي: ستره ولطفه وإكرامه، فيخاطب خطاب ملاطفة، ويناجيه مناجاة المصافاة والمحادثة، فيقول له: هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف،

فيقول الله ممتناً عليه ومظهراً فضله لديه: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، أي لم أفضحك بها فيها، وأنا أغفرها لك اليوم" اهـ.

وروى مسلم والترمذي والنسائي عن شفي بن ماتع الأصبحي رحمه الله أنه دخل المدينة، فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة، فدنوت منه، حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس، فلما سكت وخلا، قلت له: أسألك بحق وحق، لما حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته، فقال أبو هريرة رضي الله عنه: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ، عقلته وعلمته، ثم نشغ أبو هريرة نشغة، فمكثنا قليلاً، ثم أفاق، فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة أخرى، ثم أفاق ومسح عن وجهه وقال: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ، أنا وهو في هذا البيت، ما معنا أحدٌ غيري وغيره، ثم نشغ أبو هريرة نشغة شديدة، ثم مال خاراً على وجهه، فأسندته طويلاً، ثم أفاق، فقال: حدثني رسول الله ﷺ: أن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجلٌ كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى، يا رب، قال: فماذا عملت فما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك. ويؤتى بصحاب المال فيقول الله: ألم أوسع عليك، حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى، يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد، فقيل ذلك. ثم يؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله: في ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة ". قال الوليد أبو

عثمان المدائني: فأخبرني عقبة بن مسلم: أن شفياً هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا. قال أبو عثمان: وحدثني العلاء بن أبي حكيم: " أنه كان سيافاً لمعاوية، فدخل عليه رجل، فأخبره بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: قد فعل بهؤلاء هكذا، فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكى معاوية بكاءً شديداً، حتى ظننا أنه هالك، وقلنا: قد جاء هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية، ومسح عن وجهه، وقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (15) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (16)﴾ [هود: 15-16]، أخرجه الترمذي.

وفي الحديث الذي يرويه مسلم عن أنس بن مالك ﷺ قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك. فقال: " هل تدرون مم أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربه يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، ثم يختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنطق بأعماله. قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام. قال: فيقول: بعداً لكنَّ وسحقاً، فعنكن كنت أناضل".

عن أبي هريرة ﷺ قال: قالوا: يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ قال: «هل تضارّون في رؤية الشّمس في الظّهيرة، ليست في سحابةٍ؟» قالوا: لا، قال: «فهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر، ليس في سحابةٍ؟» قالوا: لا، قال: " فوالّذي نفسي بيده لا تضارّون في رؤية ربّكم، إلّا كما تضارّون في رؤية أحدهما، قال: فيلقى العبد، فيقول: أي فل ألم أكرمك، وأسوّدك، وأزوّجك، وأسخّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، قال: فيقول: أفظننت أنّك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإنّي أنساك كما نسيتني، ثمّ يلقى الثّاني فيقول: أي فل ألم أكرمك، وأسوّدك، وأزوّجك، وأسخّر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى، أي ربّ فيقول: أفظننت أنّك ملاقيّ؟ فيقول: لا، فيقول: فإنّي أنساك كما نسيتني، ثمّ يلقى الثّالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا ربّ آمنت بك،

وبكتابك، وبرسلك، وصلّيت، وصمت، وتصدّقت، ويثني بخيرٍ ما استطاع، فيقول: هاهنا إذًا، قال: ثمّ يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك، ويتفكّر في نفسه: من ذا الّذي يشهد عليّ؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق وذلك الّذي يسخط الله عليه"رواه مسلم. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "ليلقينّ أحدكم ربّه يوم القيامة فيقول له: ألم أسخّر لك الخيل والإبل؟ ألم أذرك ترأس وتربع؟ ألم أزوّجك فلانة ـ خطبها الخطّاب فمنعتهم وزوّجتك؟"رواه ابن حبان وصححه الألباني. وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "أوّل ما يقال للعبد يوم القيامة: ألم أصحّح جسمك وأرويك من الماء البارد؟" رواه ابن حبان وصححه الألباني.

*إن **(الجزاء من جنس العمل)**: هذه سنة ثابتة من سنن الله في خلقه لا تتغير ولا تتبدل وخاصة يوم الدين، ولهذا أخبرنا ربنا تبارك وتعالى في كثير من الآيات القرآنية أنه يعامل خلقه بجنس عملهم، إن خيرا فخيرا، وإن شرا فشرا، وقد نص الله تعالى على ذلك في أكثر من مائة موضع، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)﴾ [الزلزلة: 7-8]. وهذ نصوص من مظاهر العدل الإلهي في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: 22].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضت فلم تعدني. قال: يا رب كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟! يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني؟ قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمتك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟! يا ابن آدم استسقتيك فلم تسقني؟ قال: يا رب كيف

أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما علمت أنك لو سقيته وجدت ذلك عندي؟! ".

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: "يحشر المتكبّرون يوم القيامة أمثال الذّرّ في صور الرّجال يغشاهم الذّلّ من كلّ مكانٍ فيساقون إلى سجنٍ في جهنّم يسمّى بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النّار طينة الخبال" رواه الترمذي.

فحشرُهم أمثال الذر واضح في باب الجزاء من جنس العمل، فلما تكبروا على الله عز وجل وعلى خلقه أذلهم في الآخرة وصغرهم وحقرهم. و(طينة الخبال): هي عصارة أهل النار ـكما هي مفسرة في الحديث، وهي ما يسيل منهم من القيح والدم وغيره، و(الخبال) في الأصل: الفساد، ويكون ـ كما في «النهاية» ـ في الأفعال والأبدان والعقول. وإنما سميت بذلك لشدة فسادها وقوة إفسادها، ولما كان المتكبرون من أشد الناس فساداً وأكثرهم إفساداً في الأرض، خاصة إذا كانوا ملوكاً وسلاطين، كان هذا الجزاء مناسباً لحالهم وأعمالهم.

وأيضاً، فإن المتكبرين لا يصدر عنهم كبرهم واحتقارهم للناس وللحق وأهله إلا عن فساد وخَبَل في عقولهم وفِطَرهم، فناسب أن يجازوا بسقيهم من طينة الخبال والفساد، "جزاءً وفاقاً".

وعن المستورد ﷺ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "من أكل برجل مسلم أكله فإن الله يطعمه مثلها من جهنم ومن كسي ثوبا برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة" رواه أبو داود.

وعن عائشة ﵂ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به" رواه مسلم.

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " من ضَارَّ أضرَ الله به ومن شاقَّ شاقَّ الله عليه" رواه أبو داود والترمذي. قوله: (من ضَارَّ): أي من أدخل على مسلم مضرة في ماله أو نفسه أو عرضه بغير حق. (ومن شاق): المشاقة: المنازعة، (شاق الله عليه): أي أنزل الله عليه المشقة.

وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: " من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقا إلى الجنة" رواه مسلم.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: "«الجزاء مماثل للعمل» من جنسه في الخير والشر، فمن ستر مسلماً ستره الله، ومن يَسّر على مُعْسر يَسّر اللهُ عليه في الدنيا والآخرة، ومن نَفَّسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نَفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن أقال نادماً أقال الله عثرته يوم القيامة، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن ضارَّ مسلماً ضارَّ اللهُ به، ومن شاقَّ شاقَّ الله عليه، ومن خَذَلَ مسلماً في موضع يجب نُصرته فيه خَذَلَهُ اللهُ في موضع يجب نصرته فيه، ومن سَمَحَ سَمَحَ الله له، والراحمون يرحمهم الرحمن، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء، ومن أنفق أُنفِقَ عليه، ومن أَوْعَى أُوعِيَ عليه، ومن عفا عن حقه عفا اللهُ له عن حقه، ومن تجاوز تجاوز اللهُ عنه، ومن استقصى استقصى اللهُ عليه" «إعلام الموقعين».

وقال رحمه الله: "وهو سبحانه وتعالى رحيم يحب الرحماء وإنما يرحم من عباده الرحماء وهو ستير يحب من يستر على عباده وعفو يحب من يعفو عنهم وغفور يحب من يغفر لهم ولطيف يحب اللطيف من عباده ويبغض الفظ الغليظ القاسي الجعظري الجواظ ورفيق يحب الرفق وحليم يحب الحلم وبرّ يحب البر وأهله وعدل يحب العدل وقابل المعاذير يحب من يقبل معاذير عباده ويجازي عبده بحسب هذه الصفات فيه وجودا وعدما فمن عفا عفا عنه ومن غفر غفر له ومن سامح سامحه ومن حاقق حاققه ومن رفق بعباده رفق به ومن رحم خلقه رحمه ومن أحسن إليهم أحسن إليه ومن جاد عليهم جاد عليه ومن نفعهم نفعه ومن

سترهم ستره ومن صفح عنهم صفح عنه ومن تتبع عورتهم تتبع عورته ومن هتكهم هتكه وفضحه ومن منعهم خيره منعه خيره ومن شاق شاق الله تعالى به ومن مكر مكر به ومن خادع خادعه ومن عامل خلقه بصفة عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة فالله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه ولهذا جاء في الحديث " من ستر مسلما ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله تعالى عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر يسر الله تعالى حسابه ومن أقال نادما أقال الله تعالى عثرته ومن أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله تعالى في ظل عرشه " لأنه لما جعله في ظل الإنظار والصبر ونجاه من حر المطالبة وحرارة تكلف الأداء مع عسرته وعجز نجاه الله تعالى من حر الشمس يوم القيامة إلى ظل العرش وكذلك الحديث الذي في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته يوما " يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته" فكما تدين تدان وكن كيف شئت فإن الله تعالى لك كما تكون أنت له ولعباده" الوابل الصيب.

* والله عزَّ وجلَّ سريع الحساب يعلم جميع أعمال العباد، حافظ لها، مثبت لها في الكتاب، عالم بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها، عالم بمستحقها، موصل للعمال جزاءها مهما كانت: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)﴾ [الكهف: 49].

فلا يخشى المجرمون أن الله يعذبهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبون أنه يُضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، بل كل ذرة من خير أو شر معدودة مكتوبة معروضة على من عملها كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)﴾ [الزلزلة: 7-8].

*يقتص الحكم العدل في يوم القيامة للمظلوم من ظالمه، حتى لا يبقى لأحد عند أحد مظلمة، حتى الحيوان يقتص لبعضه من بعض، فإذا انتطحت شاتان إحداهما جلحاء لا قرون لها، والأخرى ذات قرون، فإنه يقتص لتلك من هذه، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: " لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ".

والذي يعتدي على غيره بالضرب يقتص منه بالضرب في يوم القيامة، ففي الحديث الصحيح الذي يرويه البخاري في (الأدب المفرد) والبيهقي في (السنن) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من ضرب بسوط ظلماً اقتص منه يوم القيامة ".

كيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة؟ إذا كان يوم القيامة كانت ثروة الإنسان ورأس ماله حسناته، فإذا كانت عليه مظالم للعباد فإنهم يأخذون من حسناته بقدر ما ظلمهم، فإن لم يكن له حسنات أو فنيت حسناته، فإنه يؤخذ من سيئاتهم فيطرح فوق ظهره.

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلل منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ".

وهذا الذي يأخذ الناس حسناته، ثم يقذفون فوق ظهره بسيئاتهم هو المفلس، كما سماه الرسول ﷺ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: " أتدرون من المفلس؟" قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: "إن المفلس من أمتي، من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا،

وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار ".

والمدين الذي مات، وللناس في ذمته أموال يأخذ أصحاب الأموال من حسناته بمقدار ما لهم عنده، ففي سنن ابن ماجة بإسناد صحيح عن ابن عمر ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات وعليه دينار أو درهم قضى من حسناته، ليس ثم دينار ولا درهم".

وفي سنن الترمذي عن عائشة ﷺ قالت: جاء رجل فقعد بين يدي الرسول ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله ﷺ: " إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل " فتنحى الرجل، وجعل يهتف ويبكى، فقال له رسول الله ﷺ: " أما تقرأ قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47)﴾ [الأنبياء: 47]".

وعن ابن عقيلٍ، أنّ جابر بن عبد الله حدّثه، أنّه بلغه حديثٌ عن رجلٍ من أصحاب النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فابتعت بعيرًا فشددت إليه رحلي شهرًا، حتّى قدمت الشّام، فإذا عبد الله بن أنيسٍ، فبعثت إليه أنّ جابرًا بالباب، فرجع الرّسول فقال: جابر بن عبد الله؟ فقلت: نعم، فخرج فاعتنقني، قلت: حديثٌ بلغني لم أسمعه، خشيت أن أموت أو تموت، قال: سمعت النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يحشر الله العباد - أو النّاس - عراةً غرلًا بهمًا»، قلت: ما بهمًا؟ قال: " ليس معهم شيءٌ، فيناديهم بصوتٍ يسمعه من بعد - أحسبه قال: كما يسمعه من قرب -: أنا الملك، لا ينبغي لأحدٍ من أهل الجنّة يدخل الجنّة وأحدٌ من أهل النّار يطلبه بمظلمةٍ، ولا ينبغي لأحدٍ من أهل النّار يدخل النّار وأحدٌ من

أهل الجنّة يطلبه بمظلمةٍ " قلت: وكيف؟ وإنّما نأتي الله عراةً بهمًا؟ قال: «بالحسنات والسّيّئات» رواه البخاري في (الأدب المفرد) بإسناد حسن.

* **وفي مشهد الحساب يعطى كل عبد (كتابه)** المشتمل على سجل كامل لأعماله التي عملها في الحياة الدنيا وتختلف الطريقة التي يؤتى بها العباد كتبهم:

فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب، ونصبت الموازين، وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق: أين فلان بن فلان؟ هلم إلى العرض على الله تعالى. وقد وكلت الملائكة بأخذك، فقربتك إلى الله، لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك، إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذا قرع النداء قلبك، فعلمت أنك المطلوب، فارتعدت فرائصك، واضطربت جوارحك، وتغير لونك، وطار قلبك، تخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه، والوقوف بين يديه، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم، وأنت في أيديهم، وقد طار قلبك، واشتد رعبك، لعلمك أين يراد بك. فتوهم نفسك، وأنت بين يدي ربك، في يدك صحيفة مخبرة بعملك، لا تغادر بلية كتمتها، ولا مخبأة أسررتها، وأنت تقرأ ما فيها بلسان كليل وقلب منكسر والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك، فكم من بلية قد كنت نسيتها ذكركها؟! وكم من سيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها؟! وكم من عمل ظننت أنه سلم لك وخلص فرده عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيماً؟! فيا حسرة قلبك، ويا أسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك.... فأما المؤمن فإنه يؤتى كتابه بيمينه من أمامه، فيحاسب حساباً يسيراً، وينقلب إلى أهله في الجنة مسروراً ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ – فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا – وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾ [الانشقاق: 7-9]، وإذا اطلع المؤمن على ما تحويه صحيفته من التوحيد وصالح الأعمال سر واستبشر، وأعلن هذا السرور ورفع به صوته، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيهْ – إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهْ – فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ – فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ – قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ – كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة: 19-24].

وأما الكافر والمنافق وأهل الضلال فإنهم يؤتون كتبهم بشمالهم من وراء ظهورهم، وعند ذلك يدعو الكافر بالويل والثبور وعظائم الأمور ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ - فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا - وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴾ [الانشقاق: 10-12]. ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فيقول يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ - وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ - يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ يعني الموت (هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ) فسره ابن عباس رضي الله عنهما: هلكت عني حجتي. قال الله تعالى: (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ - ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ) أي اجعلوه يصلى الجحيم ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ قال قال ابن عباس رضي الله عنهما: سبعون ذراعاً بذراع الملك. (فاسلكوه) قيل: يدخل عنقه فيها ثم يجر بها، ولو أن حلقة منها وضعت على جبل لذاب. [الحاقة: 25-31]. وعندما يعطى العباد كتبهم يقال لهم: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: 29].

*__في ختام ذلك اليوم ينصب (الميزان) لوزن أعمال العباد،__ فإذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها، وقد دلت النصوص على أن الميزان ميزان حقيقي، لا يقدر قدره إلا الله تعالى، فقد روى الحاكم وصححه الألباني عن سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ".

وهو ميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47)﴾ [الأنبياء: 47].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: "كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم ". وقال عن ساقي عبد الله بن مسعود: " لهما في الميزان أثقل من أحد "رواه البخاري في (الأدب المفرد).

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: " إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105)﴾ [الكهف: 105].

وروى الترمذي في ((سننه)) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: " إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: ألك عذر؟ فيقول: لا يا رب. فيقول الله تعالى: بلى، إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن مُحَّداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: فإنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء " ورواه أحمد رحمه الله تعالى بلفظ: قال: قال رسول الله: " توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، ويوضع ما أحصى عليه، فيمايل به الميزان. قال: فيبعث به إلى النار. قال: فإذا أدبر إذا صائح من عند الرحمن عز وجل يقول: لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة، حتى يميل به الميزان ". فهذا يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن، ولله الحمد والمنة" التذكرة للقرطبي.

واعلم أنّه لا ينجو من خطر الميزان إلّا من حاسب في الدّنيا نفسه، ووزن فيها بميزان الشّرع أعماله وأقواله، وخطراته ولحظاته، وإنّما حسابه لنفسه أن يتوب عن كلّ معصيةٍ قبل أن يموت توبةً نصوحًا، ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى، ويردّ المظالم حبّةً بعد حبّةٍ، حتّى يموت ولم يبق عليه مظلمةٌ ولا فريضةٌ - فهذا يدخل الجنّة بغير حسابٍ، وإن مات قبل ردّ المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده - وهذا يقبض على ناصيته - وهذا يقول ظلمتني - وهذا يقول شتمتني - وهذا يقول استهزأت بي - وهذا يقول

جاورتني فأسأت جواري – وهذا يقول عاملتني فغششتني – وهذا يقول أخفيت عيب سلعتك عنّي – وهذا يقول وجدتني مظلومًا وكنت قادرًا على دفع الظّلم عنّي فما راعيتني. فبينما أنت كذلك وقد أنشبت الخصماء فيك مخالبهم وأنت مبهوتٌ متحيّرٌ من كثرتهم، إذ قرع سمعك نداء الجبّار جلّ جلاله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غَافِرٍ: 17] فعند ذلك ينخلع قلبك وتتذكّر ما أنذرك الله على لسان رسوله حيث قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إِبْرَاهِيمَ: 42، 43] فما أشدّ ترحك اليوم بتمضمضك بأعراض النّاس وتناولك أموالهم، وما أشدّ حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف بك على بساط العدل وكشف عن فضائحك ومساويك، فاحذر من التّعرّض لسخط الله وعقابه الأليم. واستقم على صراطه المستقيم. فمن استقام في هذا العالم على الصّراط المستقيم خفّ على صراط الآخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدّنيا، وأثقل ظهره بالأوزار وعصى، تعثّر في أوّل قدمٍ من الصّراط وتردّى.

*__ذكر الأستاذ مصطفى صادق الرافعي رحمه الله في كتابه: (وحي القلم)__ قصة عن الإمام أحمد بن مسكين من علماء القرن الثالث الهجري في البصرة، يقول عن نفسه: "إني امتحِنت بالفقر سنة تسع عشرة ومائتين، وانحسَمت مادتي وقحط منزلي، فلم يكن عندنا شيء، ولي امرأة وطفلها، وقد طوينا على جوع يخسف بالجوف خسفا، فجمعت نيتي على بيع الدار والتحوّل عنها، فخرجت أتسبب لبيعها فلقيني أبو نصر، فأخبرته بنيتي لبيع الدار، فدفع إلى رقاقتين من الخبز بينهما حلوى، وقال أطعمها أهلك. ومضيت إلى داري فلما كنت في الطريق لقيتني امرأة معها صبي، فنظَرَت إلى الرقاقتين وقالت: يا سيدي، هذا طفل يتيم جائع، ولا صبر له على الجوع، فأطعمه شيئًا يرحمك الله، ونظر إليّ الطفل نظرة لا أنساها، وخيّل إليّ حينئذ أن الجنة نزلت إلى الأرض تعرض نفسها على من يشبع هذا الطفل وأمه، فدفعت ما في يدي للمرأة، وقلت لها: خذي وأطعمي ابنك. والله ما أملك بيضاء ولا صفراء، وإن في داري لمن هو أحوج إلى هذا الطعام، فدمعت عيناها، وأشرق

وجه الصبي، ومشيت وأنا مهموم، وجلست إلى حائط أفكر في بيع الدار، وإذ أنا كذلك إذ مرّ أبو نصر وكأنه مستطار فرحًا، فقال: يا أبا مُحمَّد، ما يجلسك ها هنا وفي دارك الخير والغنى؟! قلت: سبحان الله! ومن أين يا أبا نصر؟! قال: جاء رجل من خراسان يسأل الناس عن أبيك أو أحد من أهله، ومعه أثقال وأحمال من الخير والأموال، فقلت: ما خبره؟ قال: إنه تاجر من البصرة، وقد كان أبوك أودَعه مالاً من ثلاثين سنة، فأفلس وانكسر المال، ثم ترك البصرة إلى خراسان، فصلح أمره على التجارة هناك، وأيسَر بعد المحنة، وأقبل بالثراء والغنى، فعاد إلى البصرة وأراد أن يتحلّل، فجاءك بالمال وعليه ما كان يربحه في ثلاثين سنة، قال أحمد بن مسكين: حمدت الله وشكرته، وبحثت عن المرأة المحتاجة وابنها، فكفيتهما وأجرَيت عليهما رزقا، ثم اتجرت في المال، وجعلت أربه بالمعروف والصنيعة والإحسان وهو مقبل يزداد ولا ينقص، وكأني قد أعجبني نفسي وسرني أني قد ملأت سجلات الملائكة بحسناتي، ورجوت أن أكون قد كتبت عند الله في الصالحين، فنمت ليلة فرأيتُني في يوم القيامة، والخلق يموج بعضهم في بعض، ورأيت الناس وقد وسعت أبدانهم، فهم يحملون أوزارهم على ظهورهم مخلوقة مجسمة، حتى لكأن الفاسق على ظهره مدينة كلها مخزيات، ثم وضعت الموازين، جيء بي لوزن أعمالي، فجعلت سيئاتي في كفة وألقيت سجلات حسناتي في الأخرى، فطاشت السجلات، ورجحت السيئات، كأنما وزنوا الجبل العظيم بلفافة من القطن، ثم جعلوا يلقون الحسنة بعد الحسنة مما كنت أصنعه، فإذا تحت كل حسنة شهوة خفية من شهوات النفس، كالرياء والغرور وحب المحمدة عند الناس، فلم يسلم لي شيء، وهلكت عن حجتي وسمعت صوتًا: ألم يبق له شيء؟ فقيل: بقي هذا، وأنظر لأرى ما هذا الذي بقي، فإذا الرقاقتان اللتان أحسنت بهما على المرأة وابنها، فأيقنت أني هالك، فلقد كنت أحسن بمائة دينار ضربة واحدة فما أغنَت عني، فانخذلت انخذالاً شديدًا فوضِعَت الرقاقتان في الميزان، فإذا بكفة الحسنات تنزل قليلاً ورجحت بعضَ الرجحان، ثم وضعت دموع المرأة المسكينة، حيث بكت من أثر المعروف في نفسها، ومن إيثاري إياها وابنها على أهلي، وإذا بالكفة ترجح، ولا تزال ترجح حتى سمعت صوتًا يقول:

قد نجا، فلا تحقرنّ من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق، واتقوا النار ولو بشق تمرة" اهـ.

*يكرم الله عبده ورسوله محمّداً ﷺ في الموقف العظيم بإعطائه (حوضاً) واسع الأرجاء، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، يأتيه هذا الماء الطيب من نهر الكوثر، الذي أعطاه لرسوله ﷺ في الجنة، ترد عليه أمة المصطفى ﷺ، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء. ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من يشرب منها فلا يظمأ أبداً "متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: ": «إنّ حوضي أبعد من أيلة من عدنٍ لهو أشدّ بياضًا من الثّلج، وأحلى من العسل باللّبن، ولآنيته أكثر من عدد النّجوم وإنّي لأصدّ النّاس عنه، كما يصدّ الرّجل إبل النّاس عن حوضه» قالوا: يا رسول الله أتعرفنا يومئذٍ؟ قال: «نعم لكم سيما ليست لأحدٍ من الأمم تردون عليّ غرًّا، محجّلين من أثر الوضوء» رواه مسلم.

قوله: (إن حوضي أبعد من أيلة من عدن) أي بعد ما بين طرفي حوضي أزيد من بعد أيلة من عدن وهما بلدان ساحليان في بحر القلزم أحدهما وهو أيلة في شمال بلاد العرب والآخر وهو عدن في جنوبها هو آخر بلاد اليمن وعن ثوبان رضي الله عنه أنّ نبيّ الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّي لبعقر حوضي أذود النّاس لأهل اليمن أضرب بعصاي حتّى يرفضّ عليهم». فسئل عن عرضه فقال: «من مقامي إلى عمّان» وسئل عن شرابه فقال: «أشدّ بياضًا من اللّبن، وأحلى من العسل، يغتّ فيه ميزابان يمدّانه من الجنّة، أحدهما من ذهبٍ، والآخر من ورقٍ» رواه مسلم.

قوله (لبعقر حوضي) هو موقف الإبل من الحوض إذا وردته وقيل مؤخره (أذود الناس لأهل اليمن) معناه أطرد الناس عنه غير أهل اليمن ليرفض على أهل اليمن وهذه كرامة لأهل اليمن في تقديمهم في الشرب منه مجازاة لهم بحسن صنيعهم وتقدمهم في الإسلام والأنصار من اليمن فيدفع غيرهم حتى يشربوا كما دفعوا في الدنيا عن النبي صلى الله عليه وسلم أعداءه والمكروهات (يرفض عليهم) يسيل عليهم (يغت فيه ميزابان يمدانه) معناه يدفقان فيه الماء دفقا متتابعا شديدا. (يمدانه) أي يزيدانه ويكثرانه.

***المرور على الصراط:**

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال أناسٌ: يا رسول الله، هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارّون في الشّمس ليس دونها سحابٌ؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تضارّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحابٌ» قالوا: لا يا رسول الله، قال: " فإنّكم ترونه يوم القيامة كذلك، يجمع الله النّاس، فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتّبعه، فيتبع من كان يعبد الشّمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطّواغيت، وتبقى هذه الأمّة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصّورة الّتي يعرفون، فيقول: أنا ربّكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتّى يأتينا ربّنا، فإذا أتانا ربّنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصّورة الّتي يعرفون، فيقول: أنا ربّكم، فيقولون: أنت ربّنا فيتبعونه، ويضرب جسر جهنّم " قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: " فأكون أوّل من يجيز، ودعاء الرّسل يومئذٍ: اللّهمّ سلّم سلّم. وبه كلاليب مثل شوك السّعدان، أما رأيتم شوك السّعدان؟ " قالوا: بلى يا رسول الله، قال: " فإنّها مثل شوك السّعدان، غير أنّها لا يعلم قدر عظمها إلّا الله، فتخطف النّاس بأعمالهم، منهم الموبق بعمله، ومنهم المخردل، ثمّ ينجو حتّى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يخرج من النّار من أراد أن يخرج، ممّن كان يشهد أن لا إله إلّا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السّجود، وحرّم الله على النّار أن تأكل من ابن آدم أثر

السّجود، فيخرجونهم قد امتحشوا، فيصبّ عليهم ماءٌ يقال له ماء الحياة، فينبتون نبات الحبّة في حميل السّيل، ويبقى رجلٌ منهم مقبلٌ بوجهه على النّار، فيقول: يا ربّ، قد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاؤها، فاصرف وجهي عن النّار، فلا يزال يدعو الله، فيقول: لعلّك إن أعطيتك أن تسألني غيره، فيقول: لا وعزّتك لا أسألك غيره، فيصرف وجهه عن النّار، ثمّ يقول بعد ذلك: يا ربّ قرّبني إلى باب الجنّة، فيقول: أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره، ويلك ابن آدم ما أغدرك، فلا يزال يدعو، فيقول: لعلّي إن أعطيتك ذلك تسألني غيره، فيقول: لا وعزّتك لا أسألك غيره، فيعطي الله من عهودٍ ومواثيق أن لا يسأله غيره، فيقرّبه إلى باب الجنّة، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثمّ يقول: ربّ أدخلني الجنّة، ثمّ يقول: أوليس قد زعمت أن لا تسألني غيره، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك، فيقول: يا ربّ لا تجعلني أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتّى يضحك، فإذا ضحك منه أذن له بالدّخول فيها، فإذا دخل فيها قيل له: تمنّ من كذا، فيتمنّى، ثمّ يقال له: تمنّ من كذا، فيتمنّى، حتّى تنقطع به الأمانيّ، فيقول له: هذا لك ومثله معه " قال أبو هريرة: «وذلك الرّجل آخر أهل الجنّة دخولًا». قال عطاءٌ، وأبو سعيدٍ الخدريّ جالسٌ مع أبي هريرة لا يغيّر عليه شيئًا من حديثه، حتّى انتهى إلى قوله: «هذا لك ومثله معه»، قال أبو سعيدٍ: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «هذا لك وعشرة أمثاله»، قال أبو هريرة: حفظت «مثله معه»متفق عليه.

وروى مسلم أيضاً عن أبي هريرة في وصف المرور على الصراط، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " وترسل الأمانة والرحم، فتقومان على جنبتي الصراط يميناً وشمالاً، فيمر أولكم كالبرق، قال: قلت: بأبي أنت وأمي، أي شيء كالبرق؟ قال: ألم تروا إلى البرق كيف يمرّ ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمرّ الريح، ثم كمرّ الطير وشدّ الرجال، تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم. حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وعلى حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به. فمخدوش ناج ومكدوس في النار".

*ولا ينجو من السقوط في النار من الجن والإنس إلا الأتقياء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين واتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم، قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا - ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا - ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا - وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا - ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: 68-72].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآيات: "يقسم الله بنفسه وهو أعظم قسم وأجله أنهم سيحشرون بعد الموت، فهذا أمر مفروغ منه ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ [مريم: 68].

ولن يكونوا وحدهم ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: 68] فهم والشياطين سواء، والشياطين هم الذين يوسوسون بالإنكار، وبينهما صلة التابع والمتبوع، والقائد والمقود.. وهنا يرسم صورة حسية وهم جاثون حول جهنم جثو الخزي والمهانة، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68)﴾ [مريم: 68] وهي صورة رهيبة، وهذه الجموع التي لا يحصيها العد محشورة محضرة إلى جهنم جاثية حولها، تشهد هولها ويلفحها حرها، وتنتظر في كل لحظة أن تؤخذ فتلقى فيها، وهم جاثون على ركبهم في ذلة وفزع.. وهو مشهد ذليل للمتجبرين المتكبرين، يليه مشهد النزع والجذب لمن كانوا أشد عتواً وتجبراً: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69)﴾ [مريم: 69].. وفي اللفظ تشديد، ليرسم بظله وجرسه صورة لهذا الانتزاع تتبعها صورة القذف في النار، وهي الحركة التي يكملها الخيال! وإن الله ليعلم من هم أولى بأن يصلوها، فلا يؤخذ أحد جزافا من هذه الجموع التي لا تحصى. والتي أحصاها الله فردا فردا:

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70)﴾ [مريم: 70].. فهم المختارون ليكونوا طليعة المقذوفين! وإن المؤمنين ليشهدون العرض الرهيب: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71)﴾ [مريم: 71] فهم يردون فيدنون ويمرون بها وهي تتأجج وتتميز

وتتلمظ ويرون العتاة ينزعون ويقذفون. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: 72] فتزحزح عنهم وينجون منها لا يكادون! «وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا»..."اهـ.

وقد غيرت هذه الآية: (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) أحوال الصالحين، فأسهرت ليلهم وعكرت عليهم صفو العيش، وحرمتهم الضحك والتمتع بالشهوات، فقد ذكر ابن كثير أن أبا ميسرة كان إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أمي لم تلدني، ثم يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا ميسرة؟ فقال: أخبرنا الله أنا واردوها، ولم نخبر أنا صادرون عنها. وقال عبد الله بن المبارك عن الحسن البصري، قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك صادر عنها؟ قال: لا، قال: ففيم الضحك؟ قال: فما رئي ضاحكاً حتى لحق بالله، وقال ابن عباس لرجل يحاوره: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر هل نصدر عنها أم لا؟

- **معنى ورُود النّار**: ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بورود النار المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[مريم: 71] هو دخول النار، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، وكان يستدل على ذلك بقول الله تعالى في فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ [هود: 98]، وبقوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: 86]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ﴾ [الأنبياء: 99]، وروى مسلم الأعور عن مجاهد: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: 71] قال: داخلها. وذهب بعض أهل العلم إلى أن المراد بالورود هنا المرور على الصراط، يقول شارح الطحاوية: "واختلف المفسرون في المراد بالورود في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: 71] ما هو؟

والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: 72].

وفي الصحيح أنه ﷺ قال: " والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة " قالت حفصة ﵂: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا؟﴾ [مريم: 71]. فقال: "ألم تسمعيه قال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾؟ [مريم: 72]. وأشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه، ولم يتمكنوا منه يقال: نجاه الله منهم.

ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ [هود: 58] ﴿ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا ﴾ [هود: 66]. ﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾ [هود: 94] ولم يكن العذاب أصابهم ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة، لأصابهم ما أصاب أولئك، وكذلك حال الوارد على النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً، فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور أن الورود هو الورود على الصراط" اهـ.

***عظة المرور على الصّراط:**

يقول القرطبي رحمه الله: " تفكر الآن فيما يحل بك من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أن تمشي على الصراط، مع ضعف حالك واضطراب قلبك، وتزلزل قدمك، وثقل ظهرك بالأوزار، المانعة لك من المشي على بساط الأرض، فضلاً عن حدة الصراط.

فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك، فأحسست بحدته، واضطررت إلى أن ترفع قدمك الثاني، والخلائق بين يديك يزلون ويعثرون وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب، وأنت تنظر إليهم كيف ينكسون إلى جهة النار رؤوسهم وتعلوا أرجلهم فيا له من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه، ومجاز ما أضيقه".

وقـال أيضـاً: "فتـوهم نفسـك – يا أخـي – إذا صـرت علـى الصـراط، ونظـرت إلى جهـنم تحتك سوداء مظلمة، قد لظى سعيرها، وعلا لهيبها، وأنت تمشي أحياناً، وتزحف أخرى.

قال:

أبـت نفسـي تتـوب فمـا احتيـالي إذا بـرز العبـاد لـذي الجـلالِ
وقـاموا مـن قبـورهم سـكارى بأوزار كأمثـال الجبـال
وقـد نصـب الصـراط لكـي يجـوزوا فمـنهم مـن يكـب علـى الشـمال
ومـنهم مـن يسـر لـدار عـدن تلقـاه العـرائس بالغـوالي
يقـول لـه المهـيمن يا وليـي غفـرت لـك الـذنوب فـلا تبـالي

وقال آخر:

إذا مـد الصـراط علـى جحـيم تصـول علـى العصـاة وتسـتطيل
فقـوم في الجحـيم لهـم ثبـور وقـوم في الجنـان لهـم مقيـل
وبان الحـق وانكشـف الغطـاء وطـال الويـل واتصـل العويـل

*القنطـرة: روى البخـاري في صـحيحه عـن أبي سـعيد الخـدري ﷺ قـال: قـال رسـول الله ﷺ: "يخلـص المؤمنـون مـن النـار، فيحبسـون علـى قنطـرة بـين الجنـة والنـار، فيقـتص لبعضـهم مـن بعـض مظـالم كانـت بيـنهم في الـدنيا، حـتى إذا هـذبوا ونقـوا أذن لهـم في دخـول الجنـة، فوالـذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزلة في الجنة منه بمنزلة كان في الدنيا".

المرحلة الثامنة والأخيرة

الحياة الأبدية: "فريق في الجنة وفريق في السعير"

وفيها الإقامة المطلقة، والنعيم المطلق للمؤمنين والعذاب الأليم للكافرين، والحكمة من خلق هذه الدار تكميل الشهوات والملذات للمؤمنين جزاء أعمالهم الصالحة، وعقوبة الكفار والظلمة بأشد أنواع العذاب، كل حسب عمله كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (15)﴾ [الانفطار: 13-15].

***النار:**

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16)﴾ [الليل: 12-16].

قال في أضواء البيان: "أي تتلظى، واللظى: اللهب الخالص، وفي وصف النار هنا بتلظى مع أن لها صفات عديدة منها: السعير وسقر والجحيم والهاوية وغير ذلك. وذكر هنا صنفاً خاصاً، وهو من كذب وتولى، كما تقدم في موضع آخر في وصفها أيضاً بلظى في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى (15) نَزَّاعَةً لِلشَّوَى (16)﴾ [المعارج: 15-16].

ثم بين أهلها بقوله: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى (17) وَجَمَعَ فَأَوْعَى (18)﴾ [المعارج: 17-18] وهو كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16)﴾ [الليل: 14-16].

وهو المعنى في قوله قبله: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9)﴾ [الليل: 8-9].

مما يدل أن للنار عدة حالات أو مناطق أو منازل، كل منزلة تختص بصنف من الناس، فاختصت لظى بهذا الصنف، واختصت سقر بمن لم يكن من المصلين، وكانوا يخوضون مع الخائضين ونحو ذلك. ويشهد له قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: 145].

كما أن الجنة منازل ودرجات، حسب أعمال المؤمنين، والله تعالى أعلم.

عن النعمان بن بشير ﷺ يقول سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: " أنذرتكم النار أنذرتكم النار أنذرتكم النار حتى لو أن رجلا كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا قال حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه"رواه أحمد وصححه الألباني.

وأخرج الإمام أحمد في (الزهد): "عن مالك بن دينار رحمه الله قال: "لو وجدت أعوانا لناديت في منار البصرة بالليل: النار النار!! ثم قال لو وجدت أعوانا لفرقتهم في منار الدنيا يا أيها الناس النار النار!!".

وعن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر قال قلت: ليزيد بن مرثد مالي أرى عينك لا تجف؟ قال وما مسألتك عنه؟ قلت عسى الله أن ينفعني به، قال: "يا أخي إن الله توعدني إن أنا عصيته أن يسجنني في النار والله لو لم يوعدني أن يسجنني إلا في الحمام لكنت حَرِيَاً أن لا تجف لي عين!" وقد عوتب يزيد الرقاشي رحمه الله على كثرة بكائه وقيل له لو كانت النار خلقت لك ما زدت على هذا! فقال: "وهل خلقت النار إلا لي ولأصحابي ولإخواننا من الجن والإنس؟ أما تقرأ: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾[الرحمن: 31]، أما تقرأ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: 35]، فقرأ حتى بلغ: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (44)﴾ [الرحمن: 44] وجعل يجول في الدار ويصرخ ويبكي حتى غشي عليه. وكان من السلف من إذا رأى النار اضطرب وتغيرت حاله وقد قال تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة: 73] قال مجاهد وغيره: "يعني أن نار الدنيا تذكر بنار

الآخرة" وعن عطاء الخراساني قال: "كان أويس القرني يقف على موضع الحدادين فينظر إليهم كيف ينفخون الكير ويسمع صوت النار فيصرخ ثم يسقط".

عن ثابت كان بشير بن كعب وقراء البصرة يأتون الحدادين فينظرون إلى شهيق النار فيتعوذون بالله من النار. وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه: "يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده!" قال ﷺ: " «ما سأل رجل مسلم الله الجنة ثلاثا إلا قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة ولا استجار رجل مسلم الله من النار ثلاثا إلا قالت النار: اللهم أجره مني» رواه أحمد وصححه الألباني.

قال ابن رجب رحمه الله: "فالعارفون قد يلاحظون من النار أنها ناشئة عن صفة انتقام الله وبطشه وغضبه، والأثر يدل على المؤثر، فجهنم دليل على عظمة الله وشدة بأسه وبطشه وقوة سطوته وانتقامه في أعدائه، فالخوف منها في الحقيقية خوف من الله وإجلال وإعظام وخشية لصفاته المخوفة، مع أن الله سبحانه يخوف بها عبده، ويحب منهم أن يخافوه بخوفها، وأن يخشوه بخشية الوقوع فيها، وأن يحذروه بالحذر منها، فالخائف من النار خائف من الله، متبع لما فيه محبته ورضاه والله أعلم".

عن النعمان بن بشير يخطب ويقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه". رواه البخاري.

وفي رواية لمسلم: "إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً".

قال رسول الله ﷺ: "ناركم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من جهنم"، قالوا: يا رسول الله وإن كانت لكافية، قال: فإنها فضلت بتسعة وستين جزءاً" رواه البخاري ومسلم.

بل إن شدة الحر التي نشكو منها في الدنيا، ونتقيها بما نملك من وسائل التبريد والتلطيف إنما هي نفس جهنم تتنفسه، كما أن البرد الذي نشكو زمهريره ورعشته إنما هو نفس جهنم، قال ﷺ: " اشتكت النار على ربها، فقالت رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها

بنفسين: نفس في الشتاء ونفس في الصيف، فأشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير" وقال ﷺ: " أبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم" رواه البخاري.

*قال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24)﴾ [البقرة: 24].

فالناس هم الوقود وهم المعذبون.. فسبحان الخالق القادر.

يقول ابن رجب الحنبلي رحمه الله: "وأكثر المفسرين على أن المراد بالحجارة حجارة الكبريت توقد بها النار ويقال: إن فيها خمسة أنواع من العذاب ليس في غيرها: سرعة الإيقاد وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا حميت" التخويف من النار.

قال كعب الأحبار: "إن في النار بئراً ما فتحت أبوابها بعد، مغلقة ما جاء على جهنم يوم منذ خلقها الله تعالى إلا تستعيذ بالله من شر ما في تلك البئر مخافة إذا فتحت تلك البئر أن يكون فيها من عذاب الله ما لا طاقة لها به ولا صبر لها عليه الدرك الأسفل من النار" [التذكرة للقرطبي].

إن حر الدنيا يتقى، فقد مد الله لعباده الظل يقيهم الحر، ورزقهم الماء يرويهم من العطش، وأوجد لهم الهواء والريح الكريمة تلطف وتهون من شدة الفيح، أما في جهنم فإن هذه الثلاثة تنقلب عذاباً على أهلها فالهواء سموم، والظل يحموم والماء حميم.

قال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44)﴾ [الواقعة: 41-44].

وقال سبحانه: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ (30) لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ (31) إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ (32) كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ (33)﴾ [المرسلات: 30-33].

عياذاً بالله من حرها. فشررها قطع ضخمة على قد الحصون والقصور ويشبه الإبل السود في لونه من شدة السواد، أما دخانها فمتشعب إلى ثلاثة وهو يحموم لا ظليل ولا يغني من لهب جهنم الحارق.

وعن أبي هريرة ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة (أي سقطة) فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " تدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوى في النار إلى الآن" رواه مسلم.

ومما يدل على سعة النار وعظمها كثرة الداخلين إليها على ما هم عليه من ضخامة الجسم وعظم الهيئة، وكذلك قذف الشمس والقمر فيها على ضخامة الشمس وسعة القمر، قال رسول الله ﷺ: " الشمس والقمر ثوران مكوران في النار يوم القيامة" السلسلة الصحيحة.

ولك أن تتصور أخي الكريم ضخامة جهنم وعظمها، فهي واسعة عظيمة، كبيرة مهولة، ومع ذلك يجد فيها المجرمون من الضيق والحبس ما يعضون عليه الأنامل من ندم التفريط في الدنيا، ولك أن تتصور جسرها وكيف أنه يكفي لحمل الخلائق كلهم يوم القيامة، فكيف بجهنم نفسها؟ عن عائشة ﷺ أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: "وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" قالت: فأين الناس يومئذ؟ قال: على جسر جهنم" رواه الترمذي.

ومما يدل -أخي الكريم- على سعة جهنم كثرة الملائكة الذين يأتون بها يوم القيامة. قال الله حل وعلا: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: 23].

قال ﷺ: " يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك" رواه مسلم.

يا أيّها الغافل عن نفسه، المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدّنيا المشرفة على الانقضاء والزّوال، دع التّفكّر فيما أنت مرتحلٌ عنه. واصرف الفكر إلى موردك، فإنّك أخبرت بأنّ النّار موردٌ للجميع إذ قال سبحانه: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مَرْيَمَ: 71، 72] فأنت من الورود على

يقين، ومن النّجاة في شكٍّ، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعدّ للنّجاة منه، وتأمّل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلماتٌ ذات شعبٍ وأظلّت عليهم نارٌ ذات لهبٍ وسمعوا لها زفيرًا يفصح عن شدّة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الرّكب. حتّى أشفق البرآء من سوء المنقلب، فهناك تسوق الزّبانية المجرم إلى العذاب الشّديد وينكّسونه في قعر الجحيم، ويقولون له ذق إنّك أنت العزيز الكريم، فأسكنوا دارًا يخلد فيها الأسير، ويوقد فيها السّعير: وشرابهم فيها الحميم، ومستقرّهم الجحيم. شدّت أقدامهم إلى النّواصي، واسودّت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها. يا مالك قد نضجت منّا الجلود. يا مالك أخرجنا منها فإنّا لا نعود. فتقول الزّبانية: هيهات لات حين أمانٍ، ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسئوا فيها ولا تكلّمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون. فعند ذلك يقنطون، وعلى ما فرّطوا في جنب الله يتأسّفون. ولا ينجيهم النّدم ولا يغنيهم الأسف، يدعون بالويل والثّبور، وتغلي بهم النّار كغلي القدور، وتهشّم بمقامع الحديد جباههم، فينفجر الصّديد من أفواههم، وهم مع ذلك يتمنّون الموت فلا يموتون، فكيف لو نظرت إليهم قد اسودّت وجوههم أشدّ سوادًا من الحميم، وأعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، وكسّرت عظامهم، ومزّقت جلودهم، ولهيب النّار سار في بواطن أجزائهم، وحيّات الهاوية وعقاربها متشبّثةٌ بظواهر أعضائهم. هذا بعض جملة أحوالهم، وانظر إلى تفاوت الدّركات، فإنّ الآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلًا، فكما أنّ إكباب النّاس على الدّنيا يتفاوت، فمنهم منهمكٌ مستكثرٌ كالغريق فيها، ومن خائضٍ فيها إلى حدٍّ محدودٍ، فكذلك تناول النّار لهم متفاوتٌ، فإنّ الله لا يظلم مثقال ذرّةٍ، فلا تترادف أنواع العذاب على كلّ من في النّار كيفما كان، بل لكلّ واحدٍ حدٌّ معلومٌ على قدر عصيانه وذنبه، إلّا أنّ أقلّهم عذابًا لو عرضت عليه الدّنيا لافتدى بها من شدّة ما هو فيه. فيا لحسرة هؤلاء وقد بلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيءٌ من الدّنيا ولذّاتها.

ملابسهم: قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (50)﴾.

الأصفاد: الأغلال. فالأصفاد تجمعهم، والسلاسل تقيدهم، والقطران سرابيلهم، والحميم شربهم، والنار محيطة بهم.. وذلك جزاء من خالف إلهه. و(القطران): هو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ، فيحرق الجرب بحرّه وحدّته والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه: أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران. وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو وعد به في الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه من لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامي، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه" الكشاف.

ثم قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (52)﴾ [إبراهيم: 51-52] فالحجج ظاهرة، والأمارات لائحة، والدواعي واضحة، والمهلة متسعة، والرسول عليه السلام مبلّغ، والتمكين من القيام بحق التكليف مساعد. ولكنّ القسمة سابقة، والربّ- سبحانه- فعّال لما يريد، فمن اعتبر نجا، ومن غفل تردّى. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وطعامهم: كل طعام يأكله أهل النار يجمع عليهم مرارة الطعام وغصته كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (12) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (13)﴾ [المزمل: 12-13] والغصة هي التي يعلق بها الطعام في الحلق فلا يسهل عليه دخوله إلى الجوف ولا يسهل خروجه عنه للتخلص منه.

ومـن طعـام أهـل النـار صـديد الأبـدان والقـيح: فمـن شـدة جـوعهم وفقـدهم للطعـام يلتفتـون إلى صـديدهم فيطعمـون منـه ولا يستسـيغونه، قـال تعـالى: ﴿وَلَا طَعَـامٌ إِلَّا مِـنْ غِسْـلِينٍ (36) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (37)﴾ [الحاقة: 36-37] والغسلين والصديد.

وهـو أنـواع وألـوان قـال تعـالى: ﴿هَـذَا فَلْيَـذُوقُوهُ حَمِـيمٌ وَغَسَّـاقٌ (57) وَآخَـرُ مِـنْ شَـكْلِهِ أَزْوَاجٌ (58)﴾ [ص: 57-58].

قـال في (التنـوير والتحريـر): " والحمـيم: المـاء الشّـديد الحـرارة... والغسّـاق: سـائلٌ يسـيل في جهـنّم، يقـال: غسـق الجـرح، إذا سـال منـه مـاءٌ أصـفر. والأظهـر: أنّـه صـيغ لـه هـذا الـوزن ليكـون اسمًـا لشـيءٍ يشـبه مـا يغسـق بـه الجـرح، ولـذلك سمّـي بالمهـل والصّـديد في آياتٍ أخـرى" اهـ.

قـال القـاسمي رحمـه الله في (محاسـن التأويـل): "قـال تعـالى واصـفاً عـذاب أهـل النـار أعـاذنا الله وإيـاكـم مـنهم: (ثم إنكـم أيهـا الضـالون المكـذبون * لآكلـون مـن شـجر مـن زقـوم * فمـالئون منهـا البطـون * فشـاربون عليـه مـن الحمـيم * فشـاربون شـرب الهـيم * هـذا نـزلهم يـوم الـدين" فيـه مبالغـة بديعـة، لأن النـزل مـا يعـد للقـادم عـاجلاً إذا نـزل، ثم يـؤتى بعـده بمـا هـو المقصـود مـن أنـواع الكرامـة، فلمـا جعـل هـذا، مـع أنـه أمـر مهـول، كـالنزل، دل علـى أن بعـده مـا لا يطيـق البيان شرحه".

وفـاكهتهم: إنهـا مـن شـجرة الزقـوم، وإنهـا لشـجرة شـنيعة المنظـر فظيعـة المظهـر مـرة المـذاق، قـال تعـالى: ﴿طَلْعُهَـا كَأَنَّـهُ رُءُوسُ الشَّـيَاطِينِ (65) فَـإِنَّهُمْ لَآكِلُـونَ مِنْهَـا فَمَـالِئُونَ مِنْهَـا الْبُطُـونَ (66) ثُمَّ إِنَّ لَهُـمْ عَلَيْهَـا لَشَـوْبًا مِـنْ حَمِـيمٍ (67) ثُمَّ إِنَّ مَـرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِـيمِ (68)﴾ [الصـافات: 65-68] فـأي نكـال بعـد هـذا النكـال؟! واسمـع إلى قـول رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم وهـو يصـف تلـك الشـجرة: "لـو أن قطـرة مـن الزقـوم قطـرت في دار الـدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟!"صحيح الجامع الصغير.

قال ﷺ: " ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع" رواه مسلم.

وقال ﷺ: " ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث" رواه مسلم.

فتأمل يا عبد الله.. في قدرة الله وحكمته، كيف ضخم أجسام الكفار نكاية بهم وزيادة لهم في الشقاء والعذاب وتصور إذا كان ضرس الكافر مثل جبل أحد فكيف سيكون شكله وهيئته وجسمه؟! إن العقل يعجز عن تصور هذا الشكل الرهيب العظيم. إنما عظم الله أجسامهم لأنها وقود النار بها تتسعر وتتقد، نسأل الله السلامة والعافية.

أهل النار يعذبون ظاهراً وباطناً: فهم مع عذابهم الجسدي، يتعذبون بالحسرة والندامة على كفرهم وأعمالهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (54)﴾ [يونس: 54] وتزداد ندامتهم إذ يتبرأ منهم الشيطان الذي أغواهم. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22)﴾ [إبراهيم: 22].

بل يصرخون بندامتهم واعترافهم بذنبهم وقلة عقلهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (11)﴾ [الملك: 10-11].

ويتمنون لو أن كانوا تراباً من شدة ندمهم. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (40)﴾ [النبأ: 40].

وتارة يلوم بعضهم بعضاً. قال تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (59) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (60) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (61)﴾ [ص: 59-61].

ويزدادون حسرة إذ يلومهم المؤمنون ويوبخونهم: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (51)﴾ [الأعراف: 50-51] وتكتمل حسرتهم إذ يوبخهم الملائكة.

قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78)﴾ [الزخرف: 77-78].

عن أبي هريرة ﷺ قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا يدخل أحدٌ الجنّة إلّا أري مقعده من النّار لو أساء، ليزداد شكرًا، ولا يدخل النّار أحدٌ إلّا أري مقعده من الجنّة لو أحسن، ليكون عليه حسرةً» رواه البخاري.

* قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30)﴾ [النبأ: 30].

وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: 56].

ومثل قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (97)﴾ [الإسراء: 97].

قال ابن كثير رحمه الله: "وقوله تعالى " فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً " أي يقال لأهل النار ذوقوا ما أنتم فيه فلن نزيدكم إلا عذابا من جنسه " وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ " قال قتادة عن أبي أيوب الأزدي عن عبد الله بن عمرو قال: "لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية " فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً" قال فهم في مزيد من العذاب أبدا" اهـ.

قال في (أضواء البيان): "قوله تعالى: "وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب" غافر. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة، أن أهل النار طلبوا من خزنة جهنم أن يدعوا لهم الله أن يخفف عنهم من شدة عذاب النار. وقد بين في سورة

"الزخرف" أنهم نادوا مالكا خاصة، من خزنة أهل النار، ليقضي الله عليهم، أي: ليميتهم فيستريحوا بالموت من عذاب النار. وقد أوضح جل وعلا في آيات من كتابه، أنهم لا يجابون في واحد من الأمرين، فلا يخفف عنهم العذاب، الذي سألوا تخفيفه، في سورة "المؤمن" هذه، ولا يحصل لهم الموت الذي سألوه في سورة "الزخرف"، فقال تعالى في عدم تخفيف العذاب عنهم في هذه الآية: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (50)﴾ [غافر: 50] وقال تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (36)﴾ [فاطر: 36]، وقال تعالى: ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (30)﴾ [النبأ: 30]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75)﴾ [الزخرف: 75]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65)﴾ [الفرقان: 65]، وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77)﴾ [الفرقان: 77]، وقال تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (162)﴾ [البقرة: 162]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (37)﴾ [المائدة: 37]. وقال تعالى في عدم موتهم في النار: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ [فاطر: 36] وقال تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: 17]. وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: 56]. وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74)﴾ [طه: 74]. وقال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13)﴾ [الأعلى: 11-13] ولما قالوا: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: 77]، أجابهم بقوله: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77)﴾ [الزخرف: 77]" اهـ.

عن أبي الدرداء ﷺ قال: "يلقى على أهل النار الجوع فيعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فإذا

دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم فيقولون: ادعوا خزنة جهنم فيقولون: ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا: بلى. قالوا: فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال " قال: " فيقولون: ادعوا مالكا فيقولون: يا مالك ليقض علينا ربك " قال: " فيجيبهم إنكم ماكثون ". قال الأعمش: نبئت أن بين دعائهم وإجابة مالك إياهم ألف عام. قال: " فيقولون: ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون: ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون " قال: " فيجيبهم: اخسؤوا فيها ولا تكلمون " قال: " فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند ذلك يأخذون في الزفير والحسرة والويل "رواه الترمذي.

وفي الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: " يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ويقال يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون فيقولون نعم هذا الموت قال فيؤمر به فيذبح ثم يقال يا أهل الجنة فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39)﴾ [مريم: 39].

وخرجه الترمذي بمعناه وزاد: " فلولا أن الله قضى لأهل الجنة بالحياة والبقاء لماتوا فرحا ولولا أن الله قضى لأهل النار بالحياة والبقاء لماتوا ترحا" وخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه معناه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ وقال فيه إن أهل الجنة يطلعون خائفين واجلين فإن أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه وإن أهل النار يطلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكانهم الذين هم فيه وفي رواية الترمذي: "مستبشرين يرجون الشفاعة" وخرجاه في الصحيحين من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ بمعناه وفي حديثه: " فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم" وروى ابن أبي الدنيا بإسناده عن هشام بن حسان قال: " مر عمر بن الخطاب ﷺ بكثيب من رمل فبكى فقيل له ما يبكيك يا أمير المؤمنين قال: "ذكرت أهل النار فلو كانوا مخلدين في النار بعدد هذا الرمل كان لهم أمد يمدون إليه أعناقهم ولكنه الخلود أبدا".

وخرج ابن أبي الدنيا من رواية مطرف بن الشخير عن كعب قال: "كنت عند عمر فقال يا كعب خوفنا! فقلت: يا أمير المؤمنين إن جهنم لتزفر يوم القيامة زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر ساجدا على ركبتيه حتى إن إبراهيم خليله عليه السلام ليخر جاثيا ويقول نفسي نفسي لا أسألك اليوم إلا نفسي قال فأطرق عمر مليا قال قلت يا أمير المؤمنين أو لستم تجدون هذا في كتاب الله عز وجل؟ قال عمر: كيف؟ قلت يقول الله عز وجل في هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (111)﴾ [النحل: 111].

كان يزيد الرقاشي إذا دخل بيته بكى، وإن شهد جنازة بكى، وإن جلس إليه إخوانه بكى وأبكاهم. فقال له ابنه يوماً: كم تبكي يا أبت! والله لو كانت النار خلقت لك ما زدت على هذا البكاء! فقال: ثكلتك أمك يا بني! وهل خلقت إلا لي ولأصحابي ولإخواننا من الجن والإنس؟ أما تقرأ يا بني قوله تعالى: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ ﴾[الرحمن: 31]. أما تقرأ يا بني قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35)﴾ [الرحمن: 35]؟!

***الجنة:**

ما حدثنا الله به عنها وما أخبرنا به الرسول ﷺ يحير العقل ويذهله، فإن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه، قال تعالى: "﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (146)﴾ [الأنعام: 146].

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (87)﴾ [النساء: 87].

﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (122)﴾ [النساء: 122].

استمع إلى قوله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: " أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر" ثم قال الرسول ﷺ: " اقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17]"رواه البخاري.

﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58)﴾ [الرحمن: 56-58].

﴿وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23)﴾ [الواقعة: 22-23].

﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49)﴾ [الصافات: 48-49].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يومًا يحدّث، وعنده رجلٌ من أهل البادية: " أنّ رجلًا من أهل الجنّة استأذن ربّه في الزّرع، فقال له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكنّي أحبّ أن أزرع، قال: فبذر، فبادر الطّرف نباته واستواؤه واستحصاده، فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا ابن آدم، فإنّه لا يشبعك شيءٌ "، فقال الأعرابيّ: والله لا تجده إلّا قرشيًّا، أو أنصاريًّا، فإنّهم أصحاب زرعٍ، وأمّا نحن فلسنا بأصحاب زرعٍ، فضحك النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم"رواه البخاري.

وتظهر عظمة النعيم بمقارنته بمتاع الدنيا، فإن متاع الدنيا بجانب نعيم الآخرة تافه حقير، لا يساوي شيئاً. ففي صحيح البخاري عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " لموضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها". وفي الصحيحين واللفظ للبخاري، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: انخسفت الشمس على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر الحديث، وفيه: فقالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك، ثم رأيناك كعكعت؟ فقال: " أني رأيت الجنة، فتناولت عنقوداً، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار، فلم أر منظراً كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء " قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: "بكفرهن" قيل: يكفرن بالله؟ قال: " يكفرن العشير، ويكفرن

الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئاً، قالت: ما رأيت خيراً قط".

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة: رجل يخرج من النار حبواً، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة فيأتيها، فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب، وجدتها ملأى، فيقول الله عز وجل: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا، وعشرة أمثالها أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي – أو أتضحك بي – وأنت الملك؟ قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، فكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة " أخرجه البخاري ومسلم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله أن رسول الله ﷺ قال: " آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: يا رب، أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها، وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟ فيقول: لا، يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرها، قال: وربه عز وجل يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أدنني من الشجرة لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي أن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه تعالى يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة، وهي أحسن من الأوليين، فيقول: أي رب أدنني من هذه لأستظل بظلها، وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ قال: بلى، يا رب لا أسألك غيرها – وربه عز وجل يعذره، لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها

سمع أصوات أهل الجنة فيقول: أي رب أدخلنيها، فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني منك؟! أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فضحك ابن مسعود ﷺ، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ فقال: من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني على ما أشاء قادر " أخرجه مسلم. وفي رواية قال: « إن أدنى أهل الجنة منزلة رجل صرف الله وجهه عن النار قبل الجنة ومثل له شجرة ذات ظل فقال أى رب قدمنى إلى هذه الشجرة أكون في ظلها ».

وساق الحديث بنحو حديث ابن مسعود ولم يذكر « فيقول يا ابن آدم ما يصرينى منك». إلى آخر الحديث وزاد فيه « ويذكره الله سل كذا وكذا فإذا انقطعت به الأمانى قال الله هو لك وعشرة أمثاله – قال – ثم يدخل بيته فتدخل عليه زوجتاه من الحور العين فتقولان الحمد لله الذى أحياك لنا وأحيانا لك – قال – فيقول ما أعطى أحد مثل ما أعطيت ».

قوله: (ما يصريني منك؟) معناه ما يقطع مسألتك مني؟ قال أهل اللغة: الصري هو القطع، والمعنى أي شيء يرضيك ويقطع السؤال بيني وبينك.

وعن عمرو بن ميمونٍ أنّ ابن مسعودٍ ﷺ: حدّثهم أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "يكون في النّار قومٌ ما شاء الله ثمّ يرحمهم الله ثمّ يخرجهم فيكونون في أدنى الجنّة فيغسّلون في عين الحياة فيسمّيهم أهل الجنّة: الجهنّميّون لو طاف بأحدهم أهل الدّنيا لأطعمهم وسقاهم وفرشهم . قال: وأحسبه قال: وزوّجهم لا ينقص ذلك مما عنده" رواه ابن حبان وصححه الألباني.

*‏**وعدد أبواب الجنة ثمانية**، وأحد هذه الأبواب يسمى الريّان وهو خاص بالصائمين ففي الصحيحين عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: "في الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل غيرهم". وهناك باب

للمكثرين من الصلاة، وباب للمتصدقين، وباب للمجاهدين، بالإضافة إلى باب الصائمين المسمى بالريّان، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "من أنفق زوجين في سبيل الله من ماله، دُعي من أبواب الجنة، وللجنة ثمانية أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام ". فقال أبو بكر: والله ما على أحد من ضرر دعي من أيها دعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: نعم وأرجو أن تكون منهم". وسؤال أبي بكر ﷺ يريد به شخصاً اجتمعت فيه خصال الخير، من صلاة، وصيام وصدقة وجهاد ونحو ذلك، بحيث يدعي من جميع تلك الأبواب، وقد أخبر الرسول ﷺ أن الذي ينفق زوجين في سبيل الله يدعى من أبواب الجنة الثمانية، وأخبر الرسول ﷺ أن الذي يتوضأ فيحسن الوضوء، ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن مُحَمَّداً عبده ورسوله تفتح له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها يشاء. رواه مسلم.

تفاوت درجات أهل الجنة: في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: "إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم. قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ".

وعن أبي هريرة، عن النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: «إنّ في الجنّة مائة درجةٍ، أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، كلّ درجتين ما بينهما كما بين السّماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنّه أوسط الجنّة، وأعلى الجنّة، وفوقه عرش الرّحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنّة» رواه البخاري.

وأخرج البخاري في باب الجهاد والسير عن أنس ﷺ «أن أم الربيع بنت البراء – وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله ألا تحدثني عن حارثة، وكان قتل يوم بدر، أصابه سهم غرب فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه بالبكاء، فقال: يا أم حارثه، إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » وفي لفظ آخر «أهبلت؟ أجنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه الفردوس الأعلى».

وروى مسلم عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن".

وفي مسند أحمد ومعجم الطبراني بإسناد صحيح عن النبي ﷺ قال: " أفضل الشهداء الذين يقاتلون في الصف الأول، فلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا، أولئك يتلبطون في الغرف العلى من الجنة، يضحك إليهم ربهم، فإذا ضحك ربك إلى عبد في موطن فلا حساب عليه ".

وفي مسند أحمد عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: " إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب، أنَّ لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك".

قال ابن كثير: "وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، ولكن له شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له "" اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، قال: " أوّل زمرةٍ تدخل الجنّة على صورة القمر ليلة البدر، والّذين على إثرهم كأشدّ كوكبٍ إضاءةً، قلوبهم على قلب رجلٍ واحدٍ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، لكلّ امرئٍ منهم زوجتان، كلّ واحدةٍ منهما يرى مخّ ساقها من وراء لحمها من الحسن، يسبّحون الله بكرةً وعشيًّا، لا يسقمون، ولا يمتخطون، ولا يبصقون، آنيتهم الذّهب والفضّة، وأمشاطهم الذّهب، ووقود مجامرهم

الألـوّة – قـال أبـو اليمـان: يعـني العـود، ورشـحهم المسـك "متفـق عليـه. وفي روايـة لهمـا: " وأزواجهـم الحـور العـين، علـى خلـق رجـلٍ واحـدٍ، علـى صـورة أبـيهم آدم، سـتّون ذراعًـا في السّماء».

فالـذي يتفـاوت فيـه أهـل الجنـة مما نـص عليـه في الحـديث قـوة نـور كـل منـهم، أمـا خلوصـهم مـن الأذى فـإنهم يشـتركون فيـه جميعـاً، فهـم لا يتغوطـون ولا يتبولـون، ولا يتفلـون، ولا يبزقـون، ولا يمتخطـون، وإذا كـان خلقهـم الظـاهري متفـق، فكـذلك خلقهـم في باطـنهم واحـد، نفوسـهم صـافية، وأرواحهـم طـاهرة زكيـة، وقـد قـرر شـيخ الإسـلام رحمـه الله أن هـذا التسـبيح والتكبـير لـون مـن ألـوان النعـيم الـذي يتمتـع بـه أهـل الجنـة، قـال: "هـذا لـيس مـن عمـل التكليـف الـذي يطلب له ثواب منفصل، بل نفس هذا العمل من النعيم الذي تتنعم به الأنفس وتتلذذ به".

وقـد يقـال: فـأين تـذهب فضـلات الطعـام والشـراب؟ ففـي صـحيح مسـلم عـن جـابر عبـد الله رضـي الله عنهمـا قـال: سمعـت رسـول الله ﷺ: يقـول: "إن أهـل الجنـة يأكلـون فيهـا ويشـربون، ولا يتفلـون، ولا يتبولـون، ولا يتغوطـون، ولا يمتخطـون"، قـالوا: فمـا بال الطعـام؟ قـال: جشـاء كجشاء المسك".

وأخـرج الطّـبرانيّ بإسـناد قـويّ عـن أنـس مرفوعًـا: " إنّ أدنى أهـل الجنّـة درجـةً لمـن يقـوم علـى رأسـه عشـرة آلاف خـادم بيـد كـلّ واحـد صـحفتان واحـدةٌ مـن ذهـب والأخـرى مـن فضّـة" فـتح الباري.

وروى البيهقـي عـن عبـد الله بـن عمـرو رضـي الله عنهمـا قـال: " إن أدنى أهـل الجنـة منزلـة مـن يسـعى عليـه ألـف خـادم كـل خـادم علـى عمـل لـيس عليـه صـاحبه قـال وتـلا هـذه الآيـة: " إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا"".

وعـن مجاهـدٍ رحمـه الله قـال: «إنّ أدنى أهـل الجنّـة منزلـةً لمـن يسـير في ملكـه ألـف سـنةٍ، لـن يـرى أقصاه كما يرى أدناه، وأرفعهم الّذي ينظر إلى ربّه بالغداة والعشيّ».

وعن أبي هريرة ﷺ قال: «إنّ أدنى أهل الجنّة منزلةً – وما منهم دانٍ – لمن يغدو عليه ويروح عشرة آلاف خادمٍ، ومع كلّ واحدٍ منهم طرفةٌ ليست مع صاحبه» الزهد لابن المبارك.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "إنّ أدنى أهل الجنّة منزلةً من ينظر إلى ملكه ألفي عامٍ يرى أقصاه كما يرى أدناه، وإنّ أفضل أهل الجنّة منزلةً من ينظر إلى وجه الله في كلّ يومٍ مرّتين".

وعن سعيد بن جبيرٍ رحمه الله قال: "أدنى أهل الجنّة منزلةً من له ألف قصرٍ، فيه سبعون ألف خادمٍ، ليس منهنّ خادمٌ إلّا في يدها صحفةٌ سوى ما في يد صاحبها، لا يفتح بابه بشيءٍ يريده، لو ضافه جميع أهل الدّنيا لأوسعهم" المصنف لابن أبي شيبة.

عن عبد الله بن مسعودٍ، قال: " يجمع الله النّاس يوم القيامة وينزل الله في ظلٍّ من الغمام، فينادي منادٍ: يا أيّها النّاس، ألم ترضوا من ربّكم الّذي خلقكم وصوّركم ورزقكم أن يولّي كلّ إنسانٍ منكم ما كان يعبد في الدّنيا ويتولّى؟ أليس ذلكم من ربّكم عدلٌ؟ قالوا: بلى، قال: فلينطلق كلّ إنسانٍ منكم إلى ما كان يتولّى في الدّنيا، قال: ويمثّل لهم ما كانوا يعبدون في الدّنيا، قال: ويمثّل لمن كان يعبد عيسى شيطان عيسى، ويمثّل لمن كان يعبد عزير شيطان عزير، حتّى يمثّل لهم الشّجرة والعود والحجر، ويبقى أهل الإسلام جثومًا، فيقول لهم الرّبّ تبارك وتعالى: «ما لكم لا تنطلقون كما انطلق النّاس؟» فيقولون: إنّ لنا ربًّا ما رأيناه بعد، فيقول: «فبم تعرفون ربّكم إن رأيتموه؟» قالوا: بيننا وبينه علامةٌ إن رأيناها عرفناه، قال: فيكشف عند ذلك عن ساقٍ، قال: فيخرّ كلّ من كان بظهره الطّبق ساجدًا، ويبقى قومٌ ظهورهم كصياصيّ البقر، يريدون السّجود فلا يستطيعون، ثمّ يؤمرون فيرفعون رءوسهم فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، قال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم يعطى نوره مثل النّخلة بيمينه، ومنهم من يعطى نوره دون ذلك، حتّى تكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرّةً ويطفيء مرّةً، فإذا أضاء

قدّم قدمه، وإذا أطفيء قام، قال: فيمرّ ويمرّون على الصّراط، والصّراط كحدّ السّيف، دحضٌ مزلّةٌ، قال: فيقول لهم: انجوا على قدر نوركم، فمنهم من يمرّ كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمرّ كالطّرف، ومنهم من يمرّ كالرّيح، ومنهم من يمرّ كشدّ الرّحل، ويرملون رملًا، فيمرّون على قدر أعمالهم، حتّى يمرّ الّذي نوره على إبهام قدمه، قال: تخرّ يدٌ وتعلق يدٌ، وتخرّ رجلٌ، وتعلق أخرى، وتصيب جوانبه النّار، فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الّذي نجّانا منك بعد الّذي أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحدًا، قال: فينطلقون إلى ضحضاحٍ عند باب الجنّة فيغتسلون، فيعود إليهم ريح أهل الجنّة وألوانهم، ويرون من خلل باب الجنّة وهو مصفقٌ منزلًا في أدنى الجنّة فيقولون: ربّنا أعطنا ذلك المنزل، فيقول لهم: «أتسألوني الجنّة وقد نجّيتكم من النّار؟» فيقولون: ربّنا أعطناه، اجعل بيننا وبين النّار هذا الباب، لا نسمع حسيسها، فيقول: «لعلّكم إن أعطيتكموه أن تسألوا غيره»، فيقولون: لا وعزّتك لا نسألك غيره، وأيّ منزلٍ يكون أحسن منه؟ فيدخلون الجنّة ويرفع لهم منزلٌ أمام ذلك كان الّذي رأوه قبل ذلك حلمًا عنده، فيقولون: ربّنا أعطنا ذلك المنزل، فيقول لهم: «لعلّكم إن أعطيتكموه أن تسألوا غيره»، فيقولون: لا وعزّتك، لا نسألك غيره، وأيّ منزلٍ أحسن منه؟ فيعطونه ثمّ يرفع لهم منزلٌ أمام ذلك كان الّذي أعطوه قبل ذلك كان حلمًا عند الّذي رأوا، فيقولون: ربّنا أعطنا ذلك المنزل، فيقول: «لعلّكم إن أعطيتموه تسألوا غيره»، فيقولون: لا وعزّتك، لا نسألك غيره، وأيّ منزلٍ أحسن منه؟ ثمّ يسكتون ليقال لهم: «مالكم لا تسألون؟» فيقولون: ربّنا قد سألناك حتّى استحيينا، فيقول لهم الرّبّ تبارك وتعالى: «ألا ترضون أن أعطيكم مثل الدّنيا منذ خلقتها إلى يوم أفنيتها وعشرة أضعافها؟» فيقولون: أتستهزئ بنا وأنت ربّ العالمين؟ قال مسروقٌ: فما بلغ عبد الله هذا المكان من هذا الحديث إلّا ضحك، فقال له رجلٌ: يا أبا عبد الرّحمن، لقد حدّثت هذا الحديث مرارًا فما بلغت هذا المكان من هذا الحديث إلّا ضحكت؟ فقال عبد الله: سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يحدّثه مرارًا، فما بلغ هذا المكان من هذا الحديث إلّا ضحك حتّى تبدو لهواته، يقول الإنسان: أتستهزئ بنا وأنت ربّ العالمين؟ فيقول: «لا، ولكنّي على ذلك

قادرٌ فسلوني»، فقالوا: ربّنا ألحقنا النّاس، فيقال لهم: ألحقوا النّاس، فينطلقون يرفلون في الجنّة، حتّى يبدو للرّجل منهم قصرٌ درّةٌ مجوّفةٌ، فيخرّ ساجدًا، فيقال له: ارفع رأسك، فيرفع رأسه، فيقول: رأيت ربّي، فيقال له: إنّما ذلك منزلٌ من منازلك، فينطلق فيستقبله رجلٌ فيتهيّأ للسّجود فيقال له: ما لك؟ فيقول: رأيت ملكًا أو ملكًا، شكّ أبو غسّان، فيقال له: إنّما ذلك قهرمانٌ من قهارمتك، عبدٌ من عبيدك فيأتيه فيقول: إنّما قهرمانٌ من قهارمتك على هذا القصر تحت يدي ألف قهرمانٍ كلّهم على ما أنا عليه، فينطلق عند ذلك فيفتح له القصر وهو درّةٌ مجوّفةٌ سقائفها وأبوابها وأعلاقها ومفاتيحها منها، قال: فيفتح له القصر فيستقبله جوهرةٌ خضراء مبطّنةٌ بحمراء سبعين ذراعًا فيها ستّون بابًا، كلّ بابٍ يفضي إلى جوهرةٍ حمراء مبطّنةٍ بخضراء فيها ستّون بابًا، كلّ بابٍ يفضي إلى جوهرةٍ على غير لون صاحبتها في كلّ جوهرةٍ سررٌ وأزواجٌ ويصائف، أو قال: ووصائف، هكذا قال في الحديث، فيدخل فإذا هو بحوراء عيناء عليها سبعون حلّةً، يرى مخّ ساقها من وراء حللها، كبدها مرآته وكبده مرآتها، إذا أعرض عنها إعراضةً ازدادت في عينه سبعين ضعفًا عمّا كانت قبل ذلك، فإذا أعرضت عنه إعراضةً ازداد في عينها سبعين ضعفًا عمّا كان عليه قبل ذلك، فتقول له: ازددت في عيني سبعين ضعفًا، ويقول لها مثل ذلك، فيشرف على ملكه مدّ بصره مسيرة مائة عامٍ، فقال عمر بن الخطّاب عند ذلك: ألا تسمع يا كعب إلى ما يحدّثنا به ابن أمّ عبدٍ، عن أدنى أهل الجنّة ما له، فكيف بأعلاهم؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، إنّ الله كان فوق العرش والماء، فخلق لنفسه دارًا بيده فزيّنها بما شاء، وجعل فيها ما شاء من الثّمرات والشّراب، ثمّ أطبقها فلم يرها أحدٌ من خلقه منذ خلقها، جبريل ولا غيره من الملائكة، ثمّ قرأ كعبٌ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17] [السجدة: 17] الآية، وخلق دون ذلك جنّتين فزيّنهما بما شاء، وجعل فيهما ما ذكر من الحرير والسّندس والإستبرق وأراهما ما شاء من خلقه من الملائكة، فمن كان كتابه في علّيّين له تلك الدّار، فإذا ركب الرّجل من أهل علّيّين في ملكه لم يبق خيمةٌ من خيام الجنّة إلّا دخلها من ضوء وجهه حتّى إنّهم ليستنشقون ريحه يقولون: واهًا

لهذه الرّيح الطّيّبة، ويقولون: لقد أشرف علينا اليوم رجلٌ من أهل عليّين، فقال عمر: ويحك يا كعب، إنّ هذه القلوب قد استرخت فاقبضها، فقال كعبٌ: يا أمير المؤمنين، إنّ لجهنّم زفرةً ما من ملكٍ مقرّبٍ، ولا نبيٍّ إلّا يخرّ لركبتيه حتّى يقول إبراهيم خليل الله: ربّ نفسي نفسي، حتّى لو كان لك عمل سبعين نبيًّا إلى عملك لظننت أن لن تنجو منها" المعجم الكبير للطبراني.

في الجنة عيون كثيرة مختلفة الطعم والمشرب: قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (45)﴾ [الحجر: 45].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (41)﴾ [المرسلات: 41]

وقال في وصف الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف ربه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50)﴾ [الرحمن: 50]. وقال في وصف الجنتين اللتين دونهما: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66)﴾ [الرحمن: 66].

وفي الجنة عينان يشرب المقربون ماءها صرفاً غير مخلوط، ويشرب منهما الأبرار الشراب مخلوطاً ممزوجاً بغيره، العين الأولى: عين الكافور قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (5) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (6)﴾ [الإنسان: 5-6].

فقد أخبر أن الأبرار يشربون شرابهم ممزوجاً من عين الكافور، بينما عباد الله يشربونها خالصاً.

العين الثانية: عين التسنيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28)﴾ [المطففين: 22-28]. ومن عيون الجنة عين تسمى السلسبيل، قال تعالى:

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا (17) عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا (18)﴾ [الإنسان: 17-18].

روى مسلم عن عبد الله بن قيس عن النبي ﷺ قال: " إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن، فلا يرى بعضهم بعضاً ".

وفي رواية: " في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل، ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن".

وعن أبي سعيد ﷺ قال: "خلق الله تبارك وتعالى الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك، وقال لها تكلمي فقالت: قد أفلح المؤمنون فقالت الملائكة طوبى لك منزل الملوك" رواه الطبراني.

قال القرطبي رحمه الله: "قال العلماء: ليس في الجنة ليل ونهار، وإنما هم في نور دائم أبدا، وإنما يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب، ذكره أبو الفرج بن الجوزي.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: " ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا * تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً" أي في مثل وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار".

أشجار الجنة: في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: " إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام وما يقطعها ".

وفي مسند أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: "طوبى شجرة في الجنة، مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها ".

وفي سنن الترمذي وصحيح ابن حبان وسنن البيهقي بإسناد صحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: " ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب ".

وروى الترمذي بإسناد حسن عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: " لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا مُحَمَّد، أقرئ أمتك أن الجنة أرض طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ".

إرث أهل الجنة: جعل الله لكل واحد من بني آدم منزلين: منزلاً في الجنة، ومنزلاً في النار، ثم إن من كتب له الشقاوة من أهل الكفر والشرك يرثون منازل أهل الجنة التي كانت لهم في النار، والذين كتب لهم السعادة من أهل الجنة يرثون منازل أهل النار التي كانت لهم في الجنة، قال تعالى في حق المؤمنين المفلحين بعد أن ذكر أعمالهم التي تدخلهم الجنة: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11)﴾ [المؤمنون: 10-11].

ثبت في صحيح مسلم عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: "يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعها على اليهود والنصارى" وفي لفظ له: قال رسول الله ﷺ: " إذا كان يوم القيامة دفع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال: هذا فكاكك من النار".

عن أبي هريرة رضي الل عنه قال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا يدخل أحدٌ الجنّة إلّا أري مقعده من النّار لو أساء، ليزداد شكرًا، ولا يدخل النّار أحدٌ إلّا أري مقعده من الجنّة لو أحسن، ليكون عليه حسرةً» رواه البخاري.

قال كعب رحمه الله: "إن بين أهل النار وأهل الجنة كوى، لا يشاء رجل من أهل الجنة أن ينظر إلى عدوه من أهل النار إلا فعل".

وقال أحمد بن أبي الحواري: حدثنا عبد الله بن غياث، عن الفزاري، قال: "لكل مؤمن في الجنة أربعة أبواب، باب يدخل عليه زواره من الملائكة، وباب يدخل عليه أزواجه من الحور والعين، وباب مقفل في ما بينه وبين أهل النار، يفتحه إذا شاء أن ينظر إليهم لتعظم النعمة عليه، وباب فيما بينه وبين دار السلام، يدخل فيه على ربه إذا شاء".

وخرج ابن أبي حاتم بإسناده، عن الضحاك، في قوله تعالى: "فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك" من الدر والياقوت "ينظرون" يعني على السرر ينظرون، كان ابن عباس: يقول: السرر بين الجنة والنار، فيفتح أهل الجنة الأبواب، فينظرون على السرر إلى أهل النار كيف يعذبون، ويضحكون منهم، ويكون ذلك مما يقر الله به أعينهم، أن ينظروا إلى عدوهم كيف ينتقم الله منه" التخويف من النار.

من نعيم أهل الجنة: في مسند أحمد وسنن الترمذي عن معاذ بن جبل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " يدخل أهل الجنة جرداً مرداً، كأنهم مكحلون، أبناء ثلاث وثلاثين".

وأهل الجنة لا ينامون، فقد جاء في حديث جابر بن عبد الله، وعبد الله ابن أبي أوفى أن رسول الله ﷺ قال: "النوم أخو الموت، ولا ينام أهل الجنة". سلسلة الأحاديث الصحيحة.

قال ابن كثير رحمه الله: " وذكر لنا أن كعب الأحبار قال: في الجنة كوى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر إلى عدوه في النار اطلع فيها، فازداد شكرا".

وقلوب أهل الجنة صافيه، وأقوالهم طيبة، وأعمالهم صالحة، فلا تسمع في الجنة كلمة نابية تكدر الخاطر، وتعكر المزاج، وتستثير الأعصاب، فالجنة خالية من باطل الأقوال والأعمال، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (43)﴾ [الأعراف: 43].

وقال تعالى: ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (23)﴾ [الطور: 23].

ولا يطرق المسامع إلا الكلمة الصادقة الطيبة السالمة من عيوب كلام أهل الدنيا قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا (35)﴾ [النبأ: 35].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: 62].

وقال تعالى: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11)﴾ [الغاشية: 11].

إنها دار الطهر والنقاء والصفاء الخالية من الأوشاب والأكدار، إنها دار السلام والتسليم قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26)﴾ [الواقعة: 25-26].

خدم أهل الجنة: قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (19)﴾ [الإنسان: 19].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: "يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان أهل الجنة (مخلدون) أي: على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن، ومن فسرهم بأنهم مخرصون في آذانهم الأقرطة، فإنما عبر عن المعنى، لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورًا (19)﴾ [الإنسان: 19].

أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم، حسبتهم لؤلواً منثوراً، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن".

سوق أهل الجنة: روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ قال: "إن في الجنة لسوقاً، يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم، والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً".

قال النووي في شرحه لهذا الحديث: " المراد بالسوق مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق، ومعنى يأتونها كل جمعة، أي في مقدار كل جمعة، أي أسبوع، وليس هناك حقيقة أسبوع، لفقد الشمس والليل والنهار،... وخص ريح الجنة بالشمال، لأنها ريح المطر عند العرب، كانت تهب من جهة الشام، وبها يأتي سحاب المطر، وكانوا يرجون السحابة الشامية، وجاءت في الحديث تسمية هذه الريح المثيرة، أي المحركة، لأنها تثير في وجوههم ما تثيره من مسك أرض الجنة وغيره من نعيمها ".

الحور العين: يزوج الله المؤمنين في الجنة بزوجات جميلات غير زوجاتهم اللواتي في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54)﴾ [الدخان: 54]. والحور: قال البخاري رحمه الله في صحيحه: "باب الحور العِين وصِفتهنّ. يحار فِيها الطّرف، شدِيدة سوادِ العينِ، شدِيدة بياضِ العينِ" اهـ.

والعين: جمع عيناء، والعيناء هي واسعة العين.

وقد وصف القرآن الحور العين بأصدق وصف وأبدعه فقال عن جمال نساء الجنة: ﴿وَحُورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (23)﴾ [الواقعة: 22-23] والمراد بالمكنون: المخفي المصان، الذي لم يغير صفاء لونه ضوء الشمس، ولا عبث الأيدي، وشبههن في موضع آخر بالياقوت والمرجان ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (57) كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58)﴾ [الرحمن: 56-58].

والياقوت والمرجان حجران كريمان فيهما جمال ولهما منظر حسن بديع. وقد وصف الحرور العين بأنهن قاصرات الطرف، وهن اللواتي قصرن بصرهن على أزواجهن، فلم تطمح أنظارهن لغير أزواجهن، وقد شهد الله لحور الجنة بالحسن والجمال، وحسبك أن الله شهد بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (71) حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (72)﴾ [الرحمن: 70-72].

وصفهم الله الحور العين: بأنهن كواعب أتراب، قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (31) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (32) وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (33)﴾ [النبأ: 31-33].

والكاعب: المرأة الجميلة التي برز ثدياها، والأتراب المتقاربات في السن.

والحور العين من خلق الله في الجنة، أنشأهن الله إنشاءً فجعلهنّ أبكاراً، عرباً أتراباً ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (36) عُرُبًا أَتْرَابًا (37) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (38)﴾ [الواقعة: 35-38] وكونهن أبكاراً يقضي أنه لم ينكحهن قبلهم أحد، كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ (56)﴾ [الرحمن: 56]، وهذا ينفي قول من قال: إن المراد بالزوجات اللواتي ينشئهن الله في الجنة زوجاتهم في الدنيا إذ يعيدهن شباباً بعد الكهولة والهرم، وهذا المعنى صحيح، فالله يدخل المؤمنات الجنة في سن الشباب، ولكنهن لسن الحور العين اللواتي ينشئهن الله إنشاء. والمراد بالعُرُب: الغنجات المتحببات لأزواجهنّ.

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن جمال نساء أهل الجنة، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: " أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون، ولا يمتخطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ".

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " أول زمرة يدخلون الجنة كأن وجوههم ضوء القمر ليلة البدر والزمرة الثانية على لون أحسن كوكب دري في السماء لكل واحد منهم زوجتان من الحور العين على كل زوجة سبعون حلة يرى مخ سوقهما من وراء لحومهما وحللهما كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء" رواه الطبراني بإسناد صحيح.

في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عته قال: قال رسول الله ﷺ: " لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها "ونساء أهل الجنة مطهرات من الحيض والنفاس وكل قاذورات نساء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: 25].

قال ابن أبي الدنيا وساق بسنده ابن عباس رضي الله عنهما يقول: "لو أن حوراء أخرجت كفها بين السماء والأرض لافتتن الخلائق بحسنها ولو أخرجت نصيفها لكانت الشمس عند حسنها مثل الفتيله في الشمس لا ضوء لها ولو أخرجت وجهها لأضاء حسنها ما بين السماء والأرض".

وتحديد عدد زوجات كل شخص في الجنة باثنين يبدو أنه أقل عدد، فقد ورد أن الشهيد يزوج باثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ففي سنن الترمذي وسنن ابن ماجة. بإسناد صحيح عن المقدام بن معدي كرب قال: قال رسول الله ﷺ: "للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقربائه ".

قال ابن وهب: وحدثنا الليث بن سعد عن خالد بن يزيد: "أن الحور العين يغنين أزواجهن فيقلن نحن الخيرات الحسان أزواج شباب كرام ونحن الخالدات فلا نموت ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط ونحن المقيمات فلا نطعن في صدر إحداهن مكتوب أنت حبي وأنا حبك انتهت نفسي عندك لم تر عيناني مثلك" وقال ابن المبارك حدثنا الأوزاعي حدثنا يحيى بن أبي كثير: "أن الحور العين يتلقين أزواجهن عند أبواب الجنة فيقلن طالما انتظرناكم فنحن الراضيات فلا نسخط والمقيمات فلا نظعن والخالدات فلا نموت بأحسن أصوات وتقول أنت حبي وأنا حبك".

قال ابن القيم رحمه الله: "عن سعيد بن جبير: أن شهوته لتجري في جسده سبعين عاما يجد اللذة ولا يلحقهم بذلك جنابة فيحتاجون إلى التطهير ولا ضعف ولا انحلال قوة بل وطئهم وطء التذاذ ونعيم لا افة فيه بوجه من الوجوه. وأكمل الناس فيه أصونهم لنفسه في هذه الدار عن الحرام فكما أن من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن أكل في صحاف الذهب والفضة في الدنيا لم يأكل فيها في الآخرة كما قال النبي ﷺ: "إنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة". فمن استوفى طيباته ولذاته وأذهبها في هذه الدار حرمها هناك كما نعى سبحانه وتعالى على من أذهب طيباته في الدنيا واستمتع بها ولهذا كان الصحابة ومن تبعهم يخافون من ذلك اشد الخوف وذكر الإمام أحمد: عن جابر بن عبد الله أنه رآه عمر ومعه لحم قد اشتراه لأهله بدرهم فقال: "ما هذا" قال: لحم اشتريته لأهلي بدرهم فقال أو كلما اشتهى أحدكم شيئا اشتراه أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: 20]".

وقال رحمه الله: "وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم فهن الكواعب الأتراب اللاتي جرى في أعضائهن ماء الشباب فللورد والتفاح ما لبسته الخدود وللرمان ما تضمنته النهود واللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور وللرقة واللطافة ما دارت عليه الخصور تجري الشمس من محاسن وجهها إذا برزت ويضيء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت إذا قابلت حبها فقل ما تشاء في تقابل النيرين وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحبين وان ضمها إليه فما ظنك بتعانق الغصنين يرى وجهه في صحن خدها كما يرى في المرآة التي جلاها صيقلها ويرى مخ ساقها من وراء اللحم ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حللها لو اطلعت على الدنيا لملأت ما بين الأرض والسماء ريحا ولاستنطقت أفواه الخلائق تهليلا وتكبيرا وتسبيحا ولتزخرف لها ما بين الخافقين ولا غمضت عن غيرها كل عين ولطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم ولآمن من على ظهرها بالله الحي القيوم ونصيفها على رأسها خير من الدينا وما فيها ووصالها أشهى إليه من جميع أمانيها لا تزداد على طول الأحقاب إلا حسنا

وجمالا ولا يزداد لها طول المدى إلا محبة ووصالا مبرأة من الحبل والولادة والحيض والنفاس مطهرة من المخاط والبصاق والبول والغائط وسائر الأدناس لا يفنى شبابها ولا تبلى ثيابها ولا يخلق ثوب جمالها ولا يمل طيب وصالها قد قصرت طرفها على زوجها فلا تطمح لأحد سواه وقصر طرفه عليها فهي غاية أمنيته وهواه إن نظر إليها سرته وان أمرها بطاعته أطاعته وان غاب عنها حفظته فهو معها في غاية الأماني والأمان هذا ولم يطمثها قبله أنس ولا جان كلما نظر إليها ملأت قلبه سرورا وكلما حدثته ملأت أذنه لؤلؤا منظوما ومنثورا وإذا برزت ملأت القصر والغرفة نورا وان سألت عن السن فأتراب في اعدل سن الشباب وان سألت عن الحسن فهل رأيت الشمس والقمر وان سألت عن الحدق فأحسن سواد في أصفى بياض في أحسن حور وان سألت عن القدود فهل رأيت أحسن الأغصان وإن سألت عن النهود فهن الكواعب نهودهن كالطف الرمان وإن سألت عن اللون فكأنه الياقوت والمرجان وإن سألت عن حسن الخلق فهن الخيرات الحسان اللاتي جمع لهن بين الحسن والإحسان فأعطين جمال الباطن والظاهر فهن أفراح النفوس قرة النواظر... وان سألت عن حسن العشرة ولذة ما هنالك فهن العرب المتحببات إلى الأزواج بلطافة التبعل التي تمتزج بالروح أي امتزاج فما ظنك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها وإذا انتقلت من قصر إلى قصر قلت هذه الشمس متنقلة في بروج فلكها وإذا حاضرت زوجها فيا حسن تلك المحاضرة وان خاصرته فيا لذة تلك المعانقة والمخاصرة:

وحديثها السحر الحلال لو أنه ... لم يجن قتل المسلم المتحرز

إن طال لم يملل وان هي حدثت ... ود المحدث أنها لم توجز".

*بعد أن يدخل الله أهل الجنة الجنة ينادون خصومهم من الكفار أهل النار مبكتين ومؤنبين ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (44)﴾ [الأعراف:

44]، لقد كان الكفار في الدنيا يخاصمون المؤمنين، ويسخرون منهم، ويهزؤون بهم، وفي ذلك اليوم ينتصر المؤمنون، فإذا بهم وهم في النعيم المقيم، ينظرون إلى المجرمين، فيسخرون منهم، ويهزؤون بهم، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (25) خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26) وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (27) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (28) إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)﴾ [المطففين: 22-36].

قال رسول الله – ﷺ – "من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة" الحاكم بسند صحيح.

فيا عجباً من سفيه في صورة حليم، ومعتوه في مسلاخ عاقل، آثر الحظ الفاني على الحظ الباقي، وباع جنة عرضها السموات والأرض بسجن ضيق بين أصحاب العاهات والبليات، ومساكن في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، بأعطان ضيقة آخرها الخراب والبوار، وأبكاراً عرباً أتراباً كأنهن الياقوت والمرجان بقذرات مسافحات، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم بالتمتع برؤية الوجه القبيح الدميم، وسماع الخطاب من الرحمن بسماع صوت الشيطان، فوا عجباً: كيف نام عن الجنة طالبها؟ ولم يسمع بمهرها خاطبها؟ وكيف طاب العيش بعد سماع أخبارها؟ وكيف قرت دونها أعين المشتاقين؟ وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين؟

قال مالك بن دينار: سهوت ليلة عن وردي ونمت فإذا أنا في المنام بجارية كأحسن ما يكون في يدها رقعة قالت: أتحسن أن تقرأ؟ فقلت: نعم، فدفعت اليّ الرقعة فإذا فيها: –

أألهتك اللذائذ والأماني ... عن البيض الأوانس في الجنان

تعـــيش مخلـــداً لا مـــوت فيهـــا وتلهـــو في الجنـــان مـــع الحســـان
تنبّـــه مـــن منامـــك إن خـــيراً مـــن النـــوم التهجـــد بالقـــران

أعظـم نعـيم الجنـة: قـال ابـن القـيم رحمـه الله: "في رؤيـتهم ربهـم تبـارك وتعـالى بأبصـارهم جهـرة كمـا يـرى القمـر ليلـة البـدر وتجليـه لهـم ضـاحكا إلـيهم هـذا البـاب أشـرف أبـواب الكتـاب وأجلهـا قـدرا وأعلاهـا خطـرا وأقرهـا عينـا أهـل السـنة والجماعـة وأشـدها علـى أهـل البدعـة والضـلالة وهـي الغايـة الـتي شمـر إليهـا المشـمرون وتنـافس فيهـا المتنافسـون وتسـابق إليهـا المتسـابقون ولمثلهـا فليعمـل العـاملون إذا نالـه أهـل الجنـة نسـوا مـا هـم فيـه مـن النعـيم وحرمانـه والحجاب عنه لأهل الجحيم اشد عليهم من عذاب الجحيم".

يقـول ابـن الأثـير: "رؤيـة الله هـي الغايـة القصـوى في نعـيم الآخـرة، والدرجـة العليـا مـن عطـايا الله الفاخرة، بلغنا الله منها ما نرجوا" اهـ.

وقـال عثمـان بـن سـعيد الـدارمي رحمـه الله: "فأمـا في الآخـرة فمـا أكبـر نعـيم أهـل الجنـة إلا النظـر إلى وجهـه، والخيبـة لمـن حُرِمـه!" ثم ذكـر أن الله تعـالى "احتجـب مـن خلقـه لِيَبْلُـوَ بـذلك إيمـانهم أيّهـم يـؤمن بـه ويعرفـه بالغيـب ولم يـره، وإنمـا يجـزي العبـاد علـى إيمـانهم بالغيـب، لأن الله عـز وجـل لـو تبـدّى لخلقـه وتجلـى لهـم في الـدنيا لم يكـن لإيمـان الغيـب هنـاك معـنى، كمـا أنـه لم يكفـر بـه عنـدها كـافر، ولا عصـاه عـاص، ولكـن احتجـب عـنهم في الـدنيا ودعـاهم إلى الإيمـان بـه بالغيـب وإلى معرفتـه والإقـرار بربوبيتـه، ليـؤمن بـه مـن سـبقت لـه منـه السـعادة، ويحـق القـول علـى الكـافرين، ولـوْ قـد تجلـى لهـم لآمـن بـه مَـن في الأرض جميعـاً بغـير رسـل ولا كتـب ولا دعـاة ولم يعصـوه طرفـة عـين، فـإذا كـان يـوم القيامـة تجلـى لمـن آمـن بـه وصـدق رسـله وكتبـه، وآمـن برؤيتـه، وأقـرّ بصـفاته الـتي وصـف بهـا نفسـه حـتى يـروْه عيـاناً، مثوبـة منـه لهـم وإكرامـاً ليـزدادوا بالنظـر إلى مَـن عبـدوه بالغيـب نعيمـاً، وبرؤيتـه فرحـاً واغتباطـاً ولم يُحْرَمـوا رؤيتـه في الـدنيا والآخـرة جميعـاً، وحُجـب عنـه الكفـار يومئـذ إذْ حُرمـوا رؤيتـه كمـا حرموهـا في الـدنيا ليـزدادوا حسـرة وثبوراً " الرد على الجهمية.

وقال رحمه الله: "والتحقيق أن الجنة ليست اسماً لمجرد الأشجار والفواكه والطعام والشراب والحور العين والأنهار والقصور وأكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة، فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل. ومن أعظم نعيم الجنة التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه وقرّة العين بالقرب منه ورضوانه. فلا نسبه لِلذّة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلى هذه اللذة أبداً. فأيسر يسير من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها من ذلك كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72] وأتى به منكراً في سياق الإثبات. أيْ أيّ شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة.. " انتهى.

وقد صرح الحق تبارك وتعالى برؤية العباد لربهم في جنات النعيم ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23)﴾ [القيامة: 22-23]. والكفار والمشركون يحرمون من هذا النعيم العظيم، والتكرمة الباهرة: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (15)﴾ [المطففين: 15].

وقد روى مسلم في صحيحه والترمذي في سننه عن صهيب الرومي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: " إذا دخل أهل الجنة، يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى "، زاد في رواية: " ثم تلا هذه الآية: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]".

قال ابن القيم رحمه الله: "إذا كانت مشاهدة مخلوق يوم" اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ " استغرقت إحساس الناظرات فقطّعن أيديهن وما شعرن، فكيف بالحال يوم المزيد؟!" اهـ.

قيل لعبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله: " أرأيت قوله: "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ " قال: إن أهل الجنة إذا أُعطوا فيها ما أُعطوا من الكرامة والنعيم نودوا: يا أهل الجنة إن الله وعدكم الزيادة! فيتجلى لهم.

قال ابن أبي ليلى رحمه الله: "فما ظنك حين ثقلت موازينهم وحين صارت الصحف في أيمانهم، وحين جاوزوا جسر جهنم وأُدخلوا الجنة وأُعطوا ما فيها ما أُعطوا من الكرامة والنعيم كأن ذا لم يكن شيئاً فيما رأوه؟! " الزهد لابن المبارك.

خاتمة دعوى أهل الجنة: قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10)﴾ [يونس: 9-10] قال ابن القيم رحمه الله: "والدعوى مثل الدعاء، والدعاء يراد به الثناء ويراد به المسالة وفي الحديث أفضل الدعاء الحمد لله رب العالمين فهذا دعاء ثناء وذكر يلهمه الله أهل الجنة فأخبر سبحانه وعن أوله وآخره فأوله تسبيح وآخره حمد يلهمونهما كما يلهمون النفس، وفي هذا إشارة إلى أن التكاليف في الجنة يسقط عنهم ولا تبقى عبادتهم إلا هذه الدعوى التي يلهمونها".

ونختم بهذه الآيات فتدبرها جيدا: قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (67) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (68) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (69) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (70) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (72) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (73) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74)

وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (75)﴾ [الزمر: 67-75].

قال ابن القيم رحمه الله: "أنه سبحانه وتعالى لا بد إن يظهر لخلقه جميعهم يوم القيامة صدقه وصدق رسله وإن أعداؤه كانوا هم الكاذبين المفترين ويظهر لهم حكمه الذي هو أعدل حكم في أعدائه وأنه حكم فيهم حكما يحمدونه هم عليه، فضلا عن أوليائه وملائكته ورسله بحيث ينطق الكون كله بالحمد لله رب العالمين ولذلك قال تعالى: "وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" فحذف فاعل القول لإرادة الإطلاق وأن ذلك جار على لسان كل ناطق وقلبه، قال الحسن: "لقد دخلوا النار وإن قلوبهم لممتلئة من حمده ما وجدوا عليه سبيلا" وهذا هو الذي حسن حذف الفاعل من قوله: "قِيلَ ادْخُلُوا أبوابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا" حتى كان الكون كله قائل ذلك لهم إذ هو حكمه العدل فيهم ومقتضى حكمته وحمده" اهـ.

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (49)﴾ [الكهف: 49].

أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله: "لَا يُغَادر صَغِيرَة وَلَا كَبِيرَة" قَالَ: الصَّغِيرَة التبسم والكبيرة الضحك".

وعن عون بن عبد الله رحمه الله في قوله عزّ وجل: " ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا" قال: ضجّ والله القومُ من الصّغار قبل الكبار" التمهيد.

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رحمه الله: "يشتكي القوم كما تسمعون الإحصاء، وَلم يشتك أحد ظلما! "اهـ.

نسأل الله بأسمائه الحسنى أن يكرمنا بجنته وأن لا يعذبنا بناره. وأن يرحمنا فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض.. وصلى الله وسلم على نبينا مُحَمَّد وآله وسلم.